روايات الهلال

آرثر كونان دويل

مذكرات شرلوك هولمز



روايات الـهـلال
Rewayat Al Hilal
تصـــدر عـن مؤسســة
دار الهـــلال

العدد ٤٧٥ يوليو ١٩٨٨
دو القعـــدة ١٤٠٨ هـ
No . 475 Ju . 1988

● الاشـــتراكـــات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرون دولار بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق س ـ لبنان ٣٥٠ ليرة ـ الاردن ٥٠٠ فلس ـ الكويت ٤٠٠ فلس ـ العراق ١٦٠٠ فلس ـ السعودية ٧ ريالات ـ السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ـ البحرين ١٢٠٠ فلس ـ الدوحة ٨ ريالات ـ دبى ٨ دراهم ـ ابوظبى ٨ دراهم ـ مسقط ٧٥٠ بيسه ـ تونس ١٦٥٠ مليم ـ المغرب ١٥٠٠ فرنك ـ غزة والضفة ٧٥ سنتا ـ داكار ١٠٠٠ فرنك ـ اليمن الشمالية ١٣ ريالا ـ عدن ١٤٤ سنتا ـ الصومال ١٣٠ بنى ـ لاجوس ١٢٠ بنى ـ ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ـ لندن ١٥٠ سنتا ـ اتينا ٢٠٠ دراخمه ـ كندا ٥٠٠ سنت ـ البرازيل ٦٠٠ سنت ـ استراليا ٦٠٠ سنت .

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

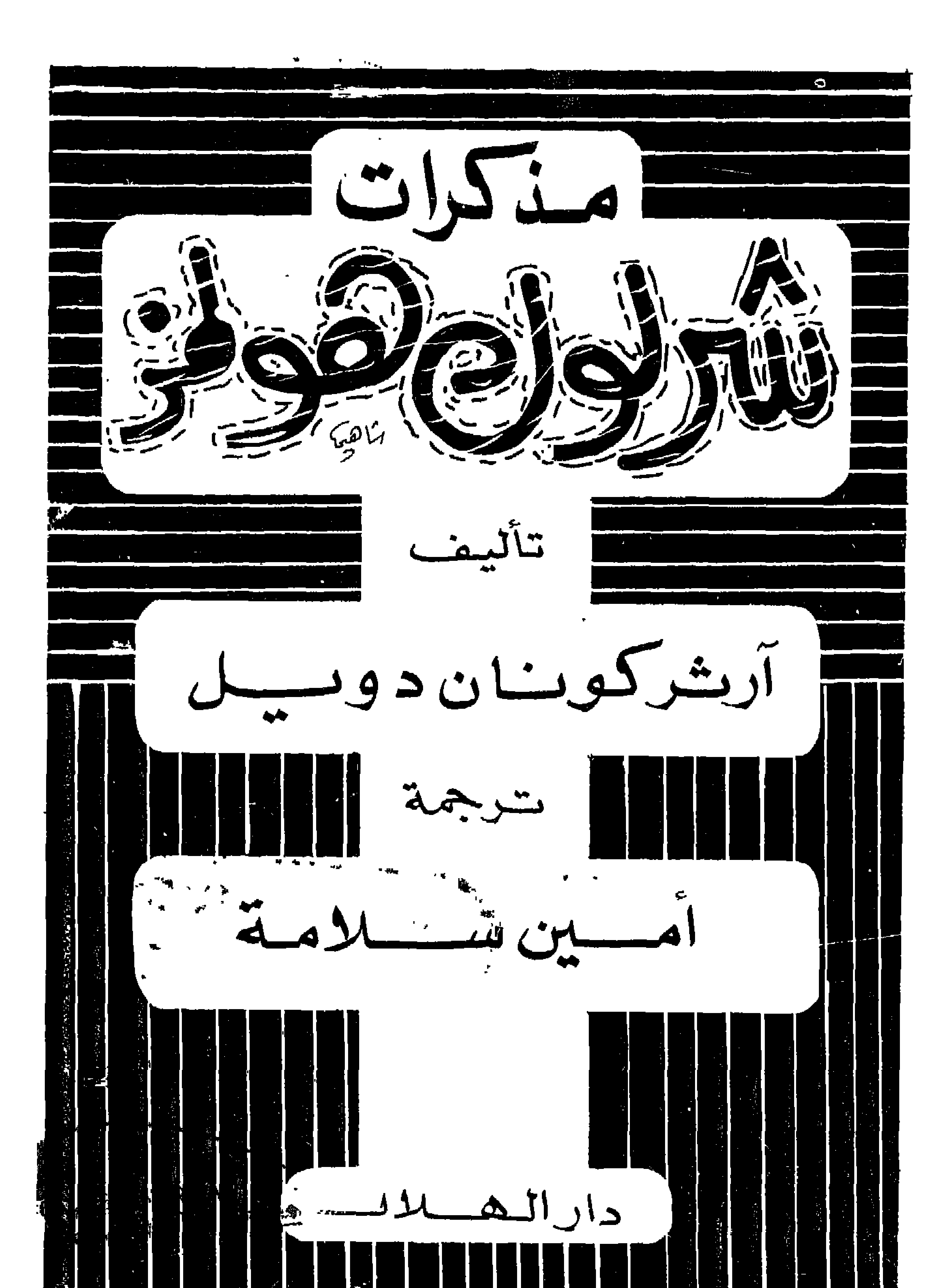
للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحة حسنين


مذكرات
شرلوك هولمز
تأليف
آرثر كونان دويل
ترجمة
أمين سلامة
دار الهلال

هذه الرواية مترجمة عن كتاب

THE MEMORIES OF
SHERLOCK HOLMES
BY
ARTHR CONAN DOYLE

مقدمة

من الجميل ان تقدم دار الهلال « مغامرات شرلوك هولمز » فى هذا الوقت من السنة ، ذلك لان العالم كله يحتفل فى هذه الفترة بمرور مائة عام على ظهور شخصية شرلوك هولمز البالغة المتعة ، ذلك المخبر البوليسي الفائق الروعة بكل ماتتضمنه شخصيته من سحر وجمال وغموض .

والترجمة التى بين يديك ، ايها القارىء العزيز ، تقاضى عنها مؤلفها يوم أن ألفها ، وهو سير آرثر كونان دويل ، مبلغا وقدره ٢٥٠ جنيها « استرلينيا » ، فى حين أن نفس العمل يقدر فى يومنا هذا بما لا يقل عن عشرين الف جنيه استرلينى .

والممتع فى مغامرات شرلوك هولمز انها كتبت لتروق جميع الناس من جميع الاعمار ، صغارا كانوا أو كبارا ، شبابا أو شيوخا .. كما انها كتبت لتقرأ فى جميع العصور لما تحتويه من خيال جامح يصور بروعة كل ماهو شاذ وغريب فى دنيا قصص اللصوص والمجرمين ورجال البوليس معا .

وجدير بالذكر انهم فى انجلترا أقاموا فى عام ١٩٥١ معرضا خاصا لشرلوك هولمز كمظهر بسيط من مظاهر الاحتفال الضخم بشخصيته الفذة .. ولقد تطور هذا الاحتفال حتى اصبح نواة لجمعية راح اعضاؤها يتزايدون حتى أصبح عددهم أكثر من ٩٠٠ عضو منتشرين فى مختلف أنحاء الدنيا . والغريب أن هناك الان أكثر من ٢٥٠ ناديا عالميا تؤمن بشرلوك هولمز وتحتفل به كشخصية أسطورية ممتعة قلما يجود الزمان بمثلها .

* * *

والمدهش ان آرثر كونان دويل ، ذلك الطبيب الشاب الفقير ، لم يفكر فى كتابة شخصية شرلوك هولمز الا بعد أن تأثر بما كتبه ادجار الان بو من قصص رائعة لم يتجاوز عددها الثلاث وقتذاك وكانت كلها تدور حول الجريمة ولا شىء غير الجريمة . ولكنه بعد أن ابتكر

شخصية هولمز اصيب بالدهشة البالغة ذلك لان اجهزة المخابرات فى كل من فرنسا ومصر والصـــين وفى اماكن اخرى عديدة راحوا يؤسسون أجهزتهم البوليسية على ماورد بمغامرات شرلوك هولمز من تفاصيل واعجاز . فقد بدا للكثيرين ان شخصية شرلوك هولمز شخصية حقيقية . ومن هنا يمكن اعتبار أن آرثر كونان قد سبق عصره فى حل الجريمة بالوسائل العلمية ولعل ذلك بدا مناسبا بشكل خارق ابان العصور الفكتورية .

* * *

وما أن ظهرت مغامرات شرلوك هولمز فى عام ١٨٩١ حتى أحدثت هذه القصص القصيرة دويا شديدا وحساسية بالغة بين الناس ولكن ما ان مضى عامان على تأليفها حتى ملها الناس وسئموها . وفى عام ١٩٠١ بدأ شرلوك هولمز يظهر من جديد بشكل صارخ صاروخى جعل الناشر الامريكى يدفع لكونان دويل ٨٠٠٠ جنيه استرلينى اجـرا لها . وكان هذا أعلى اجر تقاضاه كاتب فى التاريخ . وظـل كونان يواصل كتابة مغامرات جديدة حتى عام ١٩٢٧ وهو العام الذى انعم عليه فيه بلقب فارس .

وعبر السنوات راحت مغامراته تقتبس فى تقديم أعمال للراديو والمسرح والتليفزيون كما أن القصص الهولمزية ترجمت الى أكثر من لغة ولهجة بما يفوق أى عمل أدبى انجليزى آخر ويدخل فى ذلك أعمال شكسبير المسرحية الذى يعتبر اعظم شعراء الانجليز قاطبة .

ولقد لقى هولمز رواجا فى اليابان لدرجة أنهم اعتبروه جزءا من تراثهم . اما فى روسيا فقد قدمت مغامرات هولمز فى شكل مسلسلات تليفزيونية حازت اعجاب المشاهدين أيما اعجاب .

يقول ستانلى ماكنزى انه مازال يستنبط الجديد من القصص التى تدور حول شرلوك هولمز ولعل أفضل القصص القصيرة الاثيرة الى نفسه هى قصة « النصل الفضى » . ويمضى فيقول : انه كلما قرأ مغامرات شرلوك هولمز احس بالمتعة الفائقة بعد أن يركن الى السكينة ويسترجع الاحداث بينه وبين نفسه » .

* * *

وقصص شرلوك هولمز التى مضى على تأليفها الان مائة عام ، مازالت اثيرة الى قلب كل قارىء فى العالم . اما الوحيد الذي يمقت

شخصية البطل فهو المؤلف نفسه كونان دويل ، ايمانا منه بأن كتبه الأخرى تعتبر ، فى نظره ، أعمالا تاريخية ذات قيمة أدبية أكبر بكثير ، مثل كتابه عن « الشركة البيضاء » . بيد أن الرسائل راحت تنهال عليه كالمطر من جميع انحاء الدنيا وكانت دموع القراء لا تستطيع أن تتصور أو تتخيل أن هولمز ، تلك الشخصية القوية الفائقة الذكاء يمكن أن تختفى أبدا .. وتهافت الناشرون على المؤلف من جديد وقبل كونان دويل أن يعيد هولمز الى الحياة مرة أخرى كرمز لشخص يمكن اعتباره مخزيا فى ذلك الوقت اما فى أمريكا فقد بيعت قصة شرلوك هولمز بنفس السرعة التى تباع بها الشطائر الساخنة .

* * *

لم يختلف شرلوك هولمز كثيرا عن باقى أبطال القصص البوليسية .. فقد كان طوله حوالى ست أقدام ، وكان أعزب ، عازفا عن الحياة الاجتماعية ، كما كان لا يلعب الشطرنج الا لماما .. بيد انه لم يكن مقيتا فى لباسه او فظا وقحا فى الفاظه وكلامه . كما أنه لم يكن يعرف شيئا عن الادب والفلسفة وعلم الفلك كنظيره كولومبو مثلا .. كما أنه كان يجهل كل شىء عن السياسة غير انه كان يعرف القليل عن علم الحيوان والشىء الكثير عن الجيولوجيا والكيمياء وعلم التشريح . وكان علاوة على ذلك ملاكما « ممتازا » يستطيع أن يدافع عن نفسه وعنده المام عميق بالقانون الانجليزى كما انه لم يكن على غرار المخبرين الاخرين المعروفين فى وقته والوارد ذكرهم فى القصص البوليسية الموجودة فى ذلك الوقت .

* * *

باختصار كان هولمز هو الخير أما ماعداه فهو الشر . كان يجسم نقاء القانون الناصع الجلاء . بيد أنك لو قرأت قصصه بعناية لادركت من فورك أن سبب نجاحه يشوبه الكثير من التعقيد . فان فكرة هولمز للعدالة بعيدة كل البعد عن الفكرة الموجودة داخل دور العدالة اذ أنها تكاد تكون فكرة شخصية بحتة . كان من رأى هولمز أن القاء القبض على انسان ما قد يضر شخصا لا يستحق هذا الاجراء القاسى . ومع ذلك فكلما استطاع هولمز فانه كان يمسك بالقانون بين يديه ويطبق العدالة تماما كما يفعل كل من حوله .

* * *

والآن نعود الى سير آرثر كونان دويل ، ذلك المؤلف الانجليزى الذائع الصيت الذى طار صيته كأشهر كتاب القصة البوليسية .. ذلك لانه هو الذى ابتدع شخصية شرلوك هولمز ، وشخصية الدكتور واطسن .. ولعل رواياته عن شرلوك هولمز هى أشهر ماكتب وكان من ابرزها « علامة الاربعة » التى كتبها عام ١٨٩٠ ، و « مذكرات شرلوك هولمز » التى الفها عام ١٧٩٤ ثم « عودة شرلوك هولمز » التى ظهرت عام ١٩٠٥ و « عقدته الاخيرة » لعام ١٩١٧ ، و « قضية شرلوك هولمز » المؤلفة عام ١٩٢٧ .

وقد قام وليم حيلينت بتمثيل دور شرلوك هولمز على المسرح لفترة طويلة ، وقام دويل بكتابة الكثير من الروايات التاريخية ، منها « الشركة البيضاء » التى الفها عام ١٨٩١ ، كما كتب مسرحية بعنوان « قصة واترلو » فى عام ١٩٠٠ . وفى السنوات الاخيرة أصبح من القائلين بمخاطبة الارواح . وفى عام ١٩٢٦ الف كتابا بعنوان «تاريخ مذهب تحضير الارواح » ، وترجم لحياته فى كتاب بعنوان « مذكرات ومغامرات » الذى ظهر فى عام ١٩٢٤ .

امين سلامة

الجـــواد سيلفـــربلـــيز

ذات صباح ، وأنا جالس مع صديقي شرلوك هولمز نتناول طعام الافطار ، قال : « اخشى ، ياواطسون أنني يجب أن أسافر »

« تسافر ؟ الى أين ؟ »

« الى دارتمور — الى كنجزبايلاند » .

لم يدهشني ذلك ، وانما الشيء الوحيد الذي أدهشني هو عدم اشتراكه في هذه القضية البالغة الغرابة ، التي كانت موضوع الحديث الوحيد في طول انجلترا وعرضها .. اخذ زميلي هولمز يجول حول الحجرة ، وظل مدة يوم كامل جالسا وذقنه على صدره وحاجباه ملتصقان . يملأ غليونه بأقوى انواع التبغ الاسود ثم يفرغه ليملأه مرة اخرى ، وقد اصم اذنيه عن أي سؤال أو ملاحظة مني .

ارسل اليه وكيلنا الصحفي كل النسخ الجـــديدة لجميع الصحف . فكان يلقي عليها لمحة بسيطة ، ثم يلقي بها في أحد الاركان .. ظل صامتا كما كان ، وكنت أعلم جيدا عن اي شيء يفكر . لم تكن هناك سوى مشكلة واحدة أمام الجمهور تستطيع أن تتحدى قوته على التحليل ، الا وهي اختفاء الحصان المحبوب سيلفر بليز ، المرشح لكأس وسيكس ، ومقتل مدربه . وحينما أعلن فجأة عن عزمه على السفر الى مسرح الجريمة ، كان هذا هو ماكنت أتوقعه وآمل فيــه .

قلت : « سأكون سعيدا جدا بالسفر معك ، ان لم يقف سفري في الطريق . »

« ياعزيزي واطسون ، انك تسدي الى معروفا كبيرا بمجيئك . واعتقد ان وقتك لن يضيع سدى ، وان هناك نقاطا في هذه القضية تجعلها فريدة تماما . واظن لدينا وقتا كافيا لنلحق القطار في بادنجتون وسنذهب في رحلتنا الى أبعد من ذلك ، في هـــذا الموضوع وأكون شاكرا لو احضرت معك منظارك المقرب الرائع .

بعد ذلك بساعة أو نحوها ، وجدت نفسي في ركن احدى عربات الدرجة الاولى بقطار السكة الحديدية ، في طريقي الى اكســيتر ، بينما جلس شرلوك هولمز قبالتي ، بوجهه الحاد المتلهف ، وعلى رأسه

قبعة السفر المتدلية على اذنيه ، يتصفح بسرعة حزمة من الصحف حصل عليها من بادنجتون . وكنا قد تركنا ريدنج بمسافة طويلة عندما انتهى من آخر صحيفة منها ووضعها تحت المقعد وقدم الى علبـــة السـيجار .

قال هولمز وهو ينظر خارج النافذة والى ساعته : « أرانا نسير بسرعة ٥٣ر٥ ميل فى الساعة » .

قلت : « لم الاحظ أعمدة أرباع الميل . »

« ولا أنا . ولكن أعمدة التلغراف على هذا الخط يبعد كل منها عن الاخر ستين ياردة . ومن السهل جدا حساب السرعة . أعتقد أنك فكرت فى موضوع مقتل جون ستريكر واختفاء الجواد سيلفر بليز ؟ »

« قرأت عنه فيما كتبته صحيفتا التلجراف ، والكرونيل » .

« انها قضية يستخدم فيها فن المحقق فى تحليل التفاصيل أكثر من الحصول على مزيد من الادلة . هذه المأساة غير عادية ، وجريمة كاملة ، وذات أهمية شخصية لكثير من الناس لدرجة أننا سنعانى من كثرة الحدس والافتراض . والصعوبة هنا تكمن فى فصل هيكل الحقائق ــ فصل الحقائق البحتة التى لا تنكر ــ عن زخرف أصحاب النظريات والمخبرين فاذا ماوطدنا أنفسنا على هذا الاساس المتين ، فان من واجبنا أن ننظر الى الموضوع من ناحية أى النتـائج يمكن استنتاجها ، واى النقط الخاصة يدور حولها هذا اللغز .. تسلمت برقيتين فى مساء يوم الثلاثاء من الكولونيل روس صاحب الحصان ، ومن المفتش جريجورى الذى يحقق فى هذه القضية ، يطلبـــان معاونتى . »

فقلت مدهوشا : « مساء الثلاثاء ! ونحن الان صـــباح يوم الخميس ، لماذا لم تسافر أمس ؟ »

« لاننى أخطأت ، ياعزيزى واطسون ، الامر الشائع الحدوث أكثر مما يمكن اى فرد أن يتصور .. الواقع أننى لن أصدق أن هذا ممكن ، أن أشهر حصان فى انجلترا يظل مخبئا كل هذه المدة ، ولا سيما فى منطقة سكانها قليلون ، متناثرون هنا وهناك ، مثل دارتمور . وكنت أتوقع بالامس ، من ساعة الى ساعة ، أن اســمع نبأ العثور عليه ، وأن خاطفه هو قاتل جون ستريكر . فلما جاء صباح آخر ، ولم يستجد شىء أكثر من القبض على الشاب فيتزروى سيمبسون ،

شعرت بانه آن الاوان للعمل . ومع ذلك ، فلا اعتقد ان الامر ضاع سدى . »

« اذن ، فهل وجدت نظرية ؟ »

« على الاقل ، أمسكت بالحقائق الاساسية فى هذه القضية ، وساعددها لك . فما من شيء يوضح القضية اكثر من ذكر وقائعها لشخص آخر . وقلما أتوقع امكان معاونتك لى ان لم أبين لك من أين نبدأ . »

« اسندت ظهرى الى الوسائد التى خلفى ، واخذت أدخن السيجار ، بينما انحنى هولمز الى الامام واخذ يعدد الحقائق بسبابته الرفيعة فوق راحة يده اليسرى . وبدا أعطانى فكرة اجمالية عن الاحداث سبب سفرنا .

قال : « سيلفر بليز حصان من أصل ممتاز وسجله رائع مثل سجل سلفه . وهو الان فى الخامسة من عمره ، وفاز بجميع جوائز السباق للكولونيل روس صاحبه المحظوظ . وحتى وقت هذه الفاجعة ، كان هو المحبوب الاول لكأس وسيكس . والمراهنة عليه ثلاثة الى واحد . وعلاوة على ذلك كان المحبوب الاول لجمهور السباق، ولم يخيب أملهم قط . وقد راهنوا عليه بمبالغ ضخمة ، حتى ولو كان معه خيول تكاد تكون من رتبته . لذا كان من الجلى أن هناك أشخاصا ، من صالحهم منع سيلفر بليز من أن يكون فى حلبة السباق وقت هبوط العلم يوم الثلاثاء القادم .

« وبالطبع قدرت هذه الحقيقة فى كنجز بايلاند حيث يوجد اسطبل التدريب الخاص بالكولونيل روس .. وقد اتخذت جميع الاحتياطات لحراسة ذلك الجواد المحبوب ومدربه جون ستريكر ، الجوكى المتقاعد . كان يركب الخيول تحت راية الكولونيل روس قبل أن يصير ثقيل الوزن على كرسى الميزان .. خدم الكولونيل لمدة خمس سنوات كجوكى ، وسبع سنوات كمدرب . وكان دائم التفانى فى عمله ، وخادما أمينا . وكان تحت امرته ثلاثة سياس اذ كان العمل صغيرا يتناول اربعة خيول فحسب . وكان أحد هؤلاء السياس الثلاثة يبيت فى الاسطبل ليلة بينما ينام الاخران فى الحجرة العليا ويتناوبون العمل فيما بينهم . وكانوا جميعا مستقيمى السلوك ذوى أخلاق سامية . أما جون ستريكر المتزوج فكان يعيش فى فيللا تبعد عن الاسطبلات بمسافة مائتى ياردة . ولم ينجب أطفالا وانما لديه خادمة واحدة ، ويعيش سعيدا . والمنطقة حول هذه المبانى

منعزلة . وعلى مسافة نصف ميل الى الشمال مجموعة صغيرة من الفيللات بناها أحد المقاولين فى تافيستوك لاستعمال المرضى ومن اليهم ممن يرغبون فى هواء دارتمور النقى . وتقع تافيستوك نفسها على مسافة ميلين الى الغرب بينما يوجد فى تلك المنطقة نفسها على مسافة حوالى ميلين ، مقر التدريب الاكبر الخاص بكابلتون ويملكه لورد باكووتر [illegible] ه سيلاس براون . اما فى اى اتجاه آخر فترى انه لديها وسائل حديثة نضبط بها حركاتك وسنتاتك حتى لاتهمس المنطقة برية مقفرة لا يقطنها سوى قلة من الفجر . هكذا كان الموقف العام فى ليلة الاثنين الماضى اذ حدثت المصيبة .

« فى ذلك المساء ، دربت الخيول وشربت كالمعتاد ، واقفلت الاسطبلات فى الساعة التاسعة مساء . فذهب سايسان الى بيت المدرب حيث تناولا العشاء فى المطبخ ، بينما بقى الثالث فى الاسطبل لحراسته . وبعد التاسعة ببضع دقائق ذهبت الخادمة اديث باكستر الى الاسطبل تحمل عشاء السايس الثالث يند هنتر ويتألف من طبق من لحم الضأن المتبل . ولم تحمل اليه اى سوائل . اذ كان فى الاسطبل حنفية للماء النقى . وكانت القاعدة المتبعة هناك ، أن السايس الذى عليه الدور فى الحراسة لا يشرب اى سوائل غير الماء . حملت الخادمة معها فانوسا اذ كان الطريق مظلما جدا ، والمر الذى تسير فيه يخترق الارض المعشوشبة .

« ولما كانت اديث باكستر على مسافة ثلاثين ياردة من الاسطبلات ، خرج لها رجل من وسط الظلام ، وناداها لتقف ، فوقفت وقد تسرب الخوف الى قلبها . ولما صار الرجل فى دائرة ضوء الفانوس الاصفر ، أمكنها أن ترى أنه رجل وسيم التقاطيع يرتدى حلة رمادية من التويد ويلبس قبعة من القماش و « جيتر » فوق حذائه وحول عنقه رباط رقبة احمر اللون ذو خطوط سوداء . ومع ذلك فقد تأثرت بلونه الشاحب ، وحالته العصبية ، وتعتقد انه يبلغ من العمر أكثر من ثلاثين عاما ، وليس اقل من ذلك .

فابتدرها ذلك الرجل بسؤال يقول : « أيمكنك أن تخبرينى أين انا ؟ كنت أعتزم أن أنام فوق الارض المعشوشبة قبل أن أرى ضوء فانوسك . »

قالت : « أنت قريب من اسطبلات تدريب كنجز بايلاند . »

فصاح الرجل يقول : « آه ! أهذا حقيقى ؟ ياله من حظ حسن .. أعلم أن سايسا من عمال الاسطبل يبيت هناك وحده فى كل ليلة .

ربما كان هذا عشاءه ، الذى تحملينه اليه ، والان ، أنا على يقين من أنك لن تمتنعى عن كسب ثمن فستان جديد ، فهل تمتنعين ؟ » قال هذا وأخرج قطعة ورق بيضاء مطوية ، من جيب صديريته ، وقال : « اعطى هذه الورقة للسايس الموجود فى الاسطبل هذه الليلة ، تنالى أجمل فستان يمكن للنقود أن تشتريه . »

« خافت الخادمة بسبب حدة أخلاقه ، وجرت أمامه الى النافذة التى اعتادت أن تعطى السايس الطعام خلالها ، وكانت مفتوحة وقتذاك. رات هنتر جالسا الى المائدة الصغيرة بداخل الاسطبل فاخبرته بما حدث . وبينما هي تتكلم ، اذا بالرجل الغريب يأتى مرة أخرى .

« أطل الرجل من النافذة وقال : « مساء الخير ، أردت أن أتحدث اليك بكلمة . » وأقسمت الفتاة على أنه عندما تكلم ، لاحظت هى ؛ طرف الكيس الورقى الصغير بارزا من يده المقفلة .

فسأله السايس بقوله : « أى شأن لك هنا ؟ » .

فقال الرجل : « انه شأن يجعلك تضع شيئا فى جيبك . لديك حصانان لكأس وسيكس ، هما سيلفر بليز ، وبايارد . أعطنى الخبر الصحيح ، ولن تكون خاسرا . أحقيقى أن الاوزان التى يستطيع بايارد أن يعطيها الحصان الاخر ، هى مائة ياردة فى كل ٥ فرلونج « الفرلونج = ٢٢٠ ياردة » وأن الاسطبل وضع نقوده عليه ؟

فصاح السايس يقول : « اذن ، فأنت أحد سماسرة السباق الانذال اللاعبين . سأريك كيف نخدمهم فى كنجزبايلاند .

قفز الغلام من مقعده واندفع وسط الاسطبل ليحل رباط الكلب . فهربت الفتاة الى البيت . ولكنها وهى تجرى ، نظرت خلفها فرأت الغريب منحنيا خلال النافذة . وبعد ذلك بدقيقة عندما اندفع هنتر خارجا مع الكلب ، كان الرجل الغريب قد اختفى . ورغم أن السايس جرى يتطلع حول المبنى كله ، لكنه لم يعثر له على أثر . »

قلت : « لحظة من فضلك . هل ترك السايس باب الاسطبل خلفه مفتوحا عندما خرج يجرى مع الكلب ؟ »

فتمتم رفيقى يقول : « رائع ، ياواطسون ، رائع ! شغلتنى أهمية هذه النقطة كثيرا حتى اننى أرسلت برقية خاصة الى دارتمور بالامس لجلاء الامر . أغلق السايس الباب خلفه قبل أن يغادر الاسطبل . والنافذة ليست واسعة فتسمح لرجل بالدخول منها .

« انتظر هنتر حتى رجع زميلاه فأرسل كلمة الى المدرب يخبره بما حدث . فثار ستريكر عند سماعه هذه الاخبار ، ولو أنه لم يدرك

اهميتها الحقيقية . ولكنه قلق قلقا غامضا . واستيقظت مسز ستريكر فى الساعة الواحدة صباحا لتجد زوجها يرتدى ملابس الخروج . وردا على أسئلتها ، أخبرها بأنه لم يستطع النوم لقلقه على الخيول ، وأنه ينوى الذهاب الى الاسطبلات ليطمئن على أن كل شيء على مايرام . فتوسلت اليه أن يبقى فى البيت ، وانها تسمع المطر ينهمر وابلا على النوافذ . ولكنه على الرغم من كل توسلاتها ارتدى معطف المطر وغادر البيت .

استيقظت مسز ستريكر فى الساعة السابعة صباحا لتجد أن زوجها لم يرجع بعد . فارتدت ملابسها بسرعة وخرجت متجهة الى الاسطبلات ، فرأت الباب مفتوحا وهنتر بالداخل فى غيبوبة تامة ، وموضع الجواد المحبوب خاويا ولا أثر لمدربه .

أوقظ السايسان اللذان ينامان فى مخزن التبن فوق حجرة السروج ، بسرعة . لم يسمعا شيئا أثناء الليل اذ كانا ينامان نوما عميقا . ومن الجلى أن هنتر كان تحت تأثير عقار مخدر قوى . واذ لم يمكن الحصول على أى كلام منه ، خرجت المرأتان والسايسان ليبحثوا عن الغائبين . وكان الامل لايزال يحدوهم فى ان المدرب أخذ الحصان للتدريب فى الصباح الباكر . ولكن عندما هبطوا التل قريبا من البيت حيث تمكن رؤية السهل المعشوشب كله ، لم يستطيعوا فقط أن يروا أى أثر للحصان المحبوب ، ولكنهم ابصروا شيئا حذرهم من وجود مأساة .

« على مسافة حوالى ربع ميل من الاسطبلات ، كان معطف جون ستريكر يرفرف على شجيرة كثيرة الاشواك ، ووراءها مباشرة تجويف غائر فى الارض بهيئة « سلطانية » ، ولما ذهبوا الى ذلك التجويف ، رأوا فى قاعه جثة المدرب السيىء الحظ مهشم الرأس بضربات وحشية من سلاح ثقيل ، وبفخذه جرح طويل غائر ، من الجلى انه حدث بسلاح حاد جدا . كما كان واضحا أيضا أن ستريكر دافع عن نفسه بعنف ضد مهاجميه ، اذ كان يمسك فى يده اليمنى سكينا صغيرة ، بينما يمسك فى يسراه رباط رقبة حريريا لونه أحمر وأسود ، تعرفت عليه الخادمة على أنه رباط الرقبة الذى كان يلبسه الرجل الغريب الذى جاء الى الاسطبلات فى الليلة الماضية .

« عندما افاق هنتر من غيبوبته ، كان متأكدا أيضا من ملكية رباط الرقبة ، كما كان على يقين من أن ذلك الغريب وضع له المخدر

فى اللحم المتبل أثناء وقوفه عند النافذة ، وبذا جرد الاسطبلات من حارسها .

« أما عن الحصان الغائب ، فهناك أدلة كثيرة فى الطين الموجود عند قاع التجويف ، موضع القتل ، على أن الحصان كان هناك وقت النضال . ولكنه اختفى منذ ذلك الصباح . ورغم عرض مكافأة ضخمة ، ويقظة جميع الغجر المقيمين فى دارتمور ، فلم تأت أى انباء عنه . وأخيرا ، أبان التحليل أن بقايا العشاء الذى تركه السايس المكلف بالحراسة فى تلك الليلة ، تحتوى على كمية كبيرة من الافيون المسحوق ، بينما تناول من كانوا فى المنزل من نفس ذلك الطبق وفى نفس تلك الليلة ، دون ان يصيبهم أى أثر سيىء .

« هذه هى الحقائق الرئيسية لهذه القضية عارية من أى تنميق أو تزويق ومروية بأسلوب بسيط قدر الامكان .. وسأراجع الان ما فعله البوليس فى هذا الموضوع .

« المفتش جريجورى ، الذى عهد اليه التحقيق فى هذه القضية ، ضابط قدير عظيم الكفاءة ، ولو وهب قوة الخيال لارتفع الى درجات سامية جدا فى مهنته . فعند وصوله ، وجد بسرعة ذلك الرجل الذى تحوم حوله الشبهة طبيعيا ، وقبض عليه . لم يجد صعوبة فى العثور عليه ، لانه كان معروفا جيدا فى تلك المنطقة ، واسمه فيتزروى سيمبسون كان رجلا شريف المولد ممتاز التعليم ، بذر ثروة كبيرة فى سباق الخيل ، ويكسب عيشه الان من المراهنات الهادئة على سباق الخيول فى نوادى السباق بلندن . وبفحص مراهناته تبين انه سجل مراهنات على سيلفر بليز تبلغ خمسة آلاف جنيه .

حينما قبض على سيمبسون ، تطوع بالاعتراف بأنه جاء الى دارتمور أملا فى الحصول على بعض المعلومات عن خيول كنجز بايلاند ، وكذلك عن ديزبره ، المحبوب الثانى الذى فى عهدة المدرب سيلاس براون فى اسطبلات كابلتون . لم يحاول انكار المسلك الذى نسب اليه فى تلك الليلة ، ولكنه أنكر وجود أية خطط اجرامية لديه ، بل كان كل غرضه هو الحصول على معلومات أكيدة عن هذه الخيول . وعند مواجهته برباط الرقبة ، امتقع لونه ولم يستطع تفسيرا لوجوده فى يد القتيل . واتضح من ابتلال ملابسه ، أنه كان بالخارج وقت العاصفة فى الليلة الماضية . أما عصاه فهى من نوع بينانج ، المحشوة بالرصاص ، وبذا أحدثت الضربات المتكررة بها ، تلك الاصابات الفظيعة التى أودت بحياة المدرب .

« ومن ناحية أخرى ، فلم يكن بجسمه اى جرح ، مع أن سكين ستريكر تدل على أن واحدا على الاقل من مهاجميه لابد أن يحمل علامة تلك السكين .. وهاأنتذا عرفت كل شيء باختصار ، ياواطسون فلو ألقيت ضوءا على هذه القضية ، أكون لك شاكرا جدا . »

أصغيت بانتباه الى الحقائق التى وضعها امامى هولمز بتوضيحه المعهود ، رغم أننى كنت على علم بمعظم هذه الوقائع ، ولكننى لم أقدر أهمية كل منها بالنسبة الى الاخر ، أو علاقته به .

قلت : « أليس من الممكن أن يكون الجرح الذى فى فخذ ستريكر قد أحدثته السكين التى فى يده أثناء النضال العنيف التشنجى الذى يعقب آية اصابة فى المخ ؟ »

فقال هولمز : « هذا أكثر من ممكن . وفى هذه الحال ، تختفى احدى النقط الرئيسية التى فى صالح المتهم . »

فقال زميلى : « أخشى أن تلقى أية نظرية تذكرها ، اعتراضات كثيرة . فان البوليس يتصور انه بعد أن خدر فيتزروى سيمبسون السايس ، وبعد أن حصل بطريقة ما على نسخة من المفتاح فتح باب الاسطبل ، وأخرج الحصان بقصد خطفه كلية . وعلاوة على هذا ، فان لجامه غير موجود مما يدل على أن سيمبسون لابد أن وضع له اللجام . وبعد أن ترك الباب مفتوحا خلفه ، انطلق بالحصان فوق السهل المعشوشب ، حيث التقى بالمدرب ، أو المدرب لحق به . وبطبيعة الحال حدث التحام ، فانهال سيمبسون بعصاه الثقيلة على رأس المدرب دون أن يصاب بأقل أذى من السكين الصغيرة التى استخدمها ستريكر فى الدفاع عن نفسه . بعد ذلك ، اما أن يكون اللص قد انطلق بالحصان الى مخبأ ، أو أن الحصان هرب أثناء التلاحم ، وهو الان يجول فوق السهول المعشوشبة . هذه هى القضية كما يراها البوليس . ورغم كونها غير محتملة ، فان التفسيرات الاخرى غير محتملة أيضا . ومع ذلك فاننى سأدرس الموضوع بمجرد وصولى الى مسرح الجريمة . وحتى عند ذلك فلا استطيع أن أرى كيف سيمكننا أن نتقدم أكثر من مركزنا الحالى . »

حل المساء قبل وصولنا الى بلدة تافيستوك الصغيرة التى تقع مثل سرة الدرع فى وسط دائرة دارتمور الكبرى . وكان بانتظارنا عند المحطة رجلان ، أحدهما فارع الطول أبيض البشرة ، ذو شعر ولحية كشعر الاسد ، وعينين زرقاوين فاحصتين بصورة غريبة . أما الاخر فرجل صغير متيقظ ، أنيق الهندام ، يرتدى معطفا قصيرا ،

و « جيترز » ، ويمتد عارضاه الى أسفل أذنيه ، ويضع على عينه اليمنى نظارة لعين واحدة (مونوكل) . هذا الاخير هو الكولونيل روس الرياضي المشهور . أما الاخر فهو المفتش جريجورى الذى شهر اسمه بسرعة فى ادارة البوليس السرى الانجليزى .

قال الكولونيل : « يسرنى مجيئك يامستر هولمز . قام المفتش هنا بعمل كل مايمكن اقتراحه ولكنى أود ألا أترك أى شىء يفوتنا لكى أنتقم لموت ستريكر المسكين ، واستعادة حصانى . »

فسأله هولمز بقوله : « هل حدث أى تقدم جديد ؟ »

فقال المفتش : « يؤسفنى أن أقول اننا لم نحرز الا تقدما بسيطا جدا . لدينا عربة مفتوحة خارج المحطة . وبما أنك تود رؤية المكان قبل ان يخيم الليل ، فميكننا أن نتكلم ونحن فى طريقنا بالعربة الى هنـــاك .

بعد ذلك بدقيقة ، كنا جميعا جالسين فى عربة « لاندو » خلال بلدة ديفونشير الفريبة . كان المفتش جريجورى ملما بقضيته كل الالمام ، فألقى سيلا من الملاحظات ، بينما يصغى هولمز ، ويلقى بين آن وآخر سؤالا أو تفسيرا . وأسند الكولونيل روس ظهره فى العربة ووضع ذراعيه واحدة فوق أخرى ، وامال قبعته فوق عينيه ، بينما كنت أنا أصغى باهتمام للحوار الدائر بين قطبى البوليس السرى . صـــاغ جريجورى نظريته التى تكاد تشبه تماما ماذكره لى هولمز فى القطار .

أبدى هولمز ملاحظته قائلا : « الشبكة تلتف تماما حول فيتزروى سيمبسون ، وأنا شخصيا أعتقد أنه رجلنا . غير اننى ، فى الوقت نفسه، أرى أن الادلة ضده كلها استنتاجية بحتة ، وقد يمحوها تقـــدم جـــديد . »

« وماذا عن سكين ستريكر ؟ »

« لقد استنتجنا أنه جرح نفسه اثناء سقوطه أبدى صديقى الدكتور واطسون هذا الاقتراح ونحن قادمان . فان كان الامر هكذا ، صار دليلا ضد ذلك الرجل سيمبسون . »

« بلا شك ، فليس لديه سكين ، وليس به أى أثر لجرح . لذا كان هذا الدليل ضده قويا جدا بكل تأكيد . فله صالح عظيم فى اختفاء ذلك الحصان ، ويشتبه فى أنه خدر السايس الحـــارس للاسطبل ، كما أنه خرج أثناء العاصفة ، وكان مسلحا بعصا ثقيلة ، ووجد رباط رقبته فى يد القتيل . وأعتقد حقا أن لدينا مايكفى لنذهب أمام جماعة من المحلفين . »

هز هولمز راسه وقال : « ان دفاعا بارعا قد يحطم كل ذلك . ماذا يدعوه الى أخذ الحصان من الاسطبل ؟ فاذا كان يريد ايذاءه ، فلماذا لم يؤذه داخل الاسطبل ؟ هل وجدت معه نسخة من المفتاح ؟ وأي صيدلي باعه مسحوق الافيون ؟ وفوق كل هذا ، أين يمكنه اخفاء مثل هذا الحصان الشهير ، وهو غريب عن المنطقة ؟ وما هو تفسيره عن الورقة التي أراد أن يعطيها للخادمة كي توصلها الى السايس ؟ »

« قال انها ورقة بعشرة جنيهات . وجدت ورقة بعشرة جنيهات في وفاضه . أما مشاكلك الاخرى فليست فظيعة كما تبدو . وسيمبسون هذا ليس غريبا عن المنطقة اذ أقام مرتين في تافيستوك أثناء الصيف . ومن المحتمل أن يكون اشترى الافيون من لندن . وأما المفتاح ، فبعد أن أدى الغرض منه ، ألقاه في مكان ما . وقد يكون الحصان في قاع احدى الحفر أو التجاويف ، أو في احد المناجم بتلك المنطقة . »

« وماذا قال عن رباط الرقبة ؟ »

« اعترف بملكيته له ، وقال انه ضاع منه . الا أن عنصرا جديدا استجد في القضية يفسر أخذه الحصان من الاسطبل . »

أرهف هولمز أذنيه .

« وجدنا آثارا تدل على أن جماعة من الغجر أقاموا خيامهم في ليلة الاثنين على مسافة ميل من المكان الذى قتل فيه المدرب . وفي يوم الثلاثاء انصرفوا . فلو فرضنا حدوث تفاهم بين سيمبسون وهؤلاء الغجر وبذا أودع الحصان عندهم حينما شعر بأنه يطارد ، فهل يكون الحصان لديهم الان ؟ »

« بالتأكيد ، هذا ممكن . »

« فتشنا المنطقة عن هؤلاء الغجر ، كما فحصنا كل اسطبل وكل كوخ في تافيستوك وفي دائرة قطرها عشرة أميال . »

« أعلم أن هناك اسطبل تدريب قريبا جدا »

« نعم ، وهذا عامل يجب الا نهمله ، مافى ذلك شك . فلما كان حصانهم ديزبره هو الثاني في المراهنة ، فلهم صالح في اختفاء سيلفر بليز . والمعروف أن سيلاس براون مدربه قد راهن بمبالغ كبيرة على هذا الحادث ، ولم يكن صديقا لستريكر المسكين . وقد فحصنا اسطبلاته فلم نجد بها شيئا يمكن أن يجعل له علاقة بهذا الموضوع . »

« الا يوجد شيء يجعل لسيمبسون هذا علاقة بمصالح اسطبلات كابلتون ؟ »

« لا شيء اطلاقا . »

انحنى هولمز الى الخلف فى العربة ، وتوقف الحديث . وبعد بضع دقائق ، وقفت العربة أمام فيللا صغيرة أنيقة من الطوب الاحمر ذات سقف ممتد الى الخارج ، قائمة على الطريق . وعلى مسافة ما ، خلال متنزه صغير ، يوجد مبنى صغير ذو سقف من القرميد الرمادى ، خارج بيت . هذا فتشناه أيضا . وتمتد المنحنيات المنخفضة فى كل جهة من السهل المعشوشب ، وقد تحول لونها الى البرنزى بسبب اعشاب السرخس الذابلة ، وتمتد الى خط الافق ، لا يرتفع وسطها سوى منائر كنائس بلدة تافيستوك وبعض مجموعات من البيوت الممتدة غربا التى بها اسطبلات كابلتون . نزلنا جميعا من العربة ، ما عدا هولمز الذى استند بظهره الى الخلف وثبت عينيه نحو السماء أمامه ، منهمكا فى أفكاره الخاصة ، ولم ينتبه الا عندما لمست ذراعه ، فنهض مذعورا وخرج من العربة .

قال هولمز وهو يستدير نحو الكولونيل روس الذى نظر اليه فى شيء من الدهشة : « عفوا ، فقد كنت غارقا فى التفكير . » كان فى عينيه بريق وانفعال مكبوت ، أقنعانى ، أنا الذى ألفت طرقه ، بأن يده وقعت على مفتاح لحل هذه القضية ، ولو اننى لا أستطيع أن أتصور أين وجده .

فقال جريجورى : « ربما فضلت أن تذهب الى مسرح الجريمة مباشرة ، يامستر هولمز ؟ »

« أظننى أفضل البقاء هنا قليلا ، وأسأل سؤالا أو اثنين عن بعض التفاصيل . أعتقد أن ستريكر أحضر ثانية الى هنا ، أهذا صحيح ؟»

« نعم ، وهو بالدور العلوى . والتحقيق غدا . »

« كان فى خدمتك بعض السنين ، ياكولونيل روس ؟ »

« كنت أراه دائما خادما ممتازا . »

« أعتقد أنك جردت ما كان فى جيوبه وقت موته ، أيها المفتش ؟ »

« لدى الاشياء نفسها فى حجرة الجلوس اذا راقك أن تراها . »

« يسرنى ذلك . »

دخلنا جميعا الحجرة الامامية ، وجلسنا حول المائدة الوسطى ، ففتح المفتش قفل علبة من الصفيح ووضع أمامنا كومة صغيرة من

الاشياء .. كان هناك علبة ثقاب من الشمع ، وشمعة طولها خمس بوصات وغليون ، وكيس من جلد عجل البحر به نصف أوقية من تبغ كافنديش ، وساعة فضية وسلسلة ذهبية ، وخمسة جنيهات ذهبا ، وعلبة قلم من الالومنيوم ، وقليل من الاوراق ، وسكين ذات مقبض من العاج ولها نصل رفيع جدا غير قابل للالتواء مكتوب عليه وايس وشركاؤه بلندن .

قال هولمز : « هذه سكين طريفة جدا » ورفعهـا الى أعلى وفحصها بعناية ثم استطرد يقول : « أعتقد أننى ما دمت أرى عليها بقع دم ، فهى السكين التى وجدت فى قبضة القتيل . من المؤكد ، يا واطسون ، أن هذه السكين من اختصاصك » .

قلت : « انها ما نسميه مشرط الكاتاراكتا » .

« أعتقد هذا . انه نصل دقيق جدا ، مصمم للعمليات البالغة الدقة . ومن الغريب جدا أن يحملها رجل فى رحلة كهذه ، لانها لا يمكن أن تقفل فى جيبه » .

قال المفتش : « وجدنا قرصا من الفلين لحماية سنها ، بجانب جثته . ثم ان زوجته أخبرتنا بأن هذه السكين كانت موضوعة على التسريحة منذ عدة أيام ، وانه أخذها حينما غادر الحجرة . انها سلاح ضعيف للدفاع عن النفس ، ولكن ربما كانت خير ما فى متناول يده وقتذاك » .

« ممكن جدا . وماذا عن الاوراق ؟ » .

« ثلاث منها للمبالغ التى تسلمها تاجر الدريس ، وواحـدة خطاب يحمل تعليمات من الكولونيل روس ، والورقة الاخيرة فاتورة من محل أزياء للسيدات بسبعة وثلاثين جنيها وخمسة عشر شلنا ، صادرة من مدام لزوريه فى بوندستريت الى وليم دار بيشـير ، وبسؤال مسز ستريكر ، قالت ان دار بيشير هذا صديق زوجها ، « وأحيانا كانت خطاباته تأتى على عنواننا » .

نظر هولمز الى مفردات الحساب وأبدى ملاحظته قائلا : « ان مدام دار بيشير هذه لها مزاج فى الملابس الباهظة الثمن . ان اثنين وعشرين جنيها مبلغ كبير جدا لفستان واحد . ومع ذلك ، يبدو أنه لا شىء أكثر من ذلك يمكننا أن نعلمه . والآن بوسعنا ان نهبط ونذهب الى مسرح الجريمة » .

حينما خرجنا من حجرة الجلوس ، كانت هناك امرأة تنتظر

فى الممر ، فتقدمت ووضعت يدها على كم المفتش . كان وجهها هزيلا شاحب اللون ، تبدو عليها اللهفة وآثار فزع حديث .

قالت وهى تلهث : « هل وجدتهم ؟ هل وجدتهم ؟ » .

« كلا ، يا مسز ستريكر . ولكن المستر هولمز هنا ، جاء من لندن ليساعدنا ، وسنعمل كل ما هو ممكن » .

فقال هولمز : « من المؤكد أننى رأيتك فى بلايموث فى حفل بالحديقة ، من وقت قريب يا مسز ستريكر » .

« كلا ، يا سيدى أنت مخطىء » .

« يمكننى أن أقسم على هـذا ، يا عزيزتى . وكنت مرتدية فستانا من الحرير فى لون اليمام وبه حليات من ريش النعام » .

فقالت السيدة : « لم يكن عندى مثل هذا الفستان ، اطلاقا ، يا سيدى » .

فقال هولمز : « هذا يسوى الموضوع تماما ، وأعتذر ، ثم تبع المفتش الى الخارج . فسرنا لمدة قصيرة عبر السهل المعشوشب الى التجويف الذى وجدت به الجثة ، وعلى حافتها الشجيرة الشوكية التى علق عليها المعطف .

فقال هولمز : « أعلم انه لم تكن هناك ريح فى تلك الليلة » .

« لم يكن هناك ريح ، وانما كان هناك مطر غزير » .

« اذن فالريح لم تطر المعطف الى الشجيرة بل وضع عليها » .

« نعم ، وضع على الشجيرة » .

« انك تملؤنى اعجابا ، أرى أن الارض وطئت كثيرا . لا شك فى أن أقداما عديدة كانت هنا منذ ليلة الاثنين » .

« وضعت قطعة من البساط فى أحد الجوانب ووقفنا جميعا فوقها » .

« رائع » .

« احتفظ فى هذه الحقيبة باحدى فردتى الحذاء الذى كان يلبسه ستريكر ، واحدى فردتى حذاء فريتز سيمبسون ، وقالب لحدوة حافر سيلفر بليز » .

« انك لتدهشنى أيها المفتش » . قال هولمز هذا ، واخـذ الحقيبة ونزل الى التجويف . فوضع قطعة البساط الى وضع يتجه نحو الوسط أكثر من ذى قبل ، ثم استلقى على وجهه وأسند ذقنه على يديه وفحص بعناية الطين الذى أمامه والذى وطىء .

فقال هولمز فجأة : « مرحى ! ما هذا ؟ » .

انه عود ثقاب من الشمع نصف محترق ومغطى بالطين حتى بدا اولا كشظية صغيرة من الخشب .

فقال المفتش بلهجة المتضايق : « كيف حدث اننى لم الاحظ هذا ؟ » .

« لم يكن ظاهرا للعين ، وانما كان مدفونا فى الطين ، ولم أبصره الا لاننى كنت أبحث عنه » .

« ماذا ! توقعنا أن نجده ؟ » .

« اعتقدت أنه غير جائز » قال هذا واخرج الاحذية من الحقيبة ، وقارن كل حذاء منها بالآثار الموجودة على الارض ، ثم صعد الى الحافة وزحف وسط أعواد السرخس والشجيرات .

قال المفتش : « أخشى انه لا توجد آثار أخرى . لقد فحصت بعناية كبيرة لمسافة مائة ياردة من كل ناحية » .

قال هولمز وهو ينهض : « حقيقة » ! ما كان لى أن اتجرأ بمثل هذه الوقاحة على أن أفحصها ثانية بعد أن قلت انك فحصتها . ولكنى أود أن أسير قليلا على السهل المعشوشب قبل ان يأتى الظلام ، حتى يمكننى معرفة الاساس الذى أعمل بمقتضاه غدا . واظننى سأضع حدوة الحصان هذه فى جيبى لتأتينى بحسن الحظ » .

نظر الكولونيل روس الى ساعته بعد أن ابدى بعض القلق من طريقة عمل زميلى الهادئة المنظمة ، فقال :

« أود أن تعود معى ، أيها المفتش . هناك كثير من الامور أرغب فى الاسترشاد بنصحك فيها ، ولا سيما فيما اذا كنا نعلن للجمهور أننا سنشطب اسم حصاننا من مسابقة الكأس » .

فصاح هولمز باصرار : « طبعا لا ، اريد ان يبقى الاسم » .

انحنى الكولونيل ، وقال : « يسرنى ان أعمل برأيك ، يا سيدى . ستجدنا فى بيت ستريكر المسكين بعد أن تنتهى من جولتك ، وعندئذ يمكننا أن نركب العربة معا الى تافيستوك » .

استدار الكولونيل بعد ذلك ورجع مع المفتش ، بينما سرت أنا وهولمز ببطء خلال السهل المعشوشب . وقد بدأت الشمس تغيب وراء اسطبلات كابلتون ، واصطبغ السهل الطويل المنحدر الممتد امامنا باللون الذهبى الذى تحول بعده الى البنى المائل الى الحمرة ، بينما التقطت أعواد السرخس والاشواك ضوء المساء . غير ان امجاد جمال المنظر الطبيعى ضاعت كلها باستغراق زميلى فى اعمق تفكير .

وأخيرا التفت الى هولمز وقال : « طريقنا الآن ، يا واطسون ،

ان نترك قضية قاتل ستريكر ونركز بحثنا على مصير الحصان . افرض أنه انطلق هاربا أثناء المأساة أو بعدها ، فالى أين يمكن أن يذهب ؟ والحصان مخلوق اجتماعي بطبعه ، اذا ترك وشأنه فاما أن يعود الى كنجز بايلاند واما أن يذهب الى كابلتون . انه لا يعود وحشيا يعدو فوق أعشاب السهل . لابد أن يكون قد رؤى الآن . ولماذا يخطفه الغجر ؟ يرحل أولئك القوم دائما عندما يسمعون عن حادث ، لانهم يتحاشون باستمرار ازعاج البوليس لهم . ولا يمكن أن يفكروا فى بيع مثل هذا الحصان والا زجوا بأنفسهم فى مخاطرة كبرى ، ولا يربحون منها شيئا . هذا واضح أكيدا » .

« اذن ، فأين هو ؟ » .

« قلت من قبل : اما أن يكون قد ذهب الى كنجز بايلاند أو الى كابلتون . وبما أنه غير موجود فى كنجز بايلاند ، اذن فلابد أن يكون فى اسطبلات كابلتون . لنركز كل عملنا على هذا الاساس ، وننتظر الى اين يقودنا .. هذا الجزء من السهل صلب وجاف ، كما قال المفتش ، ولكنه يمتد منخفضا نحو كابلتون ، وبوسعك أن ترى من هنا ، أن هناك تجويفا طويلا لابد أنه كان مبتلا فى ليلة الاثنين . فلو كان فرضنا صحيحا لكان من المؤكد أن الحصان عبر ذلك التجويف ويمكننا أن نقتفى أثره » ،

أخذنا نسير حثيثا أثناء ذلك الحديث ، وبعد بضع دقائق وصلنا الى التجويف ، وتبعا لطلب هولمز ، سرت انا على الجانب الايمن لهذا التجويف بينما سار هو على جانبه الايسر ، وما كدت أسير خمسين خطوة حتى سمعته يرسل صيحة ، ويلوح لى بيده . من الجلى أنه رأى أثر حوافر حصان فى الارض الرخوة أمامه . وقد طابقت حدوة الحصان التى أخذها من جيبه ، الاثر الذى عثر عليه تمام المطابقة .

فقال هولمز : « أترى قيمة التصور ، انه الصفة الضرورية الوحيدة التى تنقص جريجورى . تصورنا مايمكن أن يكون قد حدث ، وتحركنا تبعا لفرضنا . وفى دقائق معدودات وجدنا أنفسنا قد كوفئنا . ولنبدأ العمل الان . »

عبرنا القاع المبتل ، وسرنا فوق السهل المعشوشب مسافة ربع ميل من الارض الجافة . واستمرت الارض فى الانحدار ثانية ، ووصلنا مرة أخرى الى الاثر . ثم ضاع الاثر منا لمسافة نصف ميل ، ليعاود الظهور ثانية قريبا من كابلتون . كان هولمز هو الذى أبصر

الاثر أولا ، فوقف يشير وقد تجلت على وجهه سيماء الانتصار .
كان هناك اثر أقدام رجل بجانب اثر حوافر الحصان .
صحت أقول : « كان الحصان وحده من قبل . »
« هو هكذا ، بالضبط . مرحى ! ماهذا ؟ »
دار الاثر دورة حادة الى ناحية كنجز بايلاند ، فصفر هولمز ، وتبعنا ، كلانا ، ذلك الاثر . كانت عيناه على الاثر ، وتصادف أننى نظرت قليلا الى احد الجانبين ، فرايت ما أدهشنى . رايت نفس الاثار تعود ثانية فتستدير فى الاتجاه المضاد .
قال هولمز حينما أشرت الى ذلك : « هذه واحدة لك ياواطسون. كفيتنا سيرا طويلا كان سيقودنا ثانية الى آثار أقدامنا نحن انفسنا. فلنتتبع ذلك الاثر . »
لم نذهب بعيدا . انتهت آثار الاقدام على الطوار الاسفلتى المؤدى الى أبواب اسطبلات كابلتون . وعندما اقتربنا منها ، خرج منها سايس يجرى ، ويقول :
« لا نريد احدا يتلكأ هنا . »
فقال هولمز ، وقد وضع سبابته وابهامه فى جيب صديريته : « اريد ان أسأل سؤالا واحدا فحسب : هل أكون مبكرا لو جئت لرؤية سيدك المستر سيلاس براون فى الساعة الخامسة صباحا ؟ »
« فليباركك الله ، ياسيدى . ان كان هناك من يستيقظ مبكرا جدا ، فسيدى هو اول من يستيقظ . ولكنه هنا الان ، ياسيدى ، ليجيب على اسئلتك بنفسه . كلا ، ياسيدى ، كلا . فلو ابصرنى احد المس نقودك لأفقدنى عملى . فيما بعد ان أحببت . »
عندما أعاد شرلوك هولمز الى جيبه نصف الكراون الذى أخرجه ، برز من الباب رجل عجوز وحشى المنظر ، تتأرجح فى يده عصا صيد .
صاح هذا الرجل يقول : « ماهذا يادوسون ؟ كف عن الثرثرة . اذهب الى عملك ! وانت ، ماذا تريد هنا ، بحق الشيطان ؟ »
فقال هولمز فى أعذب صوت : « اريد ان اتحدث اليك عشر دقائق ياسيدى العزيز . »
« لا وقت عندى للتحدث الى كل من هب ودب . لا نريد اى أغراب هنا . انصرف والا وجدت كلبا عند قدميك . »
انحنى هولمز الى الامام وهمس شيئا فى أذن المدرب . فاضطرب هذا الاخير واحمر وجهه حتى صدغيه ، وصاح يقول :
« هذه كذبة ! كذبة داخلية ! »

« حسنا ! هل نتجادل بخصوصها هنا علنا ، أو نتحدث عنها في بهوك ؟ »

« هيا ، ادخل اذا رغبت في ذلك . »

ابتسم هولمز ، وقال : « لن اتركك تنتظر هنا أكثر من بضع دقائق ، ياواطسون . والان ، أنا تحت تصرفك ، يامستر براون . »

استغرق ذلك عشرين دقيقة تماما ، وتحول اللون الاحمر كله الى لون رمادى قبل خروج هولمز والمدرب . ولم ار في حياتى كلها تغيرا مثلما حدث في سيلاس براون ، في مثل ذلك الوقت القصير . كان وجهه شاحبا جدا ، وحبات العرق تتألق على جبينه ، ويداه ترتجفان حتى ان عصا الصيد كانت تهتز في يده كما يهتز الغصن أمام الريح . كذلك اختفت النغمة المتعجرفة التى ظهرت في كلامه أولا ، وسار الى جانب زميلى كما يسير الكلب مع صاحبه .

قال براون : « ستنفذ تعليماتك ، ستنفذ . »

فقال هولمز وهو يتلفت حواليه : « يجب الا يكون هنـــاك اي خطأ . » فانزعج براون عندما قرأ دلائل التهديد في عينيه ، وقال :

« لن يكون هناك اى خطأ . سيكون هناك . هل اغيره أولا ، اولا ؟ »

فكر هولمز قليلا ، ثم انفجر ضاحكا وقال : « كلا ، لا تغيره . حذار من اى خداع والا .... »

« يمكنك ان تثق بى ، يمكنك ان تثق بى ! »

« يجب ان ترى ذلك في الصباح كما لو كان ملكك . »

« يمكنك أن تعتمد على . »

« نعم ، اظننى استطيع الاعتماد عليك . اذن ، فستسمع منى غـدا . »

قال هولمز هذا واستدار متجاهلا اليد المرتجفة التى مدها الاخر له ، وسرنا نحو كنجز بايلاند .

فقال هولمز ونحن نسير معا : « قلما التقيت في حياتي بخليط من الفتو والجبان والمنافق أكثر من المستر سيلاس براون . »

« اذن ، فالحصان عنده ؟ »

« حاول التملص من ذلك ، ولكنى شرحت له بالضبط ، تحركاته كلها في ذلك الصباح ، حتى اقتنع باننى كنت اراقبه . وبالطبع لاحظت اصابع القدم المربعة الغريبة في آثار الاقدام ، وان حذاءه ينطبق على الاثار تمام الانطباق . ثم انه ما من تابع آخر كان يجرؤ على فعل مثل

ذلك الشيء . وصفت له كيف انه تبعا لعادته ، أن يستيقظ أول من يستيقظ ، فرأى حصانا غريبا يسير فوق السهل وكيف ذهب اليه ، ومبلغ دهشته عندما تعرف عليه من جبهته البيضاء التى أعطته اسمه ، وأن الصدفة وضعته فى يده ، وهو الحصان الوحيد الذى يمكنه أن يتغلب على الحصان الذى راهن عليه بنقوده . ووصفت له كيف انه أراد أولا أن يقوده الى كنجز بايلاند ، وكيف وسوس له الشيطان وبين له كيف يخفيه حتى ينتهى السباق ، وكيف عاد به وأخفاه فى كابلتون . فلما رأى اننى أخبرته بكل شيء ، ترك فكرته الاولى وكل مافكر فيه بعد ذلك هو أن ينجو بجلده .

« ولكن اسطبلاته فتشت ؟ »

« لدى مثل مزيف الخيول العجوز هذا ، كثير من الحيل . »

« ولكن الا نخاف على الحصان وقد تركته عنده ، وأن من صالحه أن يؤذيه ؟ »

« يازميلى العزيز ، انه سيحرسه ويحافظ عليه مثل حبة عينه . يعلم أن كل أمل له فى الرحمة ، هو تسليم الحصان سليما . »

« لم أجد فى مسلك الكولونيل روس ما يدل على انه رجل من الممكن أن يبدى الرحمة بأية حال من الاحوال . »

« ليس هذا من شأن الكولونيل روس . فأنا اتبع طرقى الخاصة وأقول الكثير او القليل حسبما أرى . هذه ميزة الا يكون الانسان تحت ادارة الحكومة . ولست ادرى ، ياواطسون ما اذا كنت قد لاحظت هذا . ولكن أخلاق الكولونيل كانت كلها شهامة أمامى . وأريد الان أن أحصل على شيء من التسلية على حسابه . لا تقل له شيئا من الحصان. »

« بالطبع ، لن أقول شيئا بغير اذنك . »

« وبالطبع هذه قضية صغرى بالنسبة لقضية قتل جون ستريكر . »

وهل ستكرس نفسك لتلك ؟ »

« بالعكس ، سنعود كلانا الى لندن بقطار الليل . »

صعقتنى كلمات صديقى . فلم نمكث سوى بضع ساعات فى ديفونشاير ، ثم يترك تحقيقا بداه بذكاء ! هذا ما لم أستطع فهمه . لم أتمكن من الحصول منه على كلمة أخرى حتى رجعنا الى بيت المدرب . وكان الكولونيل والمفتش ينتظراننا فى البهو .

قال هولمز : « سأعود انا وصديقى بقطار الليل السريع . حصلنا

على قليل من انفاس هواء منطقتكم دارتمور . المعش . »
فتح المفتش عينيه . والتوت شفتا الكولونيل فى امتعاض .
فقال : « اذن ، فقد يئست من القبض على قاتل ستريكر المسكين . »
هز هولمز كتفيه ، وقال : « هناك صعوبات كبيرة فى طريق ذلك . لدى أمل كبير فى ان يجرى حصانك يوم الثلاثاء . فأرجو أن تستعد بمن يركبه . هل لى أن أطلب صورة لمستر جون ستريكر ؟ »
أخرج المفتش صورة من جيبه وقدمها اليه .
« انك تتوقع كل طلباتى ، ياعزيزى جريجورى . وهل لى أن اطلب منك أن تنتظر لحظة ريثما أسأل الخادمة سؤالا يجب أن أوجهه اليها ؟ »
فلما ترك صديقى الحجرة ، قال الكولونيل فى صراحة : « يجب ان اقول ان أملى خاب فى استشارتنا هذا اللندنى . أرى أننا لم نتقدم خطوة عما كنا قبل مجيئه . »
قلت : « على الاقل ، حصلت على تأكيده لك بأن حصانك سيجرى . »
قال الكولونيل وهو يهز كتفيه : « نعم ، حصلت على تأكيد منه ، ولكنى أفضل أن آخذ الحصان . »
كنت على وشك الاجابة دفاعا عن صديقى ، فاذا به يدخل الحجرة مرة أخرى .
قال : « والان ، أيها السادة ، اننى لعلى استعداد تام للتوجه الى تافيستوك . »
وحينما ركبنا العربة ، امسك أحد سياس الاسطبل بابها ليبقى مفتوحا لنا . ولكن فكرة فجائية طرأت على بال هولمز ، لانه مال الى الامام ولمس كم السايس ، وقال :
« لديكم بعض الاغنام فى المتنزه ، من يعنى بها ؟ »
« انا ، ياسيدى . »
« هل لاحظت بها شيئا غير عادى ، حديثا ؟ »
« نعم ، ياسيدى ، ولكنه قليل الاهمية . ثلاث شياه منها ، اصابها العرج ، ياسيدى . »
كان بوسعى ان أرى هولمز مسرورا جدا ، اذ ضحك وفرك كلتا يديه معا .
قال هولمز وهو يربت على ذراعى : « يالها من ملاحظة طويلة ،

ملاحظه طويلة جدا ! أرجو ان الفت نظرك ياجريجورى الى هـذا الوباء بين الاغنام . سر ، أيها الحوذى ! »

مازالت ملامح الكولونيل روس تنم عن الفكرة الضعيفة التى كونها عن مقدرة زميلى ، ولكنى شاهدت فى وجه المفتش ما يدل على انه أثير اثارة حادة .

سأل المفتش يقول : « أتعتبر هذا الوباء بين الاغنـــام ، ذا اهمية ؟ »

« بالغ الاهمية . »

« هل هناك نقطة أخرى تريد أن تلفت انتباهى اليها ؟ »

« الى حادثة الكلب الغريبة ، اثناء الليل . »

« لم يفعل الكلب شيئا أثناء الليل . »

فقال شرلوك هولمز : « وهذه هى الحادثة الغريبة »

بعد ذلك بأربعة أيام ، كنت مع هولمز مرة أخرى فى القطار المتجه الى ونتشستر لمشاهدة السباق على كأس وسيكس قابلنا الكولونيل روس خارج المحطة تبعا لموعد . فركبنا عربته الى حلبة الســباق خارج المدينة . وكانت الجدية تبدو فى وجهه ، وحالته باردة الى اقصى حد .

فقال الكولونيل : « لم أر حصانى . »

فسأله هولمز بقوله : « هل تعرفه عندما تراه ؟ »

فغضب الكولونيل غضبا شديدا ، وقال : « لى مدة عشرين سنة على سهول سباق الخيل ، ولم يسألنى أى شخص مثل هـذا السؤال من قبل . بوسع أى طفل أن يعرف سيلفر بليز من جبهته البيضاء وأرجله الامامية الرقطاء . »

« كيف حال المراهنة ؟ »

« كان هذا هو الجزء الغريب فيها ، اذ كان بوسعك الحصول على ١٥ الى ١ بالامس ، ولكن السعر تقلص وتقلص حتى انك قلمـا تحصل على ثلاثة الى واحد ، الان . »

فقال هولمز : « صه ! شخص ما يعرف شيئا واضحا ! »

عندما اقتربت العربة من احدى الحظائر القريبة من الموقف الاكبر ، القيت نظرة على القائمة لارى أسماء الخيول المتسابقة ، كانت هكـذا :

كأس وسيكس ٥٠ جنيها لكل نصف قدم مع اضافة ١٠٠٠ جنيه للخيول التى أعمارها اربع وخمس سنوات . الثانى ٣٠٠ جنيه ،

والثالث ٢٠٠ جنيه ، طريق « ميل واحد وخمسة فورلونج »

١ ــ النجرو للمستر هيث نيوتون « قبعة حمراء وجاكتة بنية بلون القرفة » .

٢ ــ بيوجيليست للكولونيل واردلو « قبعة وردية وجاكتة زرقاء داكنة » .

٣ ــ ديزبره للورد باكووتر « قبعة صفراء وأكمام صفراء أيضا » .

٤ ــ سيلفر بليز للكولونيل روس « قبعة سوداء وجاكتة حمراء » .

٥ ــ ايريس لدوق بالمورال « صفراء بخطوط سوداء » .

٦ ــ راسير للورد سنجلفورد « قبعة أرجوانية وأكمام سوداء » .

فقال الكولونيل روس : « ألغينا كل شيء ، ووضعنا كل آمالنا فى كلمتك . لماذا ، ماهذا ؟ سيلفر بليز المحبوب ؟. »

صاح المعلن يقول : « خمسة الى اربعة ضد سيلفر بليز ! خمسة الى أربعة ضد سيلفر بليز ! ١٥ الى ٥ ضد ديزبره ! خمسة الى أربعة على الحلبة ! »

صحت : « هاهى الاعداد علقت . كلها ستة هناك . »

فصاح الكولونيل فى هياج بالغ : « كل الستة هناك ، اذن ، فحصانى سيجرى . ولكنى لا أبصره . أعلامى لم تمر . »

« لم تمر سوى خمسة . لابد أن هذا هو . »

وبينما انا اتكلم ، اندفع حصان قوى من حظيرة الوزن ، ومر أمامنا وعلى ظهره الاسود والاحمر الخاصان بالكولونيل روس .

فصاح صاحب الجواد يقول : « ليس هذا حصانى ليس لهذا الحيوان شعر أبيض فى جسمه . ماهذا الذى فعلته ، يامستر هولمز ؟ »

« حسنا ، اذن فلننتظر لنرى ماذا سيفعل . » قال هذا صديقى فى هدوء وأخذ يراقب السباق من خلال منظارى المقرب لبضع دقائق ، وصاح فجاة يقول : « بداية رائعة ! هاهى الخيول آتية حول المنحنى ! »

أمكننا ، من عربتنا ، أن نشاهد السباق بوضوح عندما وصلت الخيول الى الطريق المستقيم . كانت الخيول الستة متقاربة تماما حتى كان من الممكن لبساط واحد أن يغطيها جميعا . غير أنه فى منتصف

الطريق ، ظهر الاصفر الخاص باسطبل كابلتون . وقبل أن تصـــل الخيول الينا ، تغلب سيلفر بليز على تقدم ديزبره ، واندفع حصان الكولونيل روس ومر من أمام القائم بستة أطوال قبل أن يصل منافسه أيريس لصاحبه بالمورال ، الذى صار الثالث .

فقال الكولونيل روس وهو يضع يده فوق عينيه : « على أية حال ، هذا سباقي . أعترف بأننى لا أعرف أى شيء عن هذا . ألا تظن ، يامستر هولمز ، انك احتجزت سر هذا اللغز عنى مدة طويلة جدا ؟ »

« بالطبع ، يا كولونيل . ستعرف كل شيء . هلم بنا ، جميعا ، نذهب ونلقى نظرة على الخيول معا . هاهو . » استطرد صـــديقى كلامه ونحن نسير الى حظيرة الوزن التى لا يسمح بدخولها الا لاصحاب الخيول وأصدقائهم ، فقال للكولونيل روس : « ما عليك الا أن تغسل وجهه ورجله بالكحول النقى ، لترى أنه سيلفر بليز القديم كما كان دائمـــا . »

« انك لتدهشنى بحق يامستر هولمز ! »

« وجدته عند شخص ممن يغيرون معالم الخيول لسرقتها ، واخذت حريتى معه فى نفس الوقت الذى كان سيخفيه فيه . »

« لقد فعلت العجائب ، ياسيدى العزيز .. يبدو جوادى فى صحة جيدة وحال طيبة . لم يكن أحسن من هذا طول حياته . اننى مدين لك بألف اعتذار عن ارتيابى فى مقدرتك وكفاءتك . لقد أديت لى خدمة عظمى بأن أعدت لى حصانى ، وستؤدى لى خدمة أعظم اذا وضعت يدك على قاتل جون ستريكر . »

فقال هولمز فى هدوء : « لقد فعلت ذلك . »

استدرت نحوه ، أنا والكولونيل روس مدهوشين وقلنا فى نفس واحد : « هل قبضت عليه ؟ اذن فأين هو »

« انه هنـــا . »

« هنا ! أين ؟ »

« فى صحبتنا ، هذه اللحظة . »

احمر وجه الكولونيل فى غضب ، وقال : « أعترف تماما بأننى مدين لك كثيرا ، يامستر هولمز ولكنى أعتبر ماقلته الان ، اما مزاحا سيئا ، أو اهانة . »

ضحك شرلوك هولمز ، وقال « أؤكد لك ياكولونيل ، اننى لم

أذكر أن لك يدا فى هـــذه الجريمة . فالقاتل الحقيقى يقف خلفك مباشرة ! »

خطا الكولونيل الى الخلف ، ووضع يده على العنق اللامع لذلك الجواد الاصيل .

فصحت انا والكولونيل : « أهو الحصان ؟ »

« نعم ، هو الحصان . ومما يقلل من وزر جريمته أنه فعل ذلك دفاعا عن نفسه . وأن جون ستريكر ذاك ، كان رجلا غير جدير على الاطلاق بثقتك . ولكن ، هاهو الجرس يدق ! سأرجىء التفسير الطويل لذلك الحادث ، كى أقف لأتفرج قليلا على الشوط التالى ، سأرجىء ذلك الى وقت أكثر ملاءمة . »

حجزنا لأنفسنا ركنا فى عربة بولمان ، فى ذلك المساء ، ونحن عائدون الى لندن . واعتقد أن الرحلة كانت قصيرة للكولونيل روس ، ولى ، ونحن نصغى لرواية رفيقنا للاحداث التى وقعت فى اسطبلات التدريب بدارتمور ليلة الاثنين تلك ، والوسائل التى حل بهـا ذلك اللغز . »

قال هولمز : « أعترف بأن كل نظرية كونتها من روايات الصحف للحادث كانت خطأ تماما . ومع ذلك فهناك دلائل على أنهـــا محملة بتفاصيل أخرى أخفت أهميتها الحقيقية . ذهبت الى ديفونشـير بفكرة أن فيتزروى سيمبسون هو المجرم الحقيقى ولو أننى رأيت أن الادلة ضده ليست كافية ولا كاملة بحال ما .

« لم تطرأ على بالى أهمية لحم الضأن المتبل ، الا وانا فى العربة حينما وصلنا الى بيت المدرب . وأظنك تتذكر أننى كنت شـــارد الذهن ، وبقيت جالسا فى العربة بعد أن نزلتم جميعا . بقيت أتخيل فى ذهنى كيف أغفلت مثل هذا الدليل الواضح . »

قال الكولونيل : « أعترف بأننى لا أرى ، حتى الان ، كيف يساعدنا هذا الدليل . »

« كان هذا الدليل أول حلقة فى سلسلة براهينى . ليس مسحوق الافيون عديم الطعم ، وطعمه غير مقبول على الاطلاق ، ولونه ظاهر . ولو مزج مع أى طبق عادى لعرفه الآكل على الفور ، ولربما امتنع عن تناول شىء من ذلك الطبق . والتوابل هى الوسيلة الوحيدة التى تخفى طعمه ولونه . وما كان لذلك الغريب فيتزروى سيمبسون أية طريقة يحث بها أسرة المدرب على أن تتبل اللحم بالتوابل فى تلك الليلة. ومن المستحيل ان نعتقد أنه بمحض المصادفة جاء سيمبسون بالافيون

المسحوق فى تلك الليلة التى تقدم فيها الاسرة هذا الطبق بالذات الذى يخفى طعم الافيون ولونه . وعلى هذا يحذف سيمبسون من هـذه القضية ونركز تفكيرنا على ستريكر وزوجته . فهما الشخصـان الوحيدان اللذان يمكن أن يكونا قد اختـارا اللحم المتبل للعشـاء فى تلك الليلة . أضيف الافيون الى الطعام بعد أن غرف الطبق ووضع جانبا لعشاء السايس المكلف بحراسة الاسطبل فى تلك الليلة ، اذ تناول الاخران نفس الطعام دون أى أثر سيىء اذن ، فمن منهمـا يمكنه الوصول الى ذلك الطبق دون أن تراه الخادمة ؟

« قبل تقرير الاجابة على هذا السؤال ، رأيت أهمية صـمت الكلب . فان واقعة حقيقية تجر الى أخرى بلا شـك . فواقعة سيمبسون أعلمتنى بأن هناك كلبا فى الاسطبل باستمرار . ورغم أن شخصا دخل الاسطبل واخرج منه حصانا فان الكلب لم ينبح نباحا يكفى لان يوقظ السايسين النائمين فى حجرة التبن فوق الاسطبل . ومن الجلى أن زائر نصف الليل كان شـخصا يعرفه الكلب معرفة تامة .

« اقتنعت ، أو قل شبه اقتنعت بأن ستريكر ذهب الى الاسطبل فى جنح الليل واخرج سيلفر بليز . ولأى غرض أخرجه ؟ من الجلى أنه أخرجه لغرض غير شريف . والا ، فلماذا يخدر السايس الذى تحت أمرته والذى يحرس الاسطبل وقتذاك ؟ ومع ذلك ، فلم أعرف السبب ـ كانت هناك حالات سابقة تأكد فيها المدربون من حصـولهم على مبالغ ضخمة بايذاء خيولهم عن طريق بعض الوسطاء ، وبذا يمنعونهم، بطريق الغش ، من الفوز . وأحيانا يكون ذلك بأن يشـد الجوكى الحصان ، وأحيانا أخرى بوسيلة أضمن وأكثر دهاء . فماذا كانت الوسيلة هنا ؟ وضعت أملى فى أن أتوصل بواسطة محتويات جيوبه الى معرفة هذه الوسيلة .

« وفعلا عرفتها من محتويات جيوبه . ولا يمكنك أن تنسى السكين الوحيدة التى كانت فى يد القتيل ، والتى لا يمكن لرجل سليم العقل أن يستخدمها كسلاح يدافع به عن نفسه . انها ، كما أخبرنا الدكتور واطسون ، نوع من المشارط المستعملة فى أدق العمليـات الجراحية التى عرفها الطب . وكان ستريكر يريد استعمالها فى عملية دقيقة فى تلك الليلة . ويجب أن تعرف ، يا كولونيل ، عن طريق ممارستك لشئون السباق أنه من الممكن عمل شق بسيط فى أحـد أربطة عضلات كفل الحصان ، ويعمل تحت الجلد بحيث لا يترك أى

اثر . فالحصان الذى تجرى له مثل هذه العملية ، يصيبه عرج بسيط يمكن أن يعزى سببه الى عنف التدريب أو الى الروماتيزم ، ولكن لايعزى اطلاقا الى أى عمل اجرامى . »

فصاح الكولونيل ، يقول : « ياله من نذل ! ياله من وضيع دنيء ! »

« لدينا هنا السبب فى رغبة ستريكر لان يأخذ الحصان الى السهل المعشوشب . ولا شك فى أن مثل ذلك الحصان المرهف ، كان سيوقظ أعمق الناس نوما ، اذا ما وخز بالسكين . لذا كان من الضرورى اجراء العملية فى الخلاء . »

فصاح الكولونيل : « لقد كنت أعمى ! وبالطبع كان هذا هو سبب حاجته الى الشمعة ، والى ايقاد عود الثقاب . »

« هذا أكيد ، ولكن عند فحص متعلقاته ، ساعدنى الحظ اذ عثرت ، ليس فقط على وسيلة الجريمة ، بل وايضا على الدافع الى ارتكابها . ولما كان ستريكر من المتمتعين بالملذات الدنيوية ، وانك لتعرف ، يا كولونيل ، أنه ما من شخص يحمل فواتير حساب شخص آخر ، ان لدينا جميعا مايكفى لان ندفع ثمنه لانفسنا بدلا من أن ندفع ثمن مشتريات غيرنا . استنتجت على الفور أن ستريكر كان يحيا حياة مزدوجة اى أنه لم يكتف بزوجته فحسب ، بل ينفق على مسكن ثان . وتدل طبيعة الفاتورة على أن هناك سيدة فى القضية ، وسيدة لها أمزجة تتكلف مبالغ كبيرة . واذ كنت سخيا ، ياكولونيل ، مع مستخدميك ، فانك رغم هذا السخاء ، لا تتوقع أن يستطيع أحدهم شراء فستان بعشرين جنيها لزوجته . وقد سألت مسز ستريكر عن ذلك الفستان دون أن تفطن الى غرضى فأنكرت امتلاكها له . وعندئذ اقتنعت ، أنا نفسى ، بأنه لم يصلها اطلاقا ، فأخذت مذكرة بعنوان بائع الملابس ، وشعرت بأن سؤالى هناك واطلاعهم على صورة ستريكر ، سيؤدى الى أن تخمينى كان صحيحا ، بخصوص دار بيشير الاسطورى ، الذى لم يكن سوى ستريكر اتخذ لنفسه اسما مستعارا للتمويه أمام زوجته .

« منذ ذلك الوقت ، صار كل شيء واضحا كالشمس .. قاد ستريكر الحصان الى التجويف الغائر كيلا يرى النور منه . وعندما فر سيمبسون وقع منه رباط رقبته دون أن يشعر به ، فأخذه ستريكر لفكرة ما ، ربما ليستعمله فى تقييد رجل الحصان . وما أن صار داخل التجويف حتى وقف خلف الحصان وأوقد نورا ، فلغز

الحصان لذلك النور الفجائي وجفل بطبيعة الحيوان الغريبة للاحساس بقدوم أذى ما ، فرفس برجله أو برجليه كلتيهما ، فأصابت الحدوة المصنوعة من الصلب ستريكر فى رأسه تماما فهشمته . وكان رغم المطر قد خلع معطفه من قبل وعلقه فوق الشجيرة الشائكة كدريئة تمنع رؤيته وهو يقوم بعمليته الدقيقة . وهكذا سقط ستريكر على الارض ، واثناء سقوطه كانت السكين فى يمناه فجرح فخذه بهـا . »

فصاح الكولونيل يقول : « رائع ! رائع ! كأنك كنت هناك ، يا مستر هولمز . »

« وانى لاعترف بأن تصورى الاخير كان تصورا طويلا جدا . أدهشنى أن ستريكر ، ذلك الرجل الدقيق الحذر ، يفكر فى القيام بمثل هذه العملية الدقيقة دون سابق تجارب ، ولو قليلة . فعلى أى شيء أجرى تجاربه ؟ وقعت عيناى على الاغنام ، فسألت ذلك السايس ، وأدهشنى أن تخمينى كان صحيحا . »

« لقد أوضحت كل شيء تماما ، يامستر هولمز . »

« عندما رجعت الى لندن ، ذهبت الى بائع الملابس الذى تعرف من فوره على صورة ستريكر وقال انه زبون طيب ، وأن اسمه داربيشير ، وأن زوجته تهوى الفساتين الثمينة بدرجة غريبة . لم أشك اطلاقا فى أن تلك المرأة أثقلت كاهله تماما بالديون ، وبذا ساقته الى الخطة الوخيمة العاقبة . »

فصاح الكولونيل يقول : « لقد فسرت كل شيء يامستر هولمز ، فيما عدا شيئا واحدا ، أين كان الحصان ؟ »

« جفل سيلفر بليز وهرب ، فاعتنى به احد جيرانك . وأظننا يجب أن نعفو عن ذلك .. هذا تقاطع كلافام ، ان لم اكن مخطئا ، وسنكون فى فيكتوريا فى اقل من عشر دقائق . واذا طاب لك أن تدخن سيجارا فى منزلنا ، يا كولونيل روس ، فسأكون سعيدا لان أروى لك بعض التفاصيل الاخرى التى قد تهمك وتمتعك . »

الــوجـــــه الأصـفـــر

انشر هذه القصص القصيرة المبنية على القضايا العديدة التى استخدمت فيها مواهب زميلى الفريدة ، التى جعلتنى أصغى اليها واكون الممثل فى بعض الدراما الغريبة .. ومن الطبيعى عند نشرى لها أن أذكر القضايا التى نجح فيها دون التى لم يتوصل فيها الى حل . وهذه الاخيرة ليست كثيرة ، من حسن حظ سمعته ، فقد كان حاد الذكاء ، جم النشاط ، ذا كفاءة عجيبة . ولكنه اذا اخفق فى قضية ، فما من أحد آخر كان ينجح فيها . وعندئذ تحفظ القضية « الفاعل مجهول » . واذا تصادف أن أخطأ فى قضية ، فانه يكون هو الذى اكتشف حقيقة وقائعها . ولدى مذكرات عن حوالى ست قضايا من النوع الذى فيه موضوع الخطأ الثانى . وهأنذا أوشك على سرد قصتين تمثلان أقوى مظاهر المتعة .

قلما يمارس شرلوك هولمز التمرينات الرياضية من اجل تلك التمرينات نفسها . وقليل من الناس قادرون على القيام بمجهود عضلى اكثر منه . وكان ، بلا شك ، واحدا من أروع من رأيتهم من الملاكمين فى وزنه . ولكنه كان ينظر الى الرياضة البدنية بدون هدف على أنها جهد ضائع . وقلما يجهد نفسه الا اذا كان هناك هدف مهنى ينبغى عمله . ثم انه لا يتعب من العمل ولا يكل ، فيظل يشغل نفسه بالعمل فى تلك الظروف . ولا يتناول من الطعام الا القليل البسيط فيكتفى بالطعام الذى يمسك الاود فحسب . كما أن عاداته بسيطة جدا لدرجة القسوة على النفس . ولا يتصف بأية رذيلة ، باستثناء بعض الكوكايين فى النادر من المناسبات . ولا يلجأ اليه الا لتغيير وتيرة الحياة فلا يجب أن تسير حياته كلها على وتيرة واحدة ، عندما تكون القضايا قليلة والصحف غير ممتعة .

وذات يوم فى أوائل الربيع ، أحس بالاسترخاء فأراد الخروج للتنزه معى فى بعض الحدائق العامة ، وقت أن بدأت أوائل الاوراق الخضراء تظهر على اغصان أشجار الدردار ، وأخذت البراعم الطرفية تتفتح فى نهايات فروع أشجار الكستناء ، فتخرج منها مجموعات خماسية الوريقات . وهكذا ظللنا نتمشى معا لمدة ساعتين ونحن

صامتان فى معظم الوقت كما يليق بصديقين حميمين يعرف كل منهما الاخر حق المعرفة . ولما قاربت الساعة على الخامسة مساء ، فكرنا فى أن نعود أدراجنا الى شارع بيكر .

حينما فتح لنا الخادم الباب قال : « عفوا ياسيدى . كان هنا رجل يسأل عنك . »

نظر هولمز الى نظرة لوم ، وقال : « لقد سرنا مدة طويلة بعد ظهر هذا اليوم ! » ونظر الى الخادم ، وقال له : « اذن ، فقد انصرف ذلك الرجل ؟ »

« نعم ، ياسيدى . »

« ألم تطلب منه أن يدخل ؟ »

« بلى ، ياسيدى ، ودخل . »

« كم من الوقت انتظر هنا ؟ »

« نصف ساعة ، ياسيدى . كان بالغ القلق ، ياسيدى ، ظل يذرع ارض الحجرة جيئة وذهابا ، وهو ينفخ ويضرب الارض بقدمه. وكان بوسعى أن أسمعه . وأخيرا ، خرج الى الممر وصاح يقول : « الن يأتى هذا الرجل ؟ » هذه هى نفس كلماته بالنص الواحد ، ياسيدى . فقلت له :انتظر قليلا ، فقال : « سأنتظر فى الهواء الطلق ، اذ اشعر بأننى سأختنق ، وسأعود بعد مدة غير طويلة . » وبهذا خرج ، ولم يفلح معه كل ماقلته لأحثه على البقاء . »

فقال هولمز ونحن ندخل الحجرة : « حسنا ، حسنا . لقد بذلت جهدك » هذا مضايق جدا يا واطسون أنا فى أشد الحاجة الى قضية . وهذه ، كما يبدو من قلق ذلك الرجل ، ستكون ذات أهمية. مرحى ! ليس هذا غليونك الذى فوق النضد ! لابد انه نسى غليونه هنا . انه من الخشب الثمين الجميل ، ذو مبسم مما يسميه بائعو التبغ « الكهرمان » . لست أدرى كم مبسما من الكهرمان الحقيقى فى لندن . . يظن بعض الناس أن ذبابة بداخل الكهرمان دليل على انه كهرمان حقيقي طبيعي . ومن وسائل الصناعة وضع ذبابة زائفة داخل الكهرمان الزائف . لابد أنه كان مبلبل الفكر منزعج الخاطر ، حتى انه ترك غليونه هنا دون وعي منه . ومن الجلى انه عزيز عليه تماما » .

فقلت له : « كيف عرفت انه عزيز عليه تماما ؟ » .

« يمكننى تقدير الثمن الاصلى لهـذا الغليون بسبعة شلنات وستة بنسات . ثم انه أصلح مرتين ، مرة فى الجذع الخشبى ، ومرة أخرى فى المبسم الكهرمانى وكل اصلاح منهما ، كما ترى ، قد عمل

باشرطة الفضة . ولابد انهما كلفاه اكثر من الثمن الاصلى للغليون . انه عزيز عليه ، اذ انه فضل ان يرقعـه بدلا من ان يشترى غليونا جديدا بنفس النقود » .

قلت : « هل من شيء آخر ؟ » لان هولمز كان يقلب الغليون بين يديه وينظر اليه بطريقته التفكيرية الغريبة .

رفع هولمز الغليون الى أعلى ، وطرق عليه باصبعه الطـويلة الرفيعة ، كما يفعل الاستاذ عندما يلقى محاضرة على احدى العظام .

قال هولمز : « للغلايين أحيانا متعة خارقة . ربما لا يوجد شيء أكثر فردية من الساعات وأربطة الاحذية . والدلائل هنا ليست ملحوظة جدا ولا ذات أهمية كبرى . ومن الجلي أن صاحب هذا الغليون رجل قوى العضلات واشول ، وذو مجموعة أسنان قوية ، ومهمل فى عاداته ، وليس بحاجة الى توخى الاقتصاد » .

قلت : « أتعتبر الرجل غنيا اذا كان يدخن فى غليون قيمته سبعة شلنات ؟ » .

أجاب هولمز وهو يطرق على مستودع الغليون كى يسقط بعض التبغ فى كفه : « هذا التبغ مخلوط جروزفنر، الذى ثمن الاوقية منه ثمانية بنسات ، فى حين أن بوسعه أن يحصل على تبغ ممتاز بنصف هذا الثمن . اذن ، فهو ليس فى حاجة الى توخى الاقتصاد » .

« والنقاط الاخرى ؟ » .

« من عادته اشعال غليونه من المصابيح ولهب الغاز . وبوسعك ان ترى غليونه محترقا من جانب واحد . وبالطبع ، لا يمكن لعود ثقاب أن يفعل هذا لماذا يمسك الرجل عود الثقاب الى جانب غليونه ؟ ولكنك لن تستطيع اشعاله من مصباح دون احراق جانب المستودع . ثم ان الحرق كله على الجانب الايمن للغليون ، مما يقطع بأنه أشول . ارفع غليونك انت نفسك فوق المصباح ، تلاحظ أنك تضع الجانب الايسر فوق المصباح ، لانك تستعمل يدك اليمنى . وقد تضعه من الجانب الاخر مرة فى كل عشر مرات . ودائما ما كان الغليون على ذلك النحو ، ثم انه عض الكهرمان ، ولا يمكن أن يفعل هذا الا رجل قوى العضلات والاسنان .. ولكنى ، اذا لم أكن مخطئا ، أسمع وقع اقدامه على السلم ، وعلى هذا سيكون لدينا شيء أكثر متعـة من دراسة الغليون » .

بعد ذلك بلحظة فتح بابنا ودخل الحجرة رجل صغير السن

طويل القامة يرتدى ثيابا جيدة بطريقة هادئة . فهو يلبس حلة رمادية اللون دكناءة ، ويحمل فى يده قبعة من اللباد الناعم بنية اللون . واني لاقدر عمره بحوالي ثلاثين عاما ، ولو أنه كان ، فى الحقيقة ، بضع سنوات أكثر من ذلك..

قال وهو مرتبك بعض الشيء : « عفوا ، يا سيدى . كان يجب ان اطرق الباب . نعم ، بالطبع كان يجب أن أطرق الباب . الحقيقة اننى مرتبك قليلا ، ولابد أن تعزى ذلك الى هذا الارتباك » . قال هذا ومر بيده فوق جبينه كرجل نصف مصاب بالدوار . ثم سقط فوق الكرسى اكثر مما جلس .

قال هولمز بطريقته اللطيفة الوديعة : « يمكننى أن أرى أنك لم تنم مدة ليلة او ليلتين . فان عدم النوم يتعب اعصاب المرء أكثر من العمل وأكثر من السرور . فهل لى أن أسأل كيف يمكننى ان اساعدك ؟ » .

« أريد نصحك ، يا سيدى ! لا أعرف ماذا أعمل ويبدو أن حياتى كلها قد تحطمت اربا » .

« أتريد أن تستخدمنى كبوليس سرى استشارى ؟ » .

« ليس هذا فحسب ، بل واريد رأيك كرجل قانونى — وكرجل من العالم ، اريد أن أعرف ماذا أفعل بعد ذلك . اطلب من الله أن يكون بوسعك اخبارى » .

تكلم الرجل فى نوبات قليلة حادة متهدجة . وكان يبدو لى أن الكلام يسبب له ألما شديدا ، وأن رغبته كانت تسيطر على ميوله .

قال : « انها مسألة بالغة الدقة . فلا يود انسان أن يتكلم فى شئونه المنزلية الخاصة الى الاغراب . كم هو فظيع أن يناقش المرء سلوك زوجته مع رجلين لم يسبق له أن رآهما . ومن المخجل ، بل من الشاق أن يضطر الانسان الى ذلك . ولكن طفح الكيل ، وبلغ السيل الزبى ، ويجب ان احصل على النصيحة . »

فقال هولمز : « يا عزيزى المستر جرانت مونرو » .

فقفز زائرنا واقفا من على كرسيه وصاح يقول : « ماذا ! أتعرف اسمى ؟ » .

فقال هولمز وهو يبتسم : « اذا أردت أن يظل اسمك مجهولا ، فلا تكتبه على بطانة قبعتك ، أو ادر قمتها نحو الشخص الذى تتحدث اليه . كنت على وشك أن اقول اننى وصديقى هذا ، استمعنا الى كثير من الاسرار فى هذه الحجرة ، وساعدنا الحظ فى تهدئة وطمأنة

كثير من النفوس المتعبة . وآمل فى أن تذكر لنا الحقائق فى قضيتك دون تأخير ، اذ الوقت ثمين وعظيم الاهمية ، وعسى أن نوفق فى أن نفعل معك مثلما فعلنا مع غيرك . »

مر زائرنا بيده ، مرة ثانية ، فوق جبينه كما لو كان قد وجد الامر شاقا على نفسه . وكنت ألاحظ من كل حركة ، ومن كل تعبير، أنه رجل محافظ ، يحب كتمان أسراره فى دخيلة نفسه بدافع الكبرياء بطبيعته ، يود أكثر لو يخفى جراحه بدلا من التعبير عنها . وفجأة ، وبحركة عنيفة من يده المنقبضة ، كما لو كان سيرمى بأسراره فى مهب الريح ، قال : « هاك الحقائق يا مستر هولمز . انا متزوج منذ ثلاث سنوات . وخلال هذه المدة كنت أحب زوجتى وهى تحبنى ، ومازال كل منا يحب الاخر حبا جما ، وعشنا سعيدين كأى اثنين ارتبطا برباط الزواج السعيد . لم نختلف اطلاقا على اى شىء ، ولا مرة واحدة ، فى الفكر او الكلام او الفعل ، حتى يوم الاثنين الماضى اذ نشأ بيننا حاجز فجأة ، فوجدت أن هناك شيئا فى حياتها وفى أفكارها ، لا أعرف عنه شيئا ، كأنها امرأة تمر بجانبى فى الطريق . صار كل منا غريبا عن الاخر ، واريد أن أعرف السبب .

« هناك شىء واحد أريد أن أخبرك به قبل ان ادخل فى سرد قصتى ، يا مستر هولمز . تحبنى زوجتى ايفى ، ما فى ذلك شك على الاطلاق ، تحبنى من كل قلبها ونفسها ، وما كانت تحبنى أكثر من الآن . أعرف هذا وأحس به ولا أريد أن أجادل فيه ، فان الرجل يعرف متى تحبه زوجته . لكن هناك سرا بيننا ، ولن نكون مثلما كنا الا بعد معرفة ذلك السر .

فقال هولمز فى شىء من القلق : « أرجو أن تذكر . لى الحقائق ، يامستر مونرو . »

« سأخبرك عما أعرفه عن تاريخ حياة أيفى . كانت أرملة عندما التقيت بها لاول مرة ، رغم كونها صغيرة السن ، اذ كانت فى الخامسة والعشرين فقط . كان اسمها مســز هبرون . سافرت الى أمريكـا وهى صغيرة ، وعاشت فى بلدة أتلانتا حيث تزوجت هذا الهبرون الذى كان محاميا كثير العمل . ورزقا طفلا واحدا ، غير أن الحمى الصفراء انتشرت بطريقة فظيعة ، ومات بها كل من الزوج والطفل . وقد رأيت شهادة وفاته : فكرهت أمريكا وعادت ثانية لتعيش مع عمتها العذراء فى بينر بمقاطعة ميدلسيكس . واقول ان زوجها ذاك ترك لها ثروة كبيرة ، فكان لديها رأس مال حوالى اربعـة آلاف

وخمسمائة جنيه ، استثمرتها جيدا بفائدة متوسطها سبعة فى المائة .. لم يبق لها فى بينر سوى ستة شهور حتى التقيت بها ، فوقع كل منا فى حب الآخر ، وتزوجنا بعد ذلك ببضعة أسابيع .

« ولما كنت أنا نفسى ، بائعا جائلا ، وعندى دخل حوالى سبعمائة أو ثمانمائة جنيه ، عشنا فى بذخ واستأجرت فيللا بثمانين جنيها فى السنة فى نوربورى ، وجعلناها على الطريقة الريفية ولو انها قريبة من المدينة . وبعدنا بقليل ، الى أعلى الطريق يوجد فندق وبيتان وكوخ على الجانب الآخر من الحقل قبالتنا . ولا توجد فى المنطقة بيوت أخرى غير هذه الا فى منتصف المسافة بيننا وبين المحطة . ويقتضينى عملى أن أذهب الى المدينة فى بعض المواسم . اما فى فصل الصيف ، فعملى قليل . وعندئذ أكون انا وزوجتى فى بيتنا الريفى من أسعد ما يمكن . أقول لك انه لم يحدث بيننا أى ظل يكدر صفو حياتنا حتى جاء ذلك الامر اللعين .

« هناك شىء واحد يجب ان اخبرك به قبل أن أتعمق فى موضوعى .. عندما تزوجنا ، أعطتنى زوجتى كل أموالها ، ولم أكن راغبا فى هذا ، اذ كنت أرى انه لا يليق أن أنفق من أموالها اذا ما ساءت حال عملى . وعلى أية حال ، ارادت هى ذلك وصممت عليه ، فكان كما ارادت . ومنذ حوالى ستة أسابيع ، جاءتنى تقول :

« عندما أخذت نقودى ، يا جاك ، قلت لى اننى اذا ما احتجت الى مبلغ ما ، أن اطلبه منك . »

قلت : « بالطبع ، فهى كلها أموالك . »

قالت : « اذن ، أريد مائة جنيه . »

« ذهلت لذلك الطلب ، لاننى كنت أظن أن الامر لن يتعدى ثمن فستان جديد أو نحوه .

فقلت : « لاى شىء ، على الارض ، تريدين هذا المبلغ ؟ . »

قالت بطريقتها الدعابية : « قلت انك مجرد أمين خزانتى ، وأمناء الخزائن لا يسألون أى اسئلة ، كما تعلم . »

قلت : « اذا كنت تقصدين هذا ، حقيقة ، فسأعطيك النقود . »

« نعم ، أقصد هذا حقيقة . »

« وهلا تخبريننى لاى شىء تريدينها ؟ »

« ربما ، فى وقت ما ، وليس الآن يا جاك . »

« وعلى أية حال ، كان على أن اقنع بذلك . ولو انها كانت المرة الاولى التى حدث فيها وجود اى سر بيننا . فأعطيتها شيكا ،

ولم أفكر فى ذلك الامر بعد ذلك أبدا . ليس لهذا علاقة بما سيأتى بعد ذلك . ولكنى وجدت من الصواب أن أذكر لك هذه الواقعة .
سبق أن أخبرتك بأن هناك كوخا ، على مسافة غير بعيدة من بيتنا ، بيننا وبينه حقل . ولكنك اذا أردت الوصول اليه ، اضطررت الى أن تسير فى الطريق ، ثم تعرج على حارة . ووراء الكوخ دغل من أشجار الصفصاف الاسكتلندى ، وكنت ، أنا نفسى ، مولعا بالتجول هناك ، لان الاشجار كائنات حسنة الجوار .. ظل الكوخ خاليا من السكان طيلة هذه الشهور الثمانية . ومن المؤسف أن يظل كذلك اذ يتألف من طابقين ، وله مدخل عتيق الطراز ، وحوله أشجار الفتنة . وكثيرا ما وقفت هناك أفكر فى انه مسكن رائع .
« وفى يوم الاثنين الماضى ، وأنا أتجول فى ذلك الطريق ، ابصرت عربة خاوية تسير الى أعلى الحارة ، كما رأيت كومة من السجاجيد والامتعة فوق النجيل بجانب مدخل الكوخ . فكان واضحا أن الكوخ استؤجر أخيرا . فسرت الى جانبه ، ثم توقفت ، كما قد يفعل المتسكعون ، وألقيت نظرة الى فوق لأرى نوع السكان الذين جاءوا ليقيموا بقربنا . وبينما أنظر الى فوق ، شاهدت وجها يراقبنى من احدى النوافذ العليا .
« لا اعرف ماذا بذلك الوجه ، يا مستر هولمز ولكن يبدو أنه ارسل موجة باردة فى ظهرى ، وكنت على مسافة منه فلم أتبين ملامحه ، ولكن كان هناك شىء غير عادى ، وغير انسانى فى ذلك الوجه . هكذا كان انطباعى ، فسرت بسرعة الى الامام لالقى نظرة من كثب على ذلك الشخص الذى كان يراقبنى . غير أننى ، وأنا أفعل ذلك ، اختفى الوجه فجأة ، كما لو كان قد اندمج فى ظلام الحجره . توقفت أفكر فى ذلك الامر مدة خمس دقائق . وحاولت تحليل انطباعاتى . لم أعرف ما اذا كان وجه رجل أو وجه أمرأة ، ولكن لونه هو الذى أثارنى أكثر من غيره . كان أصفر بلون جثث الموتى ، يصحبه شىء من الصلابة جعله غير طبيعى بصورة ملحوظة . فانزعجت لدرجة أننى اعتزمت معرفة شىء عن قاطنى ذلك الكوخ . فتقدمت وطرقت الباب ، ففتحته على الفور سيدة فارعة الطول عملاقة ، ذات وجه عابس مقيت .
فسألتنى فى لهجة اهل الشمال تقول : « ماذا تريد ؟ »
قلت ، وأنا أشير الى بيتى : « أنا جاركم هناك ، وأرى أنكم قد انتقلتم لتوكم الى هنا . ففكرت أن أمد لكم يد المساعدة فى أى ـــ »

قالت : « نعم ، سنطلب منك بمجرد أن نحتاج اليك . »
واقفلت الباب فى وجهى . واذ استأت من هذه الفظاظة وخيبة الامل ، ادرت وجهى ، وسرت الى بيتى . ومع ذلك ، حاولت طوال المساء أن أفكر فى كل شيء يتذكره ذهنى عن ذلك الشبح الذى اطل من النافذة ، وعن فظاظة تلك المرأة . نويت الا أقول شيئا عن ذلك الوجه لزوجتى ، لانها سيدة عصبية وسريعة الانفعال ولا أريدها أن تشترك معى فى الطابع غير السار الذى انطبع فى نفسى . ومع ذلك ، فقد لمحت لها قبل أن استغرق فى النوم ، بأن الكوخ مسكون الآن ، فلم ترد على تلميحى بشيء .

« انني ، بطبيعتى ، انام عميقا ، وكانت الاسرة تتندر دائما بأنه ما من شيء يمكن أن يوقظنى خلال الليل . ومع ذلك ، ففى تلك الليلة بالذات ، كان نومى خفيفا أكثر من المعتاد ، ولست أدرى أكان هذا بسبب ما احدثته تلك المغامرة البسيطة من اثارة فى نفسى ، أم كان لسبب آخر لا أعرفه .. وبينما أنا نصف حالم ، احسست احساسا غير واضح بأن شيئا يحدث فى الحجرة . وبالتدريج ، أدركت أن زوجتى قد ارتدت ملابسها ، وتلبس عباءتها وقبعتها . انفرجت شفتاى وتمتمت كلمات النوم بما يدل على المفاجأة او الاعتراض على ذلك الاستعداد غير المناسب . فاذا عيناى نصف المفتوحتين تقعان فجأة على وجهها فى ضوء الشمعة . فألجمت الدهشة لسانى . كانت ملامح وجهها متغيرة تغيرا لم أعهده فيها من قبل ــ ملامح ، اعتقد انها لا يمكن أن تتصف بها . كانت فى شحوب الاموات ، وتتنفس بسرعة ، وتنظر خلسة الى السرير وهى تثبت أزرار عباءتها ، لترى ما اذا كانت قد أيقظتنى ، ثم حسبتنى لم أزل نائما ، فتسللت من الحجرة فى هدوء . وبعد لحظة سمعت صريرا حادا لا يمكن أن يحدثه سوى مفصلات الباب الخارجى .. فجلست فى السرير لأتأكد من اننى متيقظ حقيقة . ثم سحبت ساعتى من تحت الوسادة فاذا بها الساعة الثالثة صباحا . أى شيء على الارض يمكن أن تفعله زوجتى بالخارج فى الطريق الريفى فى الساعة الثالثة صباحا ؟

« جلست مدة عشرين دقيقة تقريبا ، وأنا أقلب الامور فى ذهنى ، فى هذا الاتجاه وذاك ، لأجد اى تفسير ممكن ، وكلما فكرت زادت الامور تعقيدا وغدت عديمة التفسير . وبينما أنا حائر فى ذلك الأمر ، سمعت الباب يقفل ثانية فى رفق ، ووقع اقدامها تصعد السلم .

فلما دخلت الحجرة سألتها بقولي : « اين كنت ، فى هذا العالم ، يا ايفى ؟ »

« ثارت بعنف واخذت تبكى وانا اتكلم ، فأزعجنى هذا البكاء وذلك الانفعال ، اكثر من اى شيء آخر ، لأنه كان يحيط بهما شيء آثم . كانت زوجتى دائما صريحة ، بطبيعتها ، فأزعجنى تسللها الى حجرتها ، وبكاؤها وثورتها عندما يتحدث اليها زوجها .

صاحت تقول ، فى ضحكة عصبية : « هل أنت متيقظ يا جاك ؟ لم ذلك ؟ ظننت أن لا شيء يمكن أن يوقظك . »

فقلت لها بعنف أكثر : « أين كنت ؟ »

قالت : « لا يدهشنى أن يكون خروجى مفاجاة لك . » وكان بوسعى أن أرى اصابعها ترتجف وهى تحل أزرار عباءتها ، واردفت تقول : « لا اتذكر قط ، اننى فعلت مثل هذا الشيء من قبل . الواقع اننى شعرت كما لو أننى أستنشق بعضا من الهواء النقى . وكنت احس بانه سيغمى على ، لذا خرجت ووقفت أمام الباب لبضع دقائق . وهأنذا عدت كما كنت مرة اخرى . »

« وطوال الوقت الذى كانت تقول فيه ذلك لم تضع عينها فى عينى مرة واحدة ، ولم تنظر جهتى قط ، وكان صوتها يختلف عن صوتها العادى . اذن ، كان من الواضح لى أنها لم تقل الصدق . فلم أرد على كلامها ، بل ادرت وجهى الى الحائط وانا مبلبل الفكر ومضطرب الفؤاد بآلاف الشكوك والشبهات ، ما الذى تخفيه عنى زوجتى ؟ أين كانت فى تلك الرحلة الغريبة ؟ شعرت بأن ضميرى لن يرتاح الا اذا عرفت ذلك . ثم اننى امتنعت عن سؤالها مرة أخرى بعد أن أخبرتنى بما هو غير حقيقى ، ولبثت بقية الليل اتقلب وأتدحرج فى السرير وأنا اكون نظرية بعد اخرى . كل منها غير معقولة أكثر من سابقتها .

« كان يجب أن اذهب الى المدينة فى ذلك اليوم ، ولكنى كنت مضطرب الذهن فلا استطيع الانتباه الى أمور العمل . ويبدو أن زوجتى كانت مضطربة مثلى ، وكان بوسعى أن أرى من نظرتها المتسائلة الكليلة التى ظلت توجهها نحوى أنها فهمت اننى لم أصدق قولها ، وكانت حيرى لا تدرى ماذا تفعل . وقلما تبادلنا كلمة اثناء تناول طعام الافطار ، وبعده مباشرة ، خرجت لأتمشى كى افكر فى الموضوع فى هواء الصباح النقى .

« ذهبت الى كريستال بالاس حيث قضيت ساعة ثم رجعت

الى نور بورى فى الساعة الواحدة مساء .. وجدت أن طريقى قادنى أمام الكوخ ، فوقفت لحظة أنظر الى النـوافذ ، لأرى ما اذا كان بوسعى أن ألقى نظرة على ذلك الوجه الغريب الذى وقف يحدق فى بالامس . وتصور المفاجأة ، يا مستر هولمز ، وانا واقف هناك ، اذ فتح باب الكوخ ، وخرجت منه زوجتى !

« اخرستنى الدهشة عند رؤيتها ، ولكن عواطفى كانت لا شىء بالقياس الى ما ظهر فى وجهها عندما التقت عيوننا . بدا عليها أنها كانت تود العودة الى الكوخ ثانية ، ثم رأت عدم جدوى اخفاء نفسها . فتقدمت نحوى بوجه ممتقع جدا الى درجة البياض وعينين مذعورتين تناقضان الابتسامة التى ارتسمت على شفتيها .

قالت : « اى جاك ، جئت الى هذا الكوخ ، لأرى ما اذا كان بوسعى مساعدة جيراننا الجدد . لماذا تنظر الى هكذا ، يا جاك ؟ هل أنت غاضب منى ؟

قلت : « اذن ، فقد جئت الى هذا الكوخ أثناء الليل ؟ »

بكت وقالت : « ماذا تعنى ؟ »

« اتيت الى هنا ، وانا على يقين من هذا ، من هؤلاء القوم الذين تزورينهم فى مثل تلك الساعة من الليل ؟ »

« لم آت الى هنا من قبل . »

صحت فيها أقول : « كيف تقولين لى ما تعـرفين أنه افك وبهتان ؟ ان صوتك متغير وانت تتكلمين . متى كان عندى سر فأخفيته عنك ؟ سأدخل هذا الكوخ واتحقق من الموضوع كله الى أعماقه . »

قالت فى عاطفة لا يمكنها السيطرة عليها : « كلا ، كلا ، يا جاك .. اكراما لخاطر الله ! » ثم اقتربت من الباب لأدخل . ولكنهـا امسكت كمى وجذبتنى بقوة وتشنج .

بكت تقول : « أتوسل اليك الا تفعل هذا يا جاك . أقسم على اننى سأخبرك بكل شىء فى يوم ما أما اذا دخلت هذا الكوخ الآن ، فلن يحدث سوى محنة . » وحاولت ابعادها عنى ، ولكنها تعلقت بى فى توسل جنونى .

بكت تقول : « صدقنى ، يا جاك ! صدقنى هذه المرة فقط ، ولن تأسف على ذلك . أنت تعرف أننى لا أخفى عنك سرا اذا كان من أجل خاطرك . ستكون حياتنا فى خطر بناء على ذلك . واذا رجعت معى الى البيت ، فسيكون كل شىء على ما يرام . واذا دخلت الكوخ عنوة ، فسينتهى كل شىء بيننا . »

« كانت هناك جدية ، وكان هنــاك يأس فى حالتها ، حتى ان كلماتها أوقفتني . فوقفت خائر العزيمة أمام الباب .
فقلت لها : « سأصدقك بشرط واحد ، وشرط واحد فقط ، أن ينتهى هذا اللغز منذ الآن . انت حرة فى الاحتفاظ بسرك ، ولكن يجب أن تعدينى وعدا أكيدا ، بالا تكون هناك زيارات ليلية بعد الآن . وألا تفعلى أية أمور بغير علمى . أرغب فى نسيان ما مضى اذا وعدتينى بالا يحدث اى شيء من ذلك فى المستقبل . »
صاحت وهي تزفر زفرة الارتياح : « كنت على يقين من انك ستصدقنى . سأكون كما تريد وترغب . هيا بنا ، هلم بنا الى البيت ! » واخذتني الى البيت وهى ما زالت متشبثة بكمى الى أن ابتعدنا عن الكوخ . وفى أثناء سيرنا ، نظرت خلفى فابصرت ذلك الوجه الاصفر الشاحب يراقبنا من الشباك العلوى .. اية علاقة يمكن أن تكون هناك من ذلك المخلوق وزوجتي ؟ وماذا تكون العلاقة بينها وبين تلك المرأة الفظة التى رأيتها فى اليوم السابق ؟ كان لغزا غريبا . ومع ذلك ، فأعرف أن ضميرى لن يرتاح مرة أخرى الا اذا حل هذا اللغز .
« بقيت فى هذا البيت مدة يومين بعد ذلك ، ويبدو أن زوجتى قد برت بوعدها . وتبعا لما أعلم ، لم تخرج من البيت اطلاقا . وفى اليوم الثالث كان عندى دليــل قاطع أن وعدها لى لم يكن كافيا ليمنعها عن ذلك السر الذى يبعدها عن زوجها وعن واجبها .
« ذهبت الى المدينة فى ذلك اليوم ، ولكنى رجعت بقطار الساعة ٢ر٤٠ بدلا من قطار الساعة ٣ر٣٦ الذى هو قطارى المعتاد . وعندما دخلت البيت ، جرت الخادمة الى البهو بوجه مرتبك .
فقلت للخادمة : « أين سيدتك ؟ »
فأجابت بصوت مضطرب : « أظنها خرجت تتمشى . »
« امتلأ عقلى بالريب فاندفعت الى الدور العلوى لأتأكد من عدم وجودها فى البيت . وبينما أنا بالدور العلوى القيت نظــرة خارج الشباك ، فرأيت الخادمة التى كنت أتكلم معها منذ لحظة ، تجرى عبر الحقل فى اتجاه الكوخ ، وبعدها ، طبعا ، رأيت معنى ذلك . ذهبت زوجتى الى هناك وأخبرت الخادمة بأن تناديها اذا تصادف انى عدت قبل موعدى . واذ كان مرجل غضبى يغلى ، اندفعت أهبط السلم وخرجت من البيت أسير نحو الكوخ مصمما على الانتهاء من هذا الموضوع الى الأبد . فأبصرت زوجتى والخادمة تسرعان عائدتين

معا فى الحارة . ولكنى لم اقف لاتحدث اليهما . ففي ذلك الكوخ يوجد السر الذى يلقى ظلا على حياتى . اقسمت على انه لن يصير سرا بعدئذ ، وليحدث ما يحدث .. ولم أطرق الباب عندما وصلت الى الكوخ ، بل أدرت مقبض الباب واقتحمته الى داخل الممر .

« وجدت كل شيء هادئا وساكنا فى الدور الأرضى ، ووجدت فى المطبخ ابريقا يغنى فوق النار ، وقطة ضخمة سوداء قابعة داخل سلة . ولكن لم يكن هناك اى اثر للمراة التى رأيتها من قبل . فجريت الى الحجرة الاخرى . ولكنها كانت خاوية كذلك . ثم اندفعت صاعدا السلم الى الطابق العلوى لأجد حجرتين خاويتين ومهجورتين . لم يكن هناك اى احد فى الكوخ كله . وكان الاثاث والصور من النوع العادى جدا والمبتذل ، باستثناء ما فى تلك الحجرة التى رأيت فيها الوجه الغريب . كانت هذه الحجرة مريحة وانيقة . وثارت شكوكى وغلى الدم فى عروقى حينما ابصرت على رف المدفأة صورة لزوجتى بالطول الطبيعى التقطت لها بناء على طلبى منذ ثلاثة اشهر .

« مكثت هناك مدة كافية لأتأكد من أن الكوخ خاو . ثم غادرته وانا احس بثقل فوق قلبى ، لم أحس بمثله من قبل . خرجت زوجتى الى البهو حينما دخلت بيتى غاضبا ومتأثرا ، فلم أتحدث اليها ، ومررت بجانبها الى حجرة المكتب . فتبعتنى الى هناك قبل أن يتسنى لى اقفال الباب .

قالت : « آسفة اذ حنثت بوعدى ، يا جاك . ولكنك اذا عرفت كل الظروف ، فأنا متأكدة من أنك ستعفو عنى . »

قلت : « اذن ، فأخبرينى بكل شيء . »

بكت وقالت : « لا أستطيع يا جاك ، لا أستطيع اخبارك الآن ! »

« لن أعفو عنك الا اذا عرفت من يقيم فى ذلك الكوخ ، ومن ذلك الذى أعطيته صورتك . لن توجد ثقة بيننا بعد الان . » وانفصلت عنها وتركت البيت . كان هذا بالأمس ، يا مستر هولمز ، ولم أرها منذ ذلك الوقت ، ولا أعرف أى شيء آخر عنها ، كما لم أعرف اى شيء عن ذلك الامر الغريب . هذا هو أول ظل جاء بيننا ، وقد هز كيانى فى عنف حتى اننى لا أعرف افضل شيء يمكننى ان افعله . وفجأة ، طرأ على بالى فى هذا الصباح انك الرجل الذى يمكن ان ينصحنى . لذا أسرعت اليك ، وهأنذا اضع نفسى بين يديك بدون تحفظ واذا كانت هناك نقطة لم اوضحها ، فأرجو أن تسألنى عنها .

ولكن قبل كل شيء ، ارجو أن تخبرني بما افعله ، لان هذه المحنة اكثر واقوى مما يمكنني احتماله . »

أصغيت أنا وهولمز باهتمام عظيم الى هذه الوقائع غير المألوفة التي سردها رجل مبلبل الفكر بصوت متقطع ، وهو تحت تأثير أقسى العواطف . فجلس هولمز صامتا لبعض الوقت واضعا ذقنه فوق يده ومستغرقا في تفكير عميق .

واخيرا قال : « أيمكنك أن تقسم على ان ذلك الوجه الذي رايته في النافذة ، هو وجه رجل ؟ »

« في كل مرة نظرت اليه كنت على مسافة بعيدة منه ، لذا لا يمكنني الجزم بشيء . »

« ومع ذلك ، انطبعت في ذهنك فكرة سيئة . »

« اللون غريب ، والملامح ذات صلابة غريبة . وعندما اقتربت اختفى وسط الظلام . »

« منذ كم من الوقت طلبت منك زوجتك مبلغ المائة جنيه ؟ »

« منذ شهرين تقريبا . »

« هل رايت صورة لزوجها السابق ؟ »

« كلا . حدث حريق هائل في اتلانتا بعد موته بفترة قصيرة ، فالتهمت النيران جميع الاوراق . »

« ومعها شهادة وفاة ، وقلت انك رايتها ؟ »

« نعم ، حصلت على نسخة ثانية منها بعد الحريق . »

« الم تقابل أحدا يعرفها من أمريكا ؟ »

« كلا . »

« هل تكلمت عن زيارة الكوخ مرة أخرى ؟ »

« كلا . »

« الم تتسلم اية خطابات منه ؟ »

« لا ، حسبما أعلم . »

« شكرا . أود أن افكر في هذا الموضوع قليلا الان . اذا ظل الكوخ مهجورا ، فربما قابلتنا بعض الصعوبات . اما اذا كان السكان قد حذروا من قدومك ، كما اعتقد ، وغادروا الكوخ قبل دخولك بالامس ، فربما كانوا هناك الان ، ويمكننا استجلاء الموقف بسهولة . واني لأنصحك بالعودة مرة أخرى الى نور بوري ، وفحص نوافذ الكوخ مرة ثانية . واذا اعتقدت اعتقادا قويا بأن الكوخ مسكون ، فلا تدخله عنوة ، وانما ارسل برقية الى صديقي ، أو الي نلحق

بك بعد ساعة من استلام البرقية ، وعندئذ نصل الى قاع الحقيقة . »
قال رفيقى بعد أن أوصل المستر جرانت مونرو الى البـاب ، وعاد : « أخشي أن يكون هذا عملا فظيعا يا واطسون . ما رأيك فيه ؟ »

فأجبته بقولي : « يبدو انه موضوع شائك . »

« نعم انه لكذلك ، ويكتفه ابتزاز بالتهديد والا كنت مخطئا . »

« ومن ذلك المبتز ؟ »

« لابد انه ذلك المخلوق الذي يعيش فى الحجرة الانيقة الواحدة بذلك الكوخ ، ولديه صورتها فوق رف الوطيس . أقسم بشرفى ، يا واطسون ، على أن ذلك الموضوع يتضمن شيئا جذابا جدا عن ذلك الوجه الشاحب الذى يقف فى النافذة ، وأنا لا اترك هـذه القضية حتى ولو اعطيت متاع الدنيا كلها . »

« هل كونت نظرية ؟ »

« نعم ، كونت نظرية مؤقتة ، فان ثبت عدم صحتها ، كان هذا مفاجأة لى . الزوج السابق لهذه السـيدة موجود فى ذلك الكوخ . »

ماذا يدعوك الى هذا الظن ؟ »

« بأى شيء اخر يمكننا تفسير قلقها الشديد ومنعها زوجهـا الثانى دخول الكوخ ؟ فالوقائع كما اقرؤها شيء على هذا النحو : تزوجت هذه المرأة فى أمريكا ومارس زوجها بعض الصفات المقيتة ، أو دعنا نقول انه أصيب بمرض خبيث كالجذام أو الجنون ، فهربت منه أخيرا وعادت الى انجلترا وغيرت اسمها وبدأت حياتها من جديد كما حلا لها . ظلت متزوجة ثلاث سنوات ، وخيل اليها ان مركزها آمن جدا بعد أن أطلعت زوجها على شهادة وفاة رجل انتحلت اسمه . ولما اكتشف زوجها الاول مقرها أخيرا ، أو بواسطة امرأة معدومة المبدأ والضمير ربطت نفسها بذلك المريض . فكتبا الى تلك الزوجة وهدداها بالحضور وكشف أمرها . فطلبت مائة جنيـــه لشراء سكوتهما . ورغم هذا حضرا وأقاما امام بيتها . وحينما ذكر الزوج لزوجته ، بطريقة عابرة ، أن هناك سكانا جددا فى الكوخ ، عرفت بطريقة ما أنهما يطاردانها . فانتظرت حتى نام زوجهـا ، فذهبت اليهما لتحثهما على ان يتركاها وشأنها . واذ لم تنجح فى تلك الليلة ، ذهبت اليهما مرة أخرى فى صباح اليوم التالى . فالتقى بها زوجهـا وهى خارجة من الكوخ ، كما أخبرنا . عندئذ وعدته بألا تذهب الى هناك ثانية . ولكنها ، بعد يومين ، كانت تأمل فى التخلص من هذين

الجارين المفزعين واللذين كانا قويين عليها . فقامت بمحاولة أخرى آخذة معها صورتها آلتي ربما كانا قد طلباها منها . وفى منتصف هذه المقابلة ، هرعت الخادمة لتنبئهم بأن سيدها عاد الى البيت . فعرفت الزوجة أنه سيأتى الى الكوخ مباشرة ، فجعلت سكان الكوخ يخرجون من الباب الخلفي الى دغل أشجار الصفصاف الاسكتلندى ، الذى قال انه قريب من الكوخ . وبهذه الطريقة وجد الكوخ مهجورا . وانى لأفاجأ أكثر ، ان كان الكوخ لايزال مهجورا . ومع ذلك ، فاذا كان لايزال كذلك عندما يقترب منه فى هذا المساء ، فماذا ترى فى نظريتي ؟ »

« انها محض تخمين . »

« ولكنها ، على الاقل ، تضم جميع الوقائع . فاذا ما جاءت الى علمنا وقائع اخرى ، لم تتناولها هذه النظرية ، فسيكون ذلك الوقت هو ما نناقشها فيه . والان لا يمكننا عمل شيء الا اذا جاءتنا رسالة جديدة من صديقنا ، من نور بورى . »

ولكننا لم ننتظر طويلا ، فقد جاءت الرسالة بمجرد أن انتهينا من تناول الشاى ، تقول : « الكوخ مازال مسكونا . ورأيت الوجـه مرة اخرى فى النافذة سأقابلكما على قطار الساعة السابعة ، ولن اتخذ اية خطوات الا بعد وصولكما . »

كان بانتظارنا على رصيف المحطة عند نزولنا من القطـار ، وكان بوسعنا أن نراه فى أضواء المحطة شاحب اللون جدا ، ينتفض من شدة الهياج .

وضع يده على كم صديقى ، وقال : « لا يزالون هناك ، يامستر هولمز . شاهدت انوارا فى الكوخ وأنا ذاهب الى هناك . سنسوى الموضوع الان والى الابد . »

فسأله هولمز ونحن نسير فى الطريق المظلم الذى تحده الاشجار : « اذن ، فما هى خطتك ؟ »

« سادخل الكوخ عنوة وارى بنفسى من فيه . اريد منكمـا أن تكونا هناك ، كلاكما ، شاهدين . »

« هل لاتزال مصمما على حل هذا اللغز ، رغم تحذير زوجتك بأنه من الخير لك الا تحاول أن تحله ؟ »

« نعم ، أنا مصمم . »

« أعتقد انك فى الطريق الصحيح ، فأية حقيقة ، مهما تكن ، خير من الشك المستمر . من الافضل أن نذهب فى الحال طبعا . اننـا

نضع أنفسنا فى طريق الخطأ ، من الناحية القانونية . ولكنى أعتقد أن المسألة تستحق المخاطرة . »

كانت ليلة حالكة الظلام ، وبدأ المطر ينزل خفيفا ونحن نترك الطريق الى الحارة الكثيفة الشجيرات على كلا الجانبين . وكان المستر جرانت مونرو يسير حثيثا الى الامام ، ونحن فى عقبيه قدر طاقتنا .

تمتم المستر مونرو ، وهو يشير الى الوميض الظاهر من خلال الاشجار ، وقال : « هاهى أنوار بيتى . وها هو الكوخ الذى سأقتحمه . »

استدرنا حول احد أركان الحارة وهو يتكلم وكان المبنى بجوارنا . وجدنا هناك قضيبا أصفر ساقطا بعرض الفناء الاسود . وهذا يدل على أن الطابق ليس مقفلا تماما . وكان هناك شباك فى الطابق العلوى مضاء اضاءة باهرة . وحينما نظرنا اليه ، رأيناه جسما داكنا ، غير واضح ، يتحرك وراء الشيش .

فصاح جرانت مونرو يقول : « هذا هو المخلوق اياه ، يمكنكما أن تريا بأنفسكما أن هناك شخصا . والان ، اتبعانى ، وسرعان ما سنعرف كل شيء . »

تقدمنا نحو الباب ، فاذا بامرأة تبرز من وسط الظلام وتقف فى المسار الذهبى لضوء المصباح . لم استطع رؤية وجهها فى الظلام ، ولكن ذراعيها امتدتا الى الخارج فى صورة توسل .

صاحت تقول : « لا تفعل ، ياجاك . اكراما لخاطر الله ! كان عندى احساس سابق بأنك ستأتى هذا المساء .. ليكن تفكيرك فى الامر خيرا من هذا ، ياعزيزى ! ثق بى ثانية ، ولن تندم على ذلك . »

فصاح جرانت فى عنف : « وثقت بك ، وصدقتك مدة طويلة ، يا افى ! اتركينى . لابد أن أصعد السلم وأسوى الامر انا وصديقاى ، الى النهاية .. » قال هذا ودفعها جانبا ، فتبعناه مباشرة . وعندما فتح الباب جرت امرأة مسنة الى الخارج ، وحاولت أن تسد الطريق أمامه ، ولكنه دفعها جانبا . وبعد لحظة ، كنا جميعا على السلم ، واندفع جرانت مونرو الى داخل الحجرة المضاءة بالطابق العلوى ، ودخلنا فى أعقابه مباشرة .

كانت شقة مريحة فخمة الاثاث . وعلى المائدة شمعتان مضاءتان ، وعلى رف الوطيس شمعتان أخريان . وفى ركن من الحجرة تجلس فتاة صغيرة أمام قمطر . فلما دخلنا ادارت وجهها بعيدا عنا ، ولكننا

استطعنا أن نراها مرتدية فستانا أحمر اللون وقفازا طويلا أبيض . وحينما استدارت نحونا ، أطلقت صيحة المفاجأة والفزع . كان الوجه الذى أدارته نحونا من أغرب الالوان القاتمة ، وملامحها خالية تماما من أى تعبير . وبعد لحظة ، اتضح اللغز الغامض . مر هولمز بيده وهو يضحك ، خلف اذن الطفلة ، فنزع عن وجهها قناعا ، فبانت فتاة زنجية سوداء بلون الفحم ، تتألق جميع أسنانها البيضاء أمام وجوهنا المذهولة ، وهى مسرورة مغتبطة . فانفجرت ضاحكا ، أما جرانت مونرو فوقف يحملق فيها ويده عند رقبته .

صاح مونرو يقول : « رباه ! ماعسى أن يكون معنى هذا ؟ »

صاحت السيدة وهى تدخل الحجرة مرفوعة الراس وقالت : « سأخبرك بمعنى هذا بعد أن أجبرتنى ، رغما منى على أن اخبرك . والان ، على كلينا أن نتصرف التصرف الصحيح . مات زوجى الاول فى أتلانتا وعاشت ابنتى . »

« ابنتك ؟ »

قالت هذا واخرجت علبة فضية من صدرها ثم أردفت تقول : « لم تر هذه العلبة مفتوحة قط . »

ظننتها لا تفتح . »

ضغطت الزوجة على زنبرك فانفتح الغطاء ذو المفصلات . كان بداخلها صورة نصفية لرجل بادى الاناقة والذكاء ، يحمل فى محياه أمارات أصله الافريقى الواضح .

قالت السيدة : « هذا جون هبرون ، أحد أهالى أتلانتا . لم يمش على الارض رجل انبل منه . انفصلت عن جنسى لاتزوجه ، ولكنى طوال حياتى معه ، لم أندم مرة واحدة على زواجى به . وكان من سوء حظنا أن ابنتنا الوحيدة جاءت بلون قومه وليس بلون جنسى ، ولا بين بين . غالبا ما يحدث هذا فى أمثال هذه الزيجات . جاءت لوسى الصغيرة أشد سوادا من والدها . ولكن مهمـا تكن سوداء أو بيضاء ، فهى ابنتى الصغيرة العزيزة ، حبيبة امها وقرة عينها .. » عندما سمعت هذه المخلوقة الصغيرة كلمات أمها ، جرت واختبأت وراء ثوب والدتها .

استطردت السيدة تقول : « عندما تركتها فى أمريكا ، لم يكن هذا الا لان صحتها كانت ضعيفة جدا ، وربما ضرها تغير الجو . فعهدت بها الى سيدة اسكتلندية وفية ، كانت خادمتها فيما مضى .

ولم احلم مرة واحدة بأن انكر امومتى لها . ولكن عندما رماك الحظ فى طريقى ، ياجاك ، وتعلمت أن احبك ، خفت أن أخبرك بابنتى ، وانى لأستغفر الله عن ذلك ، ولم تأتنى الشجاعة لان أخبرك . كان لابد لى أن أختار بينكما . وفى ضعفى الذى لا مبرر له ، ابتعدت عن ابنتى الصغيرة واحتفظت بوجودها سرا عنك لمدة ثلاث سنوات . وكنت أسمع من مربيتها أنها على أحسن حال ، فأطمئن . واخيرا استبدت بى رغبة جامحة فى أن أرى الطفلة مرة أخرى . حاولت أن اتخلى عن هذه الرغبة الملحة ولكن دون جدوى . ورغم ادراكى للخطر، اعتزمت رؤيتها ، ولو لبضعة أسابيع . فأرسلت مائة جنيـــــه للمربية ، وزودتها بالتعليمات عن الكوخ كى تقيما فيه كجارتين ، دون أن ابدو على أية علاقة بهما . وتماديت فى احتياطاتى بأن أمرتها بالاحتفاظ بالطفلة فى البيت أثناء النهار ، وبأن تغطى وجهها ويديها كيلا يتحدث من يراها عن وجود طفلة سوداء البشرة فى هذه المنطقة . ولو كنت أقل احتياطا لصرت أكثر عقلا ، ولما حـــدث شيء من كل هذا . ولكنى كنت نصف مجنونة خشية أن تعرف الحقيقة .

« أنت الذى أخبرتنى أولا بأن الكوخ سكن . كان لابد أن أنتظر حتى الصباح ، ولكنى لم استطع النوم من شدة الانفعال ، وأنت تعرف قلب الام . وهكذا تسللت أخيرا الى الخارج ، وأنا أعرف صعوبة ايقاظك . ولكنك رأيتنى اذهب ، فكان هذا أول متاعبى التى جررتها على نفسى وعليك بسوء تصرفى . وفى اليوم التالى غدا سرى تحت رحمتك ، ولكنك احجمت بنبل عن السير وراء غضبك . وبعد ذلك بثلاثة أيام ، هربت المربية والطفلة من الباب الخلفى عنـــدما اقتحمت الباب الامامى . والآن ، وفى هذه الليلة ، عرفت كل شيء أخيرا . وأرجوك أن تخبرنى ماذا سيئول اليه أمرنا ، أنا والطفلة ؟ »

قالت هذا ، واشتبكت يداهما معا ، تنتظر الرد .

مرت دقيقتان طويلتان حتى تكلم جرانت مونرو . وعندما جاء رده ، كان ردا يلذ لى أن أتذكره . رفع الطفلة الصـــغيرة وقبلها وحملها ، ثم مد يده الاخرى الى زوجته وهو مازال يحمـــل الطفلة واستدار نحو الباب .

قال : « يمكننا أن نتحدث فى هذا الامر براحة أكثر ، فى البيت. لست رجلا طيبا جدا ، يا ايفى ، ولكنى أعتقد أننى أحسن ممـــا جعلتينى طيبا . »

تبعتهما انا وهولمز خلال الحارة . وأمسك صديقى كمى ونحن خارجان ، وقال : « اظننا سنكون أكثر فائدة فى لندن منـــــا فى نور بورى . »

لم نتكلم بأى لفظ آخر عن هذه القضية الا فى وقت متأخر من تلك الليلة عندما ذهب هولمز الى حجرة نومه يحمل شمعته الصغيرة . قال : « يا واطسون ، اذا طرأ على بالك ، فى أى وقت ، أننى واثق من قواى ، أو اننى ابذل جهدا فى قضية ما ، أقل ممـــا تستحق ، فأرجوك أن تهمس فى أذنى بكلمة « نور بورى » ، عندئذ أكون شاكرا لك الى الابد . »

كاتب سمسار الأوراق المالية

بعد ان تزوجت بوقت قصير ، اشتريت عيادة طبية بمنطقة بادنجتون . كان المستر فاركوهار العجوز ، الذى اشتريتها منه ، يحظى بعمل طيب فى تلك العيادة بيد أن شيخوخته واصابته بمرض الكوريا « مرض عصبى يرجع الى اضطراب عقلى » عملتا كثيرا على تخفيف العمل . وان الجمهور ليعتقد ، بطبيعته ، ان الطبيب الذى يشفى غيره لابد أن يكون هو نفسه فى صحة جيدة ، كما ينفر من الطبيب الذى يكون مرضه فوق ما تستطيع عقاقيره ان تشفيه . وهكذا عند ضعف سابقى هذا ، اضمحل عمله الى ان اشتريت العيادة منه . وكان دخله قد هبط من الف ومائتى جنيه فى العام ، الى أكثر قليلا من ثلثمائة جنيه فحسب . ومع ذلك ، فقد كنت أثق فى شبابى ونشاطى كما كنت مقتنعا بأن العيادة ، بعد بضع سنوات ، سوف تزدهر كما كانت .

ظللت عاكفا على عملى ، لمدة ثلاثة اشهر بعد حصولى على هذه العيادة ، ولم أر صديقى شرلوك هولمز الا لماما اذ كنت مشغولا جدا ، فلم أستطع الذهاب الى شارع بيكر ، وأنه هو نفسه لم يذهب الى اى مكان الا لعمل تتطلبه مهنته . لذا ، أدهشنى ، فى صباح أحد أيام شهر يونية ، وأنا جالس أقرأ « الصحيفة الطبية البريطانية » بعد أن تناولت طعام الافطار ، أدهشنى أن أسمع جرس الباب يدق ، يعقبه دخول صديقى ، وهو يقول بصوت مرتفع :

« أهلا ، يا عزيزى واطسون . يسرنى جدا ان أراك . أرجو أن تكون مسز واطسون قد أفاقت تماما من انفعالها بخصوص مغامرتنا فى قضية « علامة الاربعة . »

قلت وأنا اصافحه بحرارة : « شكرا ، نحن كلينا ، بخير وعلى أحسن ما يرام . »

فجلس على الكرسى الهزاز ، وقال : « آمل كذلك فى ان تكون مشاغل عملك الطبى ، لم تمح تماما متعتك السابقة فى مشكلاتنا

الاستقرائية الصغيرة . »
أكدت له بقاء متعتى كما هى ، بقولى : « على العكس . ففى الليلة الماضية فقط ، كنت أتصفح مذكراتى القديمة ، وارتب بعض استنتاجاتنا الماضية . »
« أرجو ألا تكون مجموعتك قد أقفلت . »
« أبدا ، لا ارغب فى شىء أفضل من الحصول على مزيد من هذه الممارسات . »
« أتريدها اليوم ، مثلا ؟ »
« نعم ، اليوم ان أردت . »
« وتسافر حتى برمنجهام ؟ »
« ياليتها تكون كذلك ! »
« ومهنتك ؟ »
« انني أقوم بأعمال جارى أثنـاء غيابه ، وهو على استعداد دائما لسداد الدين . »
أسند هولمز ظهره الى الخلف فى مقعده ، وقال وهو ينظر الى من تحت أجفانه نصف المقفلة :
« اذا ، فلا شىء خيرا من هذا . ارى أن وعكة أصابتك حديثا ، وان نوبات برد الصيف مزعجة بعض الشىء . »
« لزمت دارى من جراء قشعريرة شديدة ، لمدة ثلاثة ايام فى الاسبوع الماضى ، وأظنني شفيت من كل أثر لها . »
« أنت كذلك . تبدو قويا بصورة ملحوظة . »
« وكيف عرفت هذا ؟ »
« انك تعرف طرقى ، يا زميلى العزيز . »
« فهل استنتجت ذلك ؟ »
« بالتأكيد . »
« ومن أى شىء ؟ »
« من أخفافك . »
« فنظرت الى أسفل نحو أخفافى المصنوعة من الجلد المتين ، والتى البسها فى قدمى ، وكنت على وشك أن أقول : « كيف ؟ وبأى شىء على الارض ؟ » ولكن هولمز كفانى مئونة هذا السؤال بأن أجاب قبل أن أسأله .
قال : « أخفافك جديدة . لم تكن عنـدك لأكثر من بضـعة أسابيع . فان نعالها ، التى توجهها نحوى محترقة قليلا . ظللت

لحظة أفكر فى أنها ربما كانت مبتلة قليلا ، واحترقت عندما أردت تجفيفها . ولكن بداخل الخف بطاقة ورقيــة مستديرة عليها اسم المتجر . وبالطبع قد تكون الرطوبة ازالت هذه البطاقة . اذن ، فلابد انك كنت جالسا ورجلاك ممتدتان نحو النار ، الامر الذى لا يفعله اى انسان فى شهر يونية المطير ، الا اذا كان معتل الصحة . »

وكما هى طريقة هولمز فى تدليله ، كان هذا فى منتهى البساطة عند شرحه . قرأ الفكرة فى ملامحى ، وابتسم ابتسامة تشوبها المرارة .

فقال : « اخشى اننى اكشف عن طرقى عندما أفسر أدلتى . فالنتائج من غير ذكر الاسباب ، أكثر تأثيرا .. اذن ، فهل انت على استعداد للمجىء معى الى برمنجهام ؟ »

« بالطبع . ما هى القضية ؟ »

« بعد لحظة . » كتبت مذكرة لجارى ، واسرعت صاعدا الى الطابق العلوى لأشرح الموضوع لزوجتى ، ثم لحقت بهولمز عند عتبة الباب .

اشار هولمز الى لافتة نحاسية ، وقال : « هل جارك طبيب ؟ »

« نعم ، اشترى عيادة مثلما فعلت أنا . »

« أهى عيادة قديمة ؟ »

« نعم ، مثل عيادتى تماما . كلتاهما منذ بناء هذا البيت . »

« اذا ، أخذت أنت افضل العيادتين . »

« اظننى فعلت ذلك . وكيف عرفت ؟ »

« عرفت ذلك من السلم ، يا غلامى . فان سلمك متآكل بمقدار ثلاث بوصات أعمق من سلمه . ولكن الرجل الموجود بالعربة هو زبونى المستر هول بايكروفت . اسمح لى بأن أقدمك له . سط خيولك ، أيها الحوذى ، فلا يكاد يكون لدينا وقت لنلحق القطار . »

الرجل الذى واجهته قوى البنية ابيض البشرة ، صغير السن ، ذو وجه صريح أمين ، وشارب صغير أصفر اللون ، يضع على رأسه قبعة عالية لامعة جدا ويرتدى حلة انيقة سوداء جعلته يبدو على حقيقته ـ شابا حضريا ـ أنيقا من الطبقة اللندنية المعروفة باسم « كوكنى » ، ممن يتطوعون فى شتى فـرق الجيش ومعظمهم من الرياضيين ولا سيما المصارعين ، اكثر من أى اناس آخرين فى هذه الجزر . اما وجهه الاحمر المستدير فمملوء مرحا ولو أن زاويتى فمه منحرفتان الى أسفل قليلا دليلا على بعض الحزن . لم اعرف المشكلة

التى الجاته الى شرلوك هولمز الا بعد أن صرنا جميعا داخل عربة الدرجة الاولى ، وبدأ القطار سيره الى برمنجهام .

قال هولمز : « لدينا سبعون دقيقة كاملة نقضيها فى القطار ، واريدك ، يا مستر بايكروفت ، أن تخبر صديقى الدكتور واطسون بمشكلتك المتعة مثلما اخبرتنى بها تماما ، او بمزيد من التفصيل أن أمكن ، فذلك يفيدنى فى تتبع تعاقب الاحداث مرة ثانية . انها يا واطسون قضية تنطوى على شىء ، أو قد لا تتضمن أى شىء . ولكنها ، على الاقل ، تمثل تلك المظاهر غير العادية العزيزة عليك وعلى . والان ، لن اقاطعك مرة أخرى ، يا مستر بايكروفت . »

نظر الى رفيقنا الشاب ، وقد تألقت عيناه .

قال : « أسوأ ما فى هذه القصة ، اننى اظهرت نفسى غبيا مخدوعا . وبالطبع قد تبدو عادية ، وما كان بوسعى أن افعل غير ذلك . ولكنى اذا فقدت وظيفتى ولم احصل على شىء بدلا منها ، فسأشعر بأننى كنت « مغفلا » كبيرا .. اننى لا أجيد الرواية يا دكتور واطسون ، ولكن هكذا حدث معى :

« كنت اعمل فى مؤسسة كوكسون وودهاوس فى درابرز جاردنز ولكنهم شهروا افلاسهم بسبب القرض الفنزويلى ، كما تتذكر ، بغير شك ، وجاءت مكانها مؤسسة أخرى بغيضة . كنت أعمل معهم لمدة خمس سنوات ، واعطانى العجوز كوكسون شهادة طبية حينما الت بهم المحنة . أما نحن الكتبة ، فطردنا من العمل ، وكنا سبعة وعشرين كاتبا . وحاولت البحث عن عمل هنا وهناك ولكن دون جدوى ، اذ كان هناك الكثير جدا من الشبان المتعطلين مثلى . وهكذا ظللت بدون عمل لمدة طويلة .. كنت اتقاضى لدى كوكسون ثلاثة جنيهات فى الاسبوع ، وفرت منها حوالى سبعين جنيها . ولكنى انفقتها كلها وانا بدون عمل وما زلت اطلب عملا عند هذا واغادر مكان ذاك صفر اليدين حتى صرت أخيرا « على الحديدة » . وقلما كنت أجد ثمن طابع البريد أو ثمن المظروف الذى الصقه عليه لأرد على اعلان بطلب وظيفة . وفضلا عن هذا ، ابليت حذائى بكثرة صعود سلالم المكاتب وهبوطها وبدا اننى لن أجد عملا قط .

« واخيرا عثرت على وظيفة خالية لدى مؤسسة موسون وويليامز للأوراق المالية الكبرى بشارع لومبارد . وانى لأتجاسر على القول بأن الاوراق المالية ليست من اختصاصى ، ولكنى استطيع القول

بان هذه المؤسسة من أغنى المؤسسات الموجودة فى لندن كلها . ولما كان الرد على هذا الاعلان بالخطابات فقط ، ارسلت لهم صورا من مؤهلاتي وطلب العمل ، دون أن يكون عندى أقل أمل فى نيل تلك الوظيفة . ولكن الرد جاء برجوع البريد يطلب ذهابى الى هناك صباح يوم الاثنين التالى لأتسلم عملى الجديد فى الحال ، على شرط أن يكون مظهرى مقبولا .. لا أحد يعرف كيف يتم اختيار الموظفين . يقول بعض الناس : ان المدير يضرب يده فى كومة الطلبات التى أمامه ويسحب منها اول طلب يقع فى يده ، كيفما اتفق . وعلى أية حال ، كان طلبى هو الذى وقع فى يده فى تلك المرة . فشعرت بفرح ما بعده فرح . كان المرتب يزيد جنيها واحدا فى الاسبوع على مرتبى عند كوكسون ، بينما العمل هو نفسه تقريبا .

« والآن أتناول الجزء الغريب فى هذا الموضوع سرت فى طريق هامستيد ، والعنوان — ١٧ صالة بوتر .. كنت جالسا أدخن فى ذلك المساء نفسه بعد أن وعدت بالوظيفة ، فاذا بمديرة البيت تأتينى ببطاقة مطبوع عليها : « آرثر بينر ، وكيل مالى . » لم اسمع عن ذلك الاسم من قبل ، ولم يكن بمقدورى أن أتصور ماذا يريد منى هذا الرجل ، فطلبت منها ادخاله ، فدخل — كان رجلا متوسط الحجم ، أسود الشعر والعينين واللحية ، مدبب الانف قليلا يتكلم بحدة وجدية وباختصار ، كرجل يعرف قيمة الوقت .

قال : « أنت المستر بايكروفت على ما أعتقد ؟ »

قلت : « نعم ، يا سيدى . » ووضعت كرسيا بينى وبينه .

« هل كنت تعمل أخيرا بمؤسسة كركسون وودهاردى ؟ »

« نعم ، يا سيدى . »

« والآن ، أنت ضمن موظفى مؤسسة موسون ؟ »

« بالضبط . »

قال : « حسنا ! الحقيقة أننى سمعت أخيرا قصصا خارقة ، عن كفاءتك المالية . أتتذكر باركر ؟ الذى كان مدير مؤسسة كوكسون؟ لم يستطع أن يقول ما يوفيك حقك . »

« وبالطبع ، سرنى سماع هذا المديح . كنت ماهرا دائما فى أعمال المكتب . ولكنى لم أحلم قط بأن يتكلم عنى أحد فى المدينة على ذلك النحو . »

قال : « أذاكرتك حافظة ؟ »

قلت بتواضع : « متوسطة . »

« هل اتصلت بأمور السوق وانت بغير عمل ؟ »
« نعم ، كنت اقرأ قائمة بورصة الاوراق المالية فى كل صباح . »
فصاح يقول : « اذن ، فهذا يوضح عملا حقيقيا ، هذا هو الطريق الى الازدهار ! هل تمانع فى أن اختبرك ؟ ماذا عن أسهم شركة اير شاير ؟ قلت : « مائة وخمسين الى مائة وخمسة وربع . »
« وشركة نيوزيلاند المتحدة ؟ »
« مائة وأربعة . »
« وبروكين هيلز البريطانية ؟ »
« سبعة الى سبعة وستة . »
فصاح رافعا يديه ، وقال : « رائع . هذا يتفق مع كل ما سمعته ، يا بنى ! يا بنى ، انت اكثر من ان تعمل كاتبا فى مؤسسة موسون ! »
« ادهشنى قوله هذا ، كما يمكنك ان تتصور . فقلت : ليس راى الآخرين فى كبيرا مثل رايك يا مستر بينر . ناضلت كثيرا للحصول على تلك الوظيفة ، وسرنى جدا اننى حصلت عليها . »
« ويحك ، يا رجل ! يجب أن تحلق فى جو أعلى من ذلك . لست فى مركزك الحقيقى . والآن ، سأخبرك بمركزك عندى . ليس ما سأعرضه عليك كافيا اذا قيس بمقدرتك ، ولكنه اذا قيس بمرتب موسون ، فهو النور بالنسبة الى الظلام . ولننظر فى الامر ! متى ستذهب الى مؤسسة موسون ؟ »
« يوم الاثنين . »
« ها ، ها ! اعتقد اننى اخاطر بالقول بأنك لن تذهب الى هناك اطلاقا . »
« لا أذهب الى مؤسسة موسون ؟ »
« طبعا ، لن تذهب اليها ، يا سيدى . فى ذلك اليوم ستكون مدير اعمال شركة فرانكو ــ ميدلاند ليمتد ، للأدوات المنزلية ، ذات المائة والاربعة والثلاثين فرعا فى المدن والقرى الفرنسية ، غير فرع فى بروكسل وآخر فى سان ريمو . »
قلت : « هذا يبهر انفاسى . لم اسمع عن هذه الشركة اطلاقا . »
« طبعا ، لم تسمع عنها ، لانها تأسست فى هدوء وجمع رأس المال من اناس معينين . ومن الخير ان نجعل الجمهور يشترك فيها . من مؤسسيها اخى هارى بينر ، الذى اختاره مجلس الادارة مديرا عاما لهذه الشركة .. لما عرف اننى ساجىء الى هنا ، لقضاء فترة

للسباحة ، طلب منى أن ابحث عن رجل قدير ، باجر بسيط ــ شاب طموح بالغ الكفاءة . فحدثنى عنك باركر . وهذا هو ما جاء بى الى هنا فى هذه الليلة . ليس فى مكنتنا الا أن نعرض عليك مبلغا بسيطا ، خمسمائة جنيه فى السنة ، فى البداية ـــــ »

صحت اقول : « خمسمائة فى العام ؟ »

« هذا فى البداية فقط ، كما لك عمولة واحد فى المائة على كل الاعمال التي يقوم بها وكلاؤك . ويمكنك ان تعتمد على كلامى ، بأن هذه العمولة ستصل الى اكثر من مرتبك . »

« ولكنى لا أعلم شيئا عن الادوات المنزلية . »

« صه ، يا بنى ! أنت تعلم عن الارقام . »

« اضطرب رأسى ، وقلما استطعت الجلوس على مقعدى . غير ان موجة حادة من الشك انتابتني فجأة ، فقلت :

« يجب ان أكون صريحا معك ، يا سيدى . فرغم ان موسون يعطينى مائتى جنيه فقط ، فانه مضمون . والحقيقة اننى لا أعرف شيئا عن شركتك التى ـــــ »

صاح فى شيء من البهجة : « رائع ، رائع ! هذا هو نوع الرجل الذى نريده بالذات ! لست بالرجل الذى يغتر بمعسول الالفاظ ، وانك لعلى حق . هاك ورقة مالية بمائة جنيه . فاذا رأيت اننا من الممكن ان نعمل معا ، فضعها فى جيبك كمقدم لمرتبك . »

قلت : « هذا جميل . متى اتسلم عملى الجديد ؟ »

قال : « تكون فى الساعة الواحدة من مساء غد فى برمنجهام . وفى جيبى خطاب ستأخذه الى أخى . ستجده فى رقم ١٢٦ ب شارع كوربوريشن حيث توجد المكاتب الجديدة لشركتنا . وبالطبع ، لابد ان يعتمد أخى عقد العمل بيننا . »

قلت : « الحقيقة اننى لا اعرف كيف اعبر لك عن شكرى ، يا مستر بينر . »

« هذا لا شيء ، يا بنى . لم تحصل الا على ما تستحقه . وهناك شيء صغير أو شيئان ــ مجرد رسميات ــ يجب أن اسويهما معك . بجانبك هناك قطعة من الورق . ارجو أن تكتب فيها بعناية : « ارغب تماما فى أن أعمل فى منصب « مدير أعمال » لشركة فرانكو ــ ميلاند ليمتد للأدوات المنزلية ، بمرتب ابتدائى قدره خمسمائة جنيه فى العام . »

« ولما انتهيت من كتابة ما أملاه على ، اخذ الورقة ووضعها فى جيبه . »

قال : « هناك موضوع واحد . ماذا تنوى أن تفعل مع مؤسسة موسون ؟ »
« نسيت ، فى غمرة فرحى ، كل شىء عن موسون
فقلت : « سأكتب لهم استقالة . »
« هذا ، بالضبط ، هو ما لا أريدك أن تفعله . تحدثت بخصوصك مدة طويلة مع مدير مؤسسة موسون ، وسألته عنك ، فكان رده مهينا — اتهمنى بأننى اغريتك على ترك خدمة مؤسسته ، ثم ارغى وأزبد وثار . وأخيرا ، فقدت صوابى وخرجت عن طورى ، فقلت له : « اذا أردت رجالا اكفاء فى عملك ، فلابد أن تدفع لهم اجورا مجزية . » فقال : « الافضل لبايكروفت أن يقبل بأجرنا القليل من أن يأخذ اجرك الكبير . » فقلت له : « أراهنك على ورقة بخمسة جنيهات ، على أنه اذا عرف بايكروفت عرضى ، فلن تراه بعد ذلك . » قال : « انتهينا ! نحن انتشلناه من البالوعة فلن يتركنا بمثل هذه السهولة . » هذا نص كلماته .
فصحت أقول : « يا له من نذل وقح ! لم أره قبل ذلك فى حياتى . فلماذا أعمل له اعتبارا ، بحال ما ؟ وبالتأكيد لن اكتب اليه اذا كنت تفضل الا أكتب اليه . »
قال وهو ينهض من فوق الكرسى : « حسنا ! هذا وعد ! كم أنا مسرور أن أحصل لأخى على رجل بارع قدير مثلك . هاك المائة جنيه مقدم المرتب ، وهاك الخطاب . خذ مذكرة بالعنوان :
١٢٦ ب شارع كوربوريشن . وتذكر أن موعدك هو الساعة الواحدة من مساء غد .. عم مساء ، وعسى أن تنال كل ما تستحقه من ثروة ! »
« هذا ، تقريبا ، هو كل ما دار بيننا بالضبط بحسب ما يمكننى ان اتذكر . ويمكنك أن تتصور ، يا دكتور واطسون ، كم غمرنى الفرح بوقوعى على مثل هذا الحظ السعيد . بقيت ، نصف الليلة ، جالسا أفكر فى ذلك الامر . وفى اليوم التالى ، ركبت القطار الى برمنجهام ، الذى يوصلنى قبل الميعاد بمدة طويلة . فلما وصلت الى هناك أخذت امتعتى الى فندق فى نيو ستريت ثم ذهبت الى العنوان الذى اعطيته . »
« وصلت الى ذلك العنوان قبل موعدى بربع ساعة ، ولكنى ظننت هذا أمرا غير ذى بال ، كان رقم ١٢٦ ب ممرا بين متجرين يؤدى الى سلم حجرى لولبى يوصل الى عدة شقق مؤجرة كمكاتب ،

الى بعض الشركات وأرباب المهن الحرة . وكتبت أسماء شاغلى تلك الشقق على الحائط السفلى ، ولكن لم يكن هناك اسم شركة فرانكو ـ ميلاند ليمتد للأدوات المنزلية . وقفت هناك بضع دقائق وهى ثبطت همتى وأخذ الحزن يتطرق الى قلبى وبدأت أفكر فيما اذا كان الموضوع مجرد نصب متقن . وبينما أنا أفكر فى ذلك ، اقبل رجل وخاطبنى باسمي . انه يشبه الشاب الذى زارنى فى الليلة الماضية ، تمام الشبه : نفس الشكل ونفس الصوت ولكنه كان حليق الذقن وشعره ازهى من شعر ذاك .

سألنى بقوله : « هل انت المستر هول بايكروفت ؟ »

قلت : « نعم . »

« أنا بانتظارك ، ولكنك جئت قبل الموعد بوقت قليل .. وصلنى خطاب من أخي ، فى هذا الصباح يثنى فيه على مواهبك ثناء عاطرا . »

« كنت أبحث عن المكتب ، فاذا بك اقبلت . »

« لم يكتب اسمنا هنا لأننا لم نستأجر هذا المبنى الا فى الاسبوع الماضى فقط . هيا ، يا صديقى ، سنتحدث فى الموضوع من شتى نواحيه . »

« فتتبعته الى قمة السلم البالغ الارتفاع . كانت مكاتب هذه الشركة عبارة عن حجرتين خاويتين ومغبرتين ، ليس فيهما أبسطة ولا ستائر ؟ فقادنى اليهما . كنت اتصور مكاتب هذه الموظفين ، ضخمة وبها مناضد لامعة وصفوف من الموظفين ، كالتي تعودتها من قبل . فنظرت الى الكرسيين الخشبيين والنضد الواحد الصغير الذى وضع فوقه دفتر كبير ، وعلى الارض بجانب المكتب سلة للمهملات .. هذه هى كل أثاث المكتب .

« لما أبصر صديقى الجديد أمارات الاكتئاب بادية على وجهى ، قال : « لا تكتئب يا مستر بايكروفت . لم تبن روما فى يوم واحد . لدينا مبالغ كثيرة من الأموال ، ولم تعتمد بعد مبالغ كبيرة لتأثيث المكاتب . أرجوك أن تجلس وتعطينى خطابك . »

« أعطيته الخطاب ، فقرأه كله بامعان . »

« يبدو أنك أحدثت انطباعا عميقا فى نفس أخى آرثر ، واعرف أنه سديد الحكم فى مثل هذه الامور . انه يقسم بلندن ، كما أقسم أنا ببرمنجهام ، ولكنى سأتبع نصحه فى هذه المرة . أرجو أن تعتبر نفسك مقبولا نهائيا . »

فقلت : « وما هى واجباتى ؟ »

« ستدير المكتب الكبير فى باريس ، الذى سيتدفق منه سيل ضخم من الادوات الخزفية الانجليزية الى حوانيت مائة واربعة وثلاثين وكيلا فى فرنسا . سيتم الشراء فى أسبوع . وفى هذه الاثناء ، ستبقى فى برمنجهام لننتفع بك هنا . »

« كيف ؟ »

وردا على سؤالى ، اخرج كتابا ضخما أحمر اللون من درج ، وقال : « هاك دليل باريس وبه الصناعات والمهن بعد أسماء الاشخاص. اريدك ان تأخذه معك الى منزلك وتكتب قوائم بجميع بائعى الادوات المنزلية وعناوينهم . سأجد منفعة كبرى فيهم . »

قلت : « من المؤكد أن هناك قوائم مبوبة . »

« نعم ، ولكن لا يعتمد عليها لأن طريقتهم تختلف عن طريقتنا . افعل كما أخبرتك ، وأحضر لى القوائم فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين ، وأسعد الله نهارك ، يا مستر بايكروفت . واذا داومت على ابداء الذكاء وبذل الجهد ، فستجد الشركة سيدا طيبا جدا . »

« رجعت الى الفندق وتحت ذراعى ذلك الكتاب الكبير ، وتعتمل فى صدرى مشاعر متضاربة . فمن ناحية تسلمت عملى نهائيا وفى جيبى مائة جنيه . ومن ناحية أخرى ، ترك منظر المكاتب ، وعدم وجود اسم الشركة على الحائط ، وعدة نقاط أخرى ، انطباعا سيئا فى نفس رجل أعمال ، عن مركز مخدومى . ومع ذلك ، فليكن ما سوف يكون ، طالما أخذت نقودى . وهكذا ظللت منكبا على العمل بجد طوال يوم الاحد ، ومع ذلك ، ففى يوم الاثنين لم اكن قد وصلت الا الى حرف (د) . فذهبت الى مخدومى يوم الاثنين ، فوجدته فى الحجرة غير المرتبة نفسها ، فأخبرنى بأن أستمر فى ذلك العمل حتى يوم الاربعاء . ومع ذلك ، فلم ينته العمل بعد ، ولذا امهلنى الى يوم الجمعة ــ أى أمس . فأخذت ما انجزته الى المستر هارى بينر . »

قال : « أشكرك كثيرا . اخشى ان اكون لم اقدر صعوبة هذا العمل . ستكون هذه القوائم ذات عون هام لى . »

قلت : « استغرقت بعض الوقت . »

قال : « والآن ، اريدك ان تعمل قائمة بحوانيت الأثاث ، لأنها جميعا تبيع أدوات منزلية . »

« حسنا جدا . »

« ويمكنك أن تأتى غدا مساء فى الساعة السابعة لترينى الى اين وصلت . لا تجهد نفسك بالعمل . فان ساعتين يوميا فى قاعة موسيقى ، فى المساء ، لن تضرك بعد عملك . » وكان يضحك وهو يتكلم . ولكن ما أثار الشكوك فى نفسى ، اننى أبصرت وهو يضحك ، سنه الثانية من الجانب الايسر محشوة بالذهب حشوا رديئا . »

فرك شرلوك هولمز يديه مسرورا ، وحملقت فى زبوننا مدهوشا.

قال : « وقد تبدو مدهوشا ، يا دكتور واطسون ولكن الامر هكذا . فعندما كنت أتحدث الى الرجل الأول فى لندن ، أبصرت داخل فمه وهو يضحك نفس السن الثانية محشوة بالذهب بطريقة مماثلة لهذه تماما ، ولاحظت بريق الذهب فى كلتا الحالين ، كما تعلم . فلما وضعت النقط على الحروف : نفس الصوت ، ونفس الشكل والحجم والارتفاع دون تغير باستثناء الشعر واللحية ، وهذان من السهل تغييرهما بموسى أو بباروكة ، لم أعد أشك فى كونه نفس الرجل . فبالطبع يتوقع المرء أن يكون اخوان من شبه واحد ، ومن الممكن أن يكونا من نفس الشكل والحجم ، وقلما يكون لهما نفس الصوت . ولكن نفس السن المحشوة أمر مستحيل ولا سيما بالذهب بنفس الطريقة . انحنى لى بالتحية مودعا ، فوجدت نفسى فى الطريق قلما أعلم ما اذا كنت واقفا على راسى أم على عقبى . فرجعت الى فندقى حيث وضعت راسى فى حوض من الماء البارد ، وحاولت التفكير فى هذا الأمر المحير : لماذا ارسلنى من لندن الى برمنجهام ؟ ولماذا ذهب الى هناك قبلى ؟ ولماذا كتب خطابا من نفسه الى نفسه ؟ ولماذا لا يوجد اسم الشركة على الحائط مثل غيرها ؟ ولماذا المكاتب بدون اثاث ؟ كان هذا كثيرا على لا استطيع فهم معناه . وبينما أنا فى دوامة من التفكير طرأ على بالى فجأة أن ما يكون مظلما على ، سيكون نيرا واضحا على المستر شرلوك هولمز . وما زال عندى وقت لأذهب الى لندن بقطار الليل لأراه فى هذا الصباح ، وأعود معكما الى برمنجهام . »

بعد أن حكى كاتب سمسار الاوراق المالية حكايته المدهشة ، ساد السكون فترة . ثم اتجه شرلوك هولمز بعينه نحوى ، واستند الى الخلف على الوسائد بوجه مبتهج ناقد ، كما يفعل خبير تذوق الخمور عندما يأخذ أول رشفة من نبيذ ما .

فقال شرلوك هولمز : يا لها من قضية ممتعة يا واطسون ، اليست كذلك ؟ بها نقاط تسرنى . اظنك توافقنى على ان مقابلة مع مستر آرثر بينر فى المكاتب المؤقتة لشركة فرانكو ميدلاند ليمتد

للأدوات المنزلية ستكون ممتعة لكلينا . »
فسألته : « ولكن كيف نقوم بها ؟ »
فقال هول بايكروفت مبتهجا : « الامر فى غاية السهولة ، أنتما صديقاى بحاجة الى عمل ، وماذا يكون طبيعيا اكثر من آخذكما الى المدير العام للشركة ؟ »
فقال هولمز : هو كذلك بالضبط . اريد ان ارى ذلك الرجل لأعرف ما اذا كان بمقدورى أن أستنتج شيئا من لعبته الصغيرة . اية صفات أو ميزات لك يا صديقى تجعل خدماتك ذات نفع أو قيمة ؟ او هل من الممكن أن » ثم أخذ يقرض أظفاره وينظر الى خارج النافذة. وقلما حصلنا منه على كلمة اخرى حتى صرنا فى نيو ستريت .
« وفى الساعة السابعة مساء ، كنا ، نحن الثلاثة ، نسير فى شارع كوربوريشن ، الى مكاتب تلك الشركة .
فقال زبوننا : « لا فائدة اطلاقا من ان نذهب قبل الميعاد ، اذ يبدو أنه لا يذهب الى هناك الا ليرانى ، لان المكان يظل مهجورا الى الساعة التى يحددها لمقابلتى . »
فأبدى هولمز ملاحظته يقول : « هذا يفسر شيئا ما . »
فصاح الكاتب : « أقسم بجوث اننى أخبرتكم هكذا . ها هو يسير امامنا هناك . »
قال هذا واشار الى رجل اشقر الشعر قصير القامة ، حسن الهندام ، يهرول مسرعا فى الجانب الآخر من الطريق . وبينما نحن نلاحظ كل حركاته ، نظر الى غلام كان يصيح بأعلى صوته قائلا : « آخر طبعة من الصحف المسائية » ، فجرى صاحبنا بين العربات والاوتوبيسات واشترى منه صحيفة ، ثم امسكها فى يده ، واختفى داخل باب .
فصاح هول بايكروفت ، يقول : « لقد دخل باب مكاتب الشركة .. تعاليا معى وسأسوى كل شىء بسهولة قدر الامكان . »
تبعنا قائدنا وصعدنا خمسة طوابق حتى وجدنا انفسنا خارج باب نصف مفتوح ، فطرقه المستر بايكروفت فأمرنا صوت من الداخل ، يقول : « ادخل ! » فدخلنا حجرة خاوية من الأثاث كما وصفها هول بايكروفت تماما ، وكان الرجل الذى ابصرناه فى الطريق جالسا أمام النضد الوحيد فى الحجرة ، وامامه الصحيفة المسائية مفتوحة . فلما اتجه ببصره نحونا ، بدا لى أننى لم أشاهد فى حياتى وجها كوجهه تتجلى عليه أمارات الحزن والخوف والفزع الذى يطرأ

على الناس فى حياتهم . وكان العرق يلمع فوق جبينه ، وصار خداه بلون أبيض باهت كلون بطن السمكة ، وجحظت عيناه وحملقتا فينا ، ثم نظر الى موظفه كما لو انه لا يعرفه . وكان بوسعى أن أستشف من الدهشة التى ارتسمت على وجه قائدنا ، أن هذا ليس ، بحال ما ، منظر مخدومه .

فقال مدهوشا : « تبدو مريضا ، يا مستر بينر ! »

فأجاب الاخر وهو يجهد نفسه فى أن يستعيد رباطة جأشه ، ولعق شفتيه قبل أن يتكلم ، قائلا : « نعم ، لست بصحة جيدة . من هذان السيدان اللذان احضرتهما معك ؟ »

فأجاب الكاتب بسرعة ، يقول : « هما صديقاى . هذا هو المستر هاريس من برموندسى ، وهذا مستر برايس من سكان هذه المدينة ، لهما خبرة كبرى ، ولكنهما متعطلان منذ وقت قريب ويأملان فى أن يجدا عملا فى هذه الشركة . »

فقال المستر بينر مبتسما : « ممكن جدا ! ممكن جدا ! نعم ، من المؤكد اننا سنتمكن من أن نفعل لكما شيئا . ماهو اختصاصك ، يامستر هاريس ؟ »

قال هولمز : « أنا محاسب . »

« عظيم ، نحن بحاجة الى شيء من هذا النوع . وانت يامستر برايس ؟ »

قلت : « أنا كاتب . »

« لى أمل كبير فى أن يكون بمقدور الشركة أن تستوعبكما . وساخبركما بمجرد أن نصل الى اية نتيجة . والان ، أرجو أن تنصرفوا . اتركونى وشأنى ، اكزاما لخاطر الله ! »

قال هذه العبارة الاخيرة بطريقة كأن الكبت الذى فرضه على نفسه قد انفجر فجأة عن آخره . فتبادلت النظرات مع هولمز ، وتقدم هول بايكروفت خطوة نحو النضد .

قال بايكروفت : « نسيت ، يامستر بينر ، أننى هنا بناء على موعد لأتلقى منك بعض التعليمات . »

فقال المستر بينر فى نغمة أكثر هدوءا ! « طبعا يا مستر بايكروفت ، طبعا ، بوسعك البقاء هنا لحظة ، وليس هناك ما يمنع انتظار صديقيك معك هنا . سأكون فى خدمتك بعد ثلاث دقائق ، ان صح لى أن أعتدى على صبرك لهذه المدة . » قال هذا ونهض

من مقعده ، منحنيا لنا وهو يعبر بابا فى الجانب البعيد من الحجرة ، وأقفله خلفه .

فهمس هولمز يقول : « وماذا الان ، هل أفلت منا ؟ »

فقال بايكروفت : « مستحيل . »

« ولماذا مستحيل ؟ »

« لأن هذا الباب يؤدى الى حجرة داخلية . »

« هل يوجد بها مخرج ؟ »

« أبدا . »

« وهل فيها أثاث ؟ »

« كانت خاوية على عروشها ، بالامس . »

« اذن ، فأى شىء على الارض يمكن أن يعمل بتلك الحجرة ؟ هناك شىء لا افهمه فى هذا الموضوع . اذا كان هناك شخص مجنون فزعا ثلاث مرات ، فان اسم هذا الرجل هو بينر . ماذا يدعوه لان يرتجف ؟ »

قلت : « اشتبه فى أن نكون من البوليس السرى . »

فقال بايكروفت : « هو كذلك . »

هز هولمز رأسه ، وقال : « لم امتقع لونه ؟ كان شاحب اللون عندما دخلنا الحجرة . من الممكن أنه .. »

وبينما هولمز يتكلم ، قطع عليه كلامه صوت طرق فى اتجاه الباب الداخلى .

فصاح الكاتب يقول : « لماذا ، بحق الشيطان ، يطرق بابه هو نفسه ؟

ومرة أخرى سمعنا صوت الطرق ، ولكنه كان اعلى من السابق . فنظرنا جميعا متلهفين ناحية الباب المقفل . ولما نظرت الى هولمز ألفيت وجهه متصلبا وانحني الى الامام فى انفعال شديد . وفجأة جاء صوت غرغرة وحشرجة وصوت طرق على الاخشاب . فقفز هولمز مذعورا ، عبر الحجرة ، ودفع الباب . كان مقفلا من الداخل . فحذونا حذوه واندفعنا جميعا بكل ثقلنا على الباب ، فتداعت احدى مفصلاته ثم تداعت الاخرى وسقط الباب على الارض محدثا صوتا . فاندفعنا فوقه الى الحجرة الداخلية ..

كانت خاوية .

ولم تمض لحظة حتى أدركنا خطأنا . ففى احد اركان الحجرة

القريب من الحجرة التى غادرناها ، باب ثان ، فقفز اليه هولمز وجذبه، فانفتح . وجدنا على الارض سترة وصديرية ، ومن خطاف خلف الباب يتدلى جسم المدير العام لشركة فرانكو ميدلاند ليمتد ، مشنوقا بحمالات بنطلونه ، وقد رفع ركبتيه وتدلى رأسه على جسمه بزاوية مفزعة ، وان تأرجح عقبيه هو الذى أحدث على الباب ذلك الصوت الذى سمعناه ونحن نتكلم . وفى لحظة ، طوقت وسطه بذراعى ورفعته الى أعلى ، بينما حل هولمز وبايكروفت الاربطة المطاطية التى اختفت بين ثنيات جلده ، ثم حملناه الى الحجرة الاخرى حيث رقد بوجه فى لون الاردواز ، يحرك شفتيه الارجوانيتين الى الداخل والى الخارج ، مع كل حركة تنفس . ولو تأخرنا خمس دقائق ، لصار حطاما مفزعا .

فقال هولمز : « ما رأيك فيه ، ياواطسون ؟ »

« انحنيت فوقه ، وفحصته . كان نبضه ضعيفا ومتقطعا ، ولكن تنفسته صار أطول ، واجفانه ترتعش قليلا ، وتبدى خطا رفيعا أبيض لمقلتيه تحتها .

قلت : « انتابته موجة ذعر ، ولكنه سيعيش افتحا تلك النافذة، وناولاني دورق الماء ذاك . » فحللت ياقته ، وصببت الماء البارد على وجهه ، ورفعت ذراعيه وخفضتهما لاحداث تنفس صناعى الى ان صار تنفسه طبيعيا وطويلا .

قلت وأنا أبتعد عنه : « انها مسألة وقت . »

وقف هولمز الى جانب النضد ، واضعا يديه عميقا فى جيبى بنطلونه ، وذقنه على صدره .

قال هولمز : « اظن انه يجب علينا أن نستدعى البوليس الى هنا الان . أود أن أعطيهم قضية كاملة عندما يحضرون . »

فصاح بايكروفت وهو يحك رأسه : « هذا لغز غامض على فهمى . ماذا جعلهم يأتون بى الى هنا طول تلك المسافة ، ثم . . »

فقال هولمز فى قلق : « واعجباه ! الامر واضح بين . انها هذه الحركة الاخيرة الفجائية التى أوضحت كل شىء . »

« أذن ، فقد فهمت الباقى ؟ »

« أظن هذا واضحا تماما . ماذا تقول ياواطسون ؟ »

هززت كتفى

قلت : « يجب ان اعترف بأننى لا اعرف شيئا . »

« بالطبع ، اذا تتبعت الاحداث من أولها ، امكنك أن تجدها تشير كلها الى نتيجة واحدة . »

«ماذا تستنتج منها ؟ »

« يدور الموضوع كله حول نقطتين : الاولى انهم جعلوا بايكروفت يكتب طلبا للدخول فى خدمة هذه الشركة المزعومة . الا ترى مايدل عليه هذا ؟ »

« اخشى اننى لا أعرف الهدف . »

« اذن ، فلماذا أرادوه أن يكتبه ؟ ليس كموضوع عمل ، اذ عادة ما تكون هذه الترتيبات شفوية ، وما من سبب يستدعى استثناء هذا . الا ترى ، ياصديقي الصغير ، انهم كانوا متلهفين جـدا الى الحصول على عينة من خطك ، وليس لديهم طريقة أخرى يمكنهـم بها أن يحصلوا على تلك العينة ؟ »

« ولمـاذا ؟ »

« هكذا بالضبط . لماذا ؟ عندما نجيب على هذا السؤال نكون قد تقدمنا بمشكلتنا الصغيرة . لماذا ؟ هناك سبب ملائم واحد .. أراد شخص ما أن يتعلم محاكاة خطك ، فلابد له من الحصـــول على عينة منه . والان ، اذا انتقلنا الى النقطة الثانية نرى أن كلا من النقطتين تلقى ضوءا على الاخرى . هذه النقطة هى الطلب الذى تقدم به بينر وأصر على الا تستقيل من منصبك ، وتترك مدير هـذه الشركة الهامة ينتظر قدوم مستر هول بايكروفت ، الذى لم يره قط ، فى صباح يوم الاثنين . »

فصاح بايكروفت يقول : « رحمـــاك ، يا الهى ! كم كنت خنفساء عمياء ! »

« والان ، أنت تفهم غرضه من خطك ـ افرض أن شخصـا تقدم ليشغل مكانك وكان خطه يختلف عن الخط الذى كتبت به طلب التقدم لهذه الوظيفة ، عندئذ تنكشف لعبته . فأخذ ذلك الوغد يتعلم محاكاة خطك ، وهو بطبيعته ماهر فى التزييف ، وبذا كان مركزه مضمونا ، ما فى هذا شك ، اذ لم تقع عين اى شخص فى المكتب عليك من قبل . »

فصاح هول بايكروفت يقول : « مامن احد هناك رآنى . »

« حسنا جدا . بالطبع كان من الاهمية القصـوى منعك من التفكير فى ذلك الامر مرة اخرى ، وكذلك منعك فى الاتصال بأى شخص

يمكن ان يخبرك بأن شخصا آخر انتحل اسمك وشغل وظيفتك هناك في مكتب موسون . لذا اعطوك مقدم مرتبك وأرسلوك بعيدا عن لندن الى ميلاندز حيث كلفوك بعمل كاف يمنعك السفر الى لندن حيث يمكنك احباط لعبتهم . هذا واضح جدا . »

« ولكن لماذا يدعى هذا الرجل انه اخوه ؟ »

« هذا واضح جدا . فمن الجلى انهما اثنان لا ثالث لهمـا : احدهما يمثلك فى مكتب موسون ، وهو الذى قام بدور تعيينك . ثم وجد أنه لن يستطيع ايجاد من يمثل مدير الشركة بغير اشراك شخص ثالث فى المؤامرة ، وهو لا يريد هذا اطلاقا . فغير شـكله قدر الامكان واثقا من أنك قد تعزو الشبه الى تشابه الاسرة . ولكن مسألة السن المحشوة بتلك الطريقة هى التى جعلتك تشتبه فى الامر ، وبدونها ماكنت لترتاب فى أى شىء على الاطلاق . »

هز هول بايكروفت يديه فى الهواء وصاح يقول : « أيها الاله الرحيم ! ماذا كان يفعل هول بايكروفت المزيف لدى موسون ، وأنا مخدوع هنا ؟ ماذا يجب علينا أن نفعله الان ، يامستر هولمز ؟ ارجوك ان تخبرنى ماذا أفعل . »

« يجب أن ترسل برقية الى موسون . »

« يقفل موسون أبوابه فى الساعة الثانية عشرة ظهرا فى أيام السبت . »

« لا بأس . قد يكون هناك بواب أو خادم . . »

« نعم ، هناك حارس باستمرار ، ليلا ونهارا ، بسبب قيمـة الودائع التى عندهم . سمعت الناس يتحدثون عن ذلك فى المدينة . »

« حسنا جدا . سنرسل لهم برقية ونرى ما اذا كان كل شىء على ما يرام ، وما اذا كان هناك كاتب يعمل لديهم منتحلا اسمى . هذا فى غاية الوضوح ، ولكن الشىء غير الواضح هو : لماذا أسرع أحد هذين الوغدين ، بمجرد أن أبصرنا ، فنهض فى الحال وشـــنق نفسه ؟ »

فصاح صوت خلفنا يقول : « الصحيفة ! » كان الرجل جالسا ممتقع اللون يرتجف خوفا لسبب واضح فى عينيه ، ويداه تفركان بعصبية على الشريط الاحمر العريض الذى مازال يحيط برقبته .

فصاح هولمز يقول : « الصحيفة ! بالطبع ! كم كنت غبيا . كنت احصر ذهنى فى زيارتنا ولم يطرأ على بالى أمر الصـــحيفة

اطلاقا . » فنشرها فوق النضد وصاح صيحة الانتصار ، خرجت من شفتيه ، فقال :

« انظر الى هذا ، ياواطسون . هذه صحيفة لندنية ، طبعة مبكرة من الايفننج ستاندارد . هاك مانريده . انظر الى العناوين :
« جريمة فى المدينة . جريمة قتل فى مؤسسة موســـون ووليامز . محاولة سرقة ضخمة . القبض على المجرم . نحن متلهفون جميعـــا الى سماعها ياواطسون . اقرأها لنا بصوت عال من فضلك . »

يبدو من مكانها فى الصحيفة ، انها الحادثة الوحيدة الهامة .. جرت كالاتى :

« محاولة جريئة للسرقة انتهت بمقتل رجـــل والقبض على الجانى بعد ظهر اليوم فى المدينة . فمنذ زمن بعيـــــد ، ومؤسسة موسون ووليامز ، الدار المالية الشهيرة ، تتقبل ودائع وصل اجمالى قيمتها اخيرا الى اكثر من مليون جنيه استرلينى . وكان المدير يدرك تماما المسئولية الملقاة على عاتقه تجاه المصالح العظمى المعرضة للخطر ، فاستخدم خزائن من أحدث ماوصل اليه فن صناعة الخزائن وعين لحراستها حارسا مسلحا ، ليلا ونهارا ، داخل المبنى . ويبدو أن موظفا جديدا اسمه هول بايكروفت ، عين فى الاسبوع الماضى . ولم يكن هذا الموظف سوى اللص والمزيف الشهير بدنجتون ، الذى خرج لتوه من السجن هو واخوه بعد أن قضيا خمس سنوات . ونجح بطريقة ما ، لم تكتشف بعد فى الحصول على وظيفة بالمكتب تحت اسم مستعار ، لكى يحصل على قوالب لمختلف الاقفال ، ويلم الماما تاما بحجرة الودائع ، وبالخزائن .

« جرت العادة فى مؤسسة موسون أن ينصرف الموظفون فى الظهر ، كل يوم سبت . ففوجىء الجاويش طوسون التابع لبوليس المدينة ، برجل يحمل كيسا من السجاد ويهبط السلم ، فى الساعة ٢٠ر١ مساء . فأثيرت شكوكه ، فطارده بمساعدة الكونستابل بولوك بعد مقاومة عنيفة حتى قبضا عليه . وكان من الجلى لهما أن الرجل قام بسرقة عظمى تبين فيما بعد انها تتضمن ماقيمتـــه حوالى مائة الف جنيه من اسهم السكة الحديدية الامريكية ، وكمية كبيرة من سندات المناجم والشركات الاخرى ، وجدت كلها داخـــــل ذلك الكيس .

« وبفحص المبنى ، وجدت جثة الحارس مطوية داخل اضخم

الخزائن . وما كانت لتكتشف قبل صباح يوم الاثنين لولا يقظـــة الجاويش طوسون وعمله السريع . هشم رأس الحارس بضربة من الخلف بقضيب حديدى . لاشك فى أن بدنجتون دخل المبنى ثانيـة بحجة انه نسى شيئا هناك ورجع ليأخذه . فقتل الحارس وجمـع بسرعة محتويات الخزانة الكبرى وفر بغنيمته . اما أخوه ، الذى كان يعمل معه دائما ، فلم يظهر معه فى هذه العملية حسب المعلومات التى لدينا ، الى الان . ويبذل البوليس جهودا مكثفة لمعرفة مكانه .»

فقال هولمز وهو ينظر الى الرجل المكوم بجانب النافذة : « اذن ، فبوسعنا أن نكفى البوليس مئونة البحث عنه .. طبيعة الانســان خليط غريب ، ياواطسون . فهأنتذا ترى مبلغ المحبة بين هــذا النذل والقاتل ، لدرجة أنه انتحر ، أو حاول الانتحار ، عندما علم أن حبل المشنقة سيلتف حول رقبته . وعلى أية حال ، لا خيــار لنا الان . سأبقى أنا والدكتور واطسون هنا لحراسته بينما تتكرم انت يامستر بايكروفت باخطار البوليس . »

جلوريا سكوت

قال صديقى شرلوك هولمز ونحن جالسان فى احدى ليالى الشتاء على الجانبين المتقابلين للوطيس : « معى بعض الاوراق ، ياواطسون ، اظن بحق انك يجب أن تتصفحها بامعان . هاك مستندات القضية الغريبة للسفينة جلوريا سكوت ، وهذه هى الرسالة التى افزعت القاضى تريفور ، وجعلته ينتفض فرقا وهولا حينما قراها . »

أخرج هولمز إسطوانة صدئة من درج ، وحل الشريط واعطانى مذكرة قصيرة ، مكتوبة فى نصف فرخ من الورق الرمادى اللون .

تقول تلك المذكرة : « يسير توريد طيور الصيد الى لندن سيرا متصلا . طلب من هدسون رئيس الحرس ، أن يتسلم كافة طلبات أوراق الذباب وللمحافظة على حياة دجاجات الدراج الخاصة بك . »

عندما رفعت بصرى بعد قراءة هذه الرسالة الغامضة المنطوية على لغز أو شفرة ، رايت هولمز يضحك ملء شدقيه لما بدا على وجهى من ملامح معبرة من الدهشة والاستغراب .

قال هولمز : « أراك مرتبكا قليلا . »

قلت : « لا يمكننى أن أفهم كيف أن رسالة كهذه ، تستطيع أن توحى بالفزع . تبدو لى نوعا من الخزعبلات أكثر من أى شىء آخر . »

« من الممكن أن تكون كذلك ، ولكن قارئها ، الذى كان رجلا مسنا قوى البنية ، انهار عند قراءتها كما لو أنه ضرب بكرنافة مسدس .

قلت : « انك لتثير فضولى ، ياهولمز . ولكن لماذا قلت ، الان فقط ، ان هناك سببا قويا يدعونى لان ادرس هذه القضية ؟ »

« لأنها أول قضية تناولتها فى حياتى . »

« كثيرا ما حاولت أن أعرف من صديقى ، اول شىء حول ذهنه الى جهة الابحاث الخاصة بالجرائم ، بيد أننى اخفقت فى ايقاعه تمام الاخفاق ، ولا حتى بدعابات الحديث .. فجلس على مقعده ذى

المتاكىء ونشر المستندات فوق ركبتيه ، ثم أشعل غليونه وجلس يدخن بعض الوقت وهو يقلبها بين يديه .

قال : « ألم تسمعني قط اتكلم عن فيكتور تريفور ؟ انه الصديق الوحيد الذى صادقته ابان السنتين اللتين قضيتهما فى الكلية . لم اكن قط رجلا اجتماعيا جدا ، ياواطسون ، ولكنني كنت افضل دائما ان امسح ارض حجراتي ، وأزاول طرق تفكيري الخاصة . ولذا ، لم اختلط اطلاقا مع رجال فرقتى . شغفت بقليل من أوجه الرياضة ، كالشيش والملاكمة . ثم ان موضوع دراستي ، كان يختلف تماما عن مواضيع دراسات غيرى . لذا ، لم يكن بيننا أى نقط توجب اتصالنا معا . وكان تريفور هو الرجل الوحيد الذى عرفته هناك ، وذلك بسبب حادث كلب صيده ، الذى عض قدمى ذات صباح وانا ذاهب الى الكنيسة .

« كانت صداقته سطحية ، ولكنها كانت عميقة الاثر . فقد اضطررت الى أن ابقى راقدا مدة عشرة ايام . ظل خلالها تريفور يأتى باستمرار ليسأل عني ويعودني .. كانت زياراته ، فى بادىء الامر ، عبارة عن التحدث معي لمدة دقيقة ، ثم طالت مدتها شيئا فشيئا ، حتى صرنا قبل نهاية مدة العلاج صديقين حميمين . كان رجلا ودودا ، مملوءا نشاطا وحيوية على عكسى تماما فى معظم النواحى . ولكننا وجدنا ، اخيرا ، أن هناك بعض المواضيع المشتركة بيننا . وكانت صلة اتحاد الامزجة عندما علمت انه مثلى ، ليس له أصحاب . وذات مرة دعانى الى زيارته فى بيت والده فى دونيثورب فى نورفولك . فقبلت دعوته لان اقضى معه هناك مدة شهر من الاجازة الطويلة .

« من الجلى أن تريفور العجوز كان رجلا واسع الثراء ، ذا مركز سام مرموق ، اذ كان قاضيا وصاحب أملاك .. اما دونيثورب فقرية صغيرة شمالى لانجمور مباشرة فى ريف بوردز . وكان بيته عتيق الطراز ، واسع الارجاء ، سقوفه من كتل اخشاب البلوط ، وهو مبنى بالطوب الاحمر ، تصل اليه عبر ممر تحف به أشجار الليمون . والى جواره اراض طيبة لصيد البط ، ومجارى مياه يمكن صيد الاسماك منها . وبه مكتبة صغيرة لكنها حافلة بالكتب المختارة حصل عليها ، كما علمت ، من الساكن السابق لذلك البيت . وبه مطبخ يديره طاه قدير ماهر . لذا فمن الغباء الا يقبل المرء مثل هذه الدعوة لتمضية شهر هناك .

« كان تريفور الاب ، ارمل ، وكان صديقي ابنه الوحيد . كما سمعت انه له ابنة ماتت بالدفتريا وهي فى زيارة لمدينة برمنجهام .. اعجبني ذلك الاب كثيرا . كان رجلا قليل الثقافة ، غير انه على قدر عظيم من القوة الجسدية والذهنية . قلما يعرف اى كتاب ، لكنه سافر الى بلاد بعيدة وراى كثيرا من بلاد الدنيا ، ويتذكر كل ماعرفه. وهو ممتلىء الجسم ، ذو شعر أجعد ، ووجه أسمر لفحه الطقس ، وعينين زرقاوين حادتين لدرجة الوحشية . ومع ذلك فقد اشتهر بالرقة والاحسان فى كافة انحاء منطقته ، كما كانت احكامه خفيفة وهو فى كرسي القضاء .

« وذات مساء ، وقد مضى على هناك بضعة أيام فحسب ، كنا جالسين نحتسى زجاجة من النبيذ الحلو ، بعد تناول طعام العشاء ، فاذا بتريفور الصغير يتحدث عن عادة الملاحظة القوية والتصور الصحيح اللذين كونتهما فى نفسى ، ولو اننى لم أقدر قيمة الدور الذى كان عليهما أن يلعباه فى حياتى . ومن الجلى انه جال بفكر الاب أن ابنه يبالغ فى وصفه لحادثة أو اثنتين تافهتين ، قمت بهما .

فقال الاب ضاحكا وفى روح طيبة : « تعال ، يامستر هولمز . اننى موضوع رائع لهوايتك ، اذا امكنك ان تستنتج منى شيئا . »

قلت : « أخشى أننى لن أستطيع استنتاج شيء كثير . فقد اقول انك هربت من هجوم على شخصك فى خلال الاثنى عشر شهرا الماضية .

خبت الضحكة من شفتى الوالد ، وحملق فى دهشة بالغة .

قال : « هذا صحيح جدا ، وانك لتعرف يافيكتور » وهو يستدير نحو ابنه ، « اننا عندما حللنا تلك العصابة ، أقسم أفرادها أن يذبحونا . وبالفعل ، هوجم السير ادوارد هوبى . ولذا أخذت احترس منذ ذلك الوقت . »

قلت : « ولديك عصا جميلة جدا ، أعرف من النقش الذى عليها انها لم تكن لديك قبل سنة . وانك ثقبت راسها وصببت رصاصا منصهرا فى ذلك الثقب لتجعلها سلاحا فظيعا . ورايت أنك ما كنت لتتعب نفسك وتحتاط هكذا ، الا اذا كنت تخشى خطرا ما . »

فقال مبتسما : « هل من شي آخر ؟ »

« لاكمت كثيرا أيام شبابك . »

« هذا صحيح أيضا . وكيف عرفت ذلك ؟ هل هشم أنفى قليلا ، واعوج عن استقامته ؟ »

قلت : « لا ، بل اذناك . فقد تفلطحتا وغلظتا اشارة الى الرجل الملاكم . »

« أما من شىء آخر ؟ »

« قمت بكثير من اعمال الحفر الذى جعل جلدك غليظا . »

« جمعت كل نقودى من حقول الذهب . »

« كنت فى نيوزيلائد . »

« وهذا حقيقى أيضا . »

« وزرت اليابان . »

« صحيح جداً . »

« وكنت على صلة وثيقة جدا بشخص الحروف الاولى لاسمه هى ج. أ. ، ثم تلهفت فيما بعد الى نسيانه تماما . »

« وقف المستر تريفور ببطء ، وثبت عينيه الكبيرتين الزرقاوين على فى نظرة طويلة غريبة ، ثم استلقى الى الامام على وجهه بين قشور البندق المتناثرة فوق المفرش ، مغمى عليه تماما .

« بوسعك أن ترى ، ياواطسون ، كم كان خجلى أنا وابنه عند ذاك . بيد أن تلك النوبة لم تمكث طويلا ، اذ أفاق عندما حللنا ياقته ورششنا ماء على وجهه من أحد أكواب غسل الاصابع .. فتنفس عميقا مرة أو مرتين ، ثم جلس .

قال وهو يتصنع ابتسامة : « آه ياولدى ! أرجو الا أكون قد أزعجتكما خوفا علي . فرغم مظهرى القوى ، هناك مكان ضعف فى قلبى ، ولا يستغرق التغلب عليه وقتا طويلا . لا أعلم ، يامستر هولمز ، كيف أمكنك معرفة كل هذا . لكن يبدو أن جميع رجال البوليس السرى الحقيقى والخيالى أطفال بين يديك . هذا طريق حياتك ، ياسيدى ، ويمكنك أن تثق بكلام رجل كان شيئا ما فى هذه الدنيا . »

« كانت هذه المشورة وذلك التقدير المبالغ فيه عن مقدرتى التى قدم لها ، كانا ، لو تصدقنى ياواطسون ، هما ما جعلانى أفكر فى أنه بالامكان اتخاذ مهنة مما كان هوايتى الوحيدة حتى ذلك الوقت . ومع ذلك ، فقد شغلنى مرض مضيفى ، فى تلك اللحظة ، عن التفكير فى أى شىء آخر .

قلت : « أرجو الا اكون قد قلت شيئا آلمك . »

« لقد ضربت على وتر حســـاس عندى . وهل بامكانى ان اسالك كيف عرفت كل ذلك ، وماذا تعرف غيره ؟ » تكلم الاب عندئذ بنغمة نصف مزاجية ، ولكن مظهر الفزع مازال كامنا خلف عينيه .

قلت : « هذا بسيط جدا . عندما كشفت عن ذراعك لتسحب تلك السمكة الى القارب ، ابصرت وشم الحرفين ج. أ. فى مفصـل المرفق . ومازال هذان الحرفان واضحين يمكن قراءتهما . ولكن من الواضح تماما من منظرهما المطموس ، ومن صبغ الجلد حولهما ، انه بذلت جهود لمحوهما . فيتجلى اذن ، أن هذين الحرفين كانا فى وقت ما عزيزين عليك ، وانك أردت فيما بعد أن تنساهما . »

فصاح وهو يتنهد بارتياح : « ما أدق عينك ! ان الامر كمـا تقول بالضبط . ولكننا لن نتكلم عنه . فأشباح احبابنا القدامى هى اسوأ الاشباح جميعا . هيا بنا الى حجرة البلياردو ، لتدخن سيجارا فى هدوء . »

« ومنذ ذلك اليوم البهيج ، ووسط كرم الضيافة الذى قام به المستر تريفور نحوى ، كان هناك شىء من الريبة فى مسلكه حيالى ، وحتى ابنه نفسه لاحظ هذا ، فقال : « لقد اثرت فى المحافظ تأثيرا جعله لا يتأكد مرة أخرى مما تعرفه عنه وما لا تعرفه . لايقصد أن يظهر ذلك ، وأنا على يقين منه ، ولكنه راسخ فى ذهنه حتى ليتجلى فى كل حركة من حركاته . واخيرا اقتنعت بأننى مصدر قلق له ، فانهيت زيارتى . وفى نفس ذلك اليوم ، قبل رحيلى ، حـدث أمر كان له نتيجة بالغة الاهمية .

« بينما نحن الثلاثة جالسون على الحشيش فوق مقـاعد الحديقة ، ننعم بأشعة الشمس ونعجب بالمنظر الذى نراه من خلال السور ، جاءت الخادمة تقول ان بالباب رجلا يرغب فى رؤية المستر تريفور .

فقال مضيفى : « ماأسمه ؟ »

« لم يذكر اى اسم . »

« اذن فماذا يريد ؟ »

« يقول انك تعرفه ، وأنه يريد أن يتحدث اليك لحـظة فحسب . »

« ادخليه الى هنا . وبعد هنيهة ، ظهر امامنا رجل صغير

الجسم نحيله ، يدل على الذل والهوان ومشيته على الترنح . كان يرتدي سترة مفتوحة ، على كمها بقعة من القطران ، وقميصا أسود مخططا بمربعات ، وبنطلونا من الدمور ، وحذاء ثقيلا باليا جدا . اما وجهه فنحيل أسمر ، دائم الابتسامة غير انه تتجلى فيه سيماء الدهاء والشرور . ويظهر من بين شفتيه صف من الاسنان الصفراء غير المنتظمة ويداه المغضنتان نصف مقفلتين بالطريقة الخاصة بالبحارة . وبينما هو قادم يترنح فوق الحشيش ، سمعت المستر تريفور يصدر صوتا يشبه الفواقة « الزغطة » ، وقفز من كرسيه وجرى داخل البيت ، وعاد بعد برهة . فشممت رائحة البراندى القوية وهو يمر بجانبي .

قال : « حسنا ، ياصديقى . ماذا بوسعى ان افعل لك ؟ »

وقف البحار ينظر اليه بعينين متغضنتين ، ونفس الابتسامة لا تفارق شفتيه .

قال : « الا تعرفنى ؟ »

قال المستر تريفور فى صوت تشوبه الدهشة : « كيف ، ياعزيزي . انت هدسون ، بكل تأكيد ! »

فقال البحار : « نعم ، أنا هدسون ، ياسيدى . لم ارك منذ اكثر من ثلاثين سنة.. انت هنا فى بيتك ، بينما انا لا ازال آكل اللحم المملح من المخلاة . »

فصاح تريفور يقول : « ويحك ياهدسون !. ستجد أننى لم انس الايام الماضية . » ثم سار نحو البحار وقال شيئا بصوت منخفض ، ثم استطرد يقول بصوت عال : « اذهب الى المطبخ حيث تحصل على الطعام والشراب ، لاشك أننى سأجد لك مكانا . »

فقال البحار وهو يمشط الى الوراء خصلة شعر تدلت على جبينه : « شكرا ، ياسيدى . نزلت الان فقط من سفينة بقيت فى البحر مدة سنتين ، وكانت فى رحلة تسير بسرعة ثمانى عقدات . وأنا مفلس وفى حاجة الى الراحة ، فرأيت أن أصلح حالى واستريح ، اما هنا واما لدى المستر بيدوس . »

فقال المستر تريفور : « هل تعرف أين يقيم المستر بيدوس ؟ »

قال وهو يبتسم : « فليباركك الله ياسيدى ! أعرف مكان جميع اصدقائى القدامى . » ثم هرول خلف الخادمة الى المطبخ .. وبعد انصرافه تمتم لنا المستر تريفور انه كان فى سفينة مع هذا الرجل

وهو عائد الى الحفر بحثا عن الذهب . ثم تركنا فوق الحشيش ودخل البيت . وبعد ساعة ، حينما دخلنا البيت ، وجدنا البحار راقدا على اريكة بحجرة المائدة ، سكران طينة . فتركت هذه الحادثة انطباعا سيئا فى نفسى ، ولم اشعر بالاسف فى اليوم التالى على مغـــادرة دونيثورب ، اذ شعرت بأن وجودى لابد أن يكون مصـــدر احراج لصديقى .

« حدث هذا اثناء الشهر الاول من الاجازة الطويلة ، فذهبت الى حجراتى فى لندن حيث قضيت سبعة أسابيع قمت خلالهـــا باجراء بعض التجارب فى الكيمياء العضوية . وذات يوم ، وقد تقدم الخريف كثيرا وقاربت الاجازة على الانتهاء ، تســـلمت برقية من صديقى يرجونى ان اعود الى دونيثورب لانه فى حاجة ماســـة الى نصحى . وبالطبع ، تركت كل شيء ، وسافرت الى الشـــمال مرة اخرى .

« قابلنى صديقى هذا على المحطة بعربة تجرها الكلاب ، ورأيت لاول وهلة أن الشهرين الماضيين كانا عصيبين عليه .. نحل جسمه وصار مثقلا بالهموم وفقد بهجته ومرحه اللذين اشتهر بهما .

كانت أولى كلماته هى : « المحافظ يحتضر . »

صحت اقول : « مستحيل ! ماذا جرى ؟ »

« السكتة القلبية . صدمة عصبية . كان طول اليوم على حافة الموت . واشك فى اننا سنجده حيا . »

« ذعرت ، كما قد تظن ، ياواطسون ، لسماع هذا الخبر غير المتوقع . »

قلت : « وماذا سببها ؟ »

« هذه هى النقطة الغامضة ، هيا اركب ، وبوسعنا أن نتحدث عن هذا اثناء الطريق . اتذكر ذلك الرجل المشئوم ، الذى جاء فى المساء السابق ليوم مغادرتك لنا ؟ »

« نعم ، أذكره جيدا . »

« اتعرف من ذلك الذى ادخلناه منزلنا فى ذلك اليوم ؟ »

« ليس عندى أية فكرة . »

صاح صديقى يقول : « انه الشيطان ، ياهولمز ! »

حملقت فيه مدهوشا .

« نعم ، هو الشيطان عينه . لم نحظ بساعة سلام أو راحة

منذ أن جاء الينا ، ولا ساعة واحدة . لم يرفع المحافظ رأسه اطلاقا منذ ذلك المساء . فطردت الحياة منه ، وتحطم قلبه . كل هذا بواسطة هذا الهدسون اللعين . »

« اذن ، وأية قوة كانت لديه ؟ »

« هذا ما أريد معرفته بأى ثمن . ذلك المحافظ العجوز المحسن الطيب ! كيف وقع بين براثن مثل هذا المجرم ؟ ولكنى مسرور لانك جئت ، ياهولمز . أثق جدا فى حكمك وحزمك ، واعلم انك ستنصحنى بأفضل مايمكننى أن أفعل . »

« كنا منطلقين فوق الطريق الريفى الابيض والسهول الثلجية ممتدة أمامنا تتألق بالضوء الاحمر للشمس الغاربة . وكان بوسعى أن أرى من خلال دغل على يسارنا ، المداخن العالية وسارية العلم ، التى تبين مقر ذلك السيد .

قال رفيقى : « عين والدى ذلك الرجل بستانيا ولما لم يقنع بذلك رقاه الى « سفرجى » . فجعل البيت تحت رحمته واستغل وجوده فى البيت باستمرار واخذ يجول حيثما طاب له أن يجول . وشكت الخادمات من معاكساته وهو سكران ومن لغته البذيئة . فرفع الاب أجورهن جميعا ليعوضهن عن تلك المضايقات . كما كان يأخذ القارب ويخرج فى رحلات صيد قصيرة . وكل هـــذا بوجه عابس ساخر وقح ، حتى خيل الى أن اقتله عشرين مرة لو كان رجلا من سنى . وانى لأخبرك ياهولمز بأننى كنت احتفظ برباطة جأشى طوال ذلك الوقت . وهأنذا أتساءل : هل أكون عاقلا لو أطلقت العنان لنفسى قليلا .

« سارت الامور بنا من سيىء الى اسوأ ، وشرع هذا الحيوان هدسون يتمادى فى أن يترك لنفسه الحبل على الغارب يفعل مايشاء ويتدخل فيما لا يعنيه . وقد بلغ به الغرور والصلف أن رد على والدى بوقاحة فى وجودى . فما كان منى الا أن امسكته من كتفه وأخرجته من الحجرة . فخرج بوجه متجهم وعينين حاقدتين ، وتفوه بتهديدات اكثر مما يستطيع لسانه أن ينطق . ولست أدرى ماذا دار بينه وبين والدى بعد ذلك . ولكن جاء ابى فى اليوم التـــالى وطلب منى أن أعتذر له . فرفضت رفضا باتا ، كما يمكنك أن تتصور . وقلت لوالدى كيف يسمح لمثل هذا الوغد أن يأخذ حريته معه ومع من بالمنزل .

قال : « آه ، ياولدى ! من الخير أن أتكلم ولكنك لا تعرف مركزى ، ولابد أن تعرف يافيكتور . سأخبرك بكل شيء ، وليحدث مايحدث ؟ انك لا تفكر فى أذى أبيك المسكين ، هل تفكر فى هذا ، ياغلام ؟ »

قال هذا وهو فى غاية التأثر ، ثم حبس نفسه فى المكتبة طول اليوم ، حيث أمكننى أن أراه من خلال النافذة مشغولا بالكتابة طول الوقت .

« حدث فى ذلك المساء ما لاح لى أنه فرج اى فرج ، اذ أخبرنا هدسون بأنه سيتركنا . فدخل حجرة المائدة ونحن جالسون بعد العشاء ، وأعلن عن عزمه على الرحيل . أعلن ذلك بصوت أجش لرجل نصف سكران .

قال : « نلت ما يكفى من نورفولك . سأذهب الى المستر بيدوس فى هامشير . وانه ليسره أن يرانى ، كما سرك من قبل . يمكننى أن أقول ذلك . »

فقال ابى : « ارجو الا تكون راحلا عنا بنفس غاضبة ، ياهدسون ! » قال ابى هذا بطريقة جعلت دمى يغلى فى عروقى .

قال متجهما ، وهو ينظر ناحيتى : « لم أحظ باعتذارى . »

فقال ابى وهو يستدير نحوى : « هل لك أن تعلن انك عاملت هذا الرجل العظيم بخشونة ، يافيكتور ؟ »

كان جوابى هو : « على العكس . أرى أننا ، كلينا ، قد ابدينا نحوه صبرا غير عادى . »

فقال هدسون ساخرا : « نعم ، فعلتما ذلك ، فعلتماه . حسنا جدا يا زميلى . سوف ننظر فى هذا الامر ! » وخرج من الحجرة .. وبعد نصف ساعة غادر البيت ، تاركا والدى فى حالة عصبية يرثى لها . وبعد ذلك ، كنت اسمعه ليلة تلو أخرى ، يذرع أرض الحجرة . وعندما بدأ يستعيد ثقته بنفسه واطمئنانه ، نزلت الضربة أخيرا .

فسألته متلهفا : « كيف ؟ »

قال : « وصلنا خطاب باسم والدى ، بطريقة غير عادية على الاطلاق ، فى مساء أمس يحمل خاتم مكتب بريد فوردنجبريدج . فقرأه أبى وامسك راسه بكلتا يديه ، وأخذ يدور حول الحجرة فى دوائر صغيرة كرجل فقد عقله . وعندما أجلسته على الأريكة ، التوى فمه وأجفانه جميعا الى ناحية ، فأدركت أن ضربة أصابته . فجاء

الدكتور فوردهام على الفور ، وأرقدناه فى السرير غير أن الشلل انتشر فى كل جسمه ولم يبد أية أمارات للرجوع الى وعيه مرة أخرى . وأظننا قلما نجده حيا عند وصولنا . »

قلت صائحا : « انك لتفزعنى يا تريفور . ماذا يمكن أن يكون فى ذلك الخطاب ليسبب مثل هذه النتيجة المفزعة ؟ »

« لا شىء . هذا هو الجزء غير المفهوم . كانت الرسالة غامضة وتافهة . ولكن ، رباه ! حدث ما كنت أخشاه ! »

وبينما هو يقول ذلك ، درنا حول منعطف الطريق وأبصرنا النور الخافت الدال على اقفال كل شيش النوافذ . وعندما هرعنا الى الباب ، تشنج وجه صديقى ، اذ برز من الباب رجل يرتدى حلة سوداء .

فقال تريفور : « متى حدث ذلك ، يا دكتور ؟ »

« بعد أن انصرفت مباشرة تقريبا . »

« هل استعاد وعيه ؟ »

« لحظة واحدة قبل أن تأتى النهاية . »

« هل من رسالة لى ؟ »

« لا ، باستثناء أن الاوراق فى الدرج الخلفى للخزانة اليابانية. »

« صعد صديقى مع الطبيب الى الحجرة التى مات فيها والده ، بينما بقيت فى حجرة المكتب اقلب المسألة كلها فى رأسى ، واشعر باكتئاب لم أشعر بمثله طوال حياتى . ماذا كان ماضى تريفور هذا ؟ كان ملاكما ، وباحثا عن الذهب . ولكن كيف وضع نفسه تحت رحمة هذا البحار الكئيب الوجه ؟ ولماذا أغمى عليه عند التلميح بالحروف الاولى الموشومة على ذراعه ؟ ولماذا يموت خوفا عندما وصله خطاب من فوردنجبريدج ؟ ثم تذكرت أن فورد فى هامشير ، وأن المستر بيدوس ، الذى قال البحار انه ذاهب اليه ، ليبتزه على ما يبدو ، يعيش فى هامشير . اذن ، فالخطاب اما من هدسون البحار ، يقول انه أفشى السر الآثم الذى يبدو انه موجود ، أو من بيدوس يحذر به زميلا قديما بوقوع مثل هذه الخيانة . والى هنا يبدو الأمر واضحا . ولكن كيف يكون الخطاب تافها وغامضا ، كما وصفه الابن ؟ لابد انه أخطأ فى قراءته . واذا كان الامر كذلك ، فلابد أيضا انه مكتوب بالشفرة التى تبدو بمعنى بينما هى تقصد معنى آخر . يجب أن أرى ذلك الخطاب . فلو كان فيه اى معنى خفى ، فمن المؤكد اننى سأعرفه . جلست افكر فى الظلام لمدة ساعة حتى جاءتنى اخيرا احدى الخادمات

بمصباح ، وبعدها مباشرة جاء صديقى تريفور شاحب اللون ، ولكنه رابط الجأش ، ومعه هذه الاوراق ، التى على ركبتى ، وقد أمسكها فى يده . فجلس قبالتي وسحب المصباح الى حافة المائدة ، ناولني قطعة من الورق مكتوبة ، كما ترى ، على فرخ واحد من الورق الرمادى اللون ، مكتوب فيه : « يسير توريد طيور الصيد الى لندن سيرا متصلا . طلب من هدسون ، رئيس الحرس أن يتسلم جميع طلبات أوراق الذباب ، وللمحافظة على حياة دجاجات الدراج الخاصة بك . »

« أعترف بأن الحيرة بدت على وجهى ، كما بدت على وجهك عندما قرأت هذه الرسالة لأول مرة . ثم قرأتها ثانية بعناية وامعان . من الجلى أنها كانت كما فكرت ، ولو أن هناك معنى ثانيا يكمن وراء مجموعة الكلمات هذه . أيمكن ان يكونا قد اتفقا من قبل على معنى بعض العبارات ، مثل : « ورق الذباب » و « دجاجات الدراج » ؟ عادة ما تكون أمثال هذه العبارات عرفية يتفق عليها بين الطرفين ، ولا يمكن استنتاج معناها بأية وسيلة أخرى . ويبدو أن وضع اسم هدسون يدل على أن مضمون الرسالة يتعلق بالموضوع الذى سبق أن خمنته . ومن المرجح أنها صادرة من بيدوس ، وليست من البحار . حاولت أن أقرأها من آخرها الا أن عبارة « حياة دجاجات الدراج » لم تكن مشجعة ، ثم حاولت أن اقرأ كلمة وأترك أخرى ، ولكن دون جدوى ، اذ لم تتفق الكلمات : « توريد طيور الصيد ولندن » مع المعنى . ولكن بعد لحظة صار مفتاح اللغز فى يدى ، اذ وجدت أننى لو قرأت كلمة وتركت اثنتين ، لاتضحت الرسالة وأدت معنى ، ساق تريفور العجوز الى حالة من القنوط .

« كانت رسالة قصيرة تتضمن تحذيرا ، كما قراتها الآن لرفيقى :

« باح هدسون بكل شيء ، اهرب وانج بحياتك . »

« وضع فيكتور تريفور وجهه بين يديه المرتجفتين ، وقال : « أعتقد أنها لابد أن تكون كذلك . هذا أسوأ من الموت ، اذ يعنى العار أيضا ، ولكن ما معنى « رئيس الحرس » و « دجاجات الدراج ؟ »

« لا تعنى شيئا فى الرسالة ، ولكنها تعنى الكثير لنا ، اذا لم تكن لدينا وسيلة أخرى لمعرفة شخصية مرسلها . فقد وضع الكلمات التى يريدها تاركا بينها مسافات ، وأخيرا ملأ المسافات بأى كلمات

ليجعلها غامضة . هل تعرف أى شيء عن بيدوس هذا ؟ »
قال : « بما انك ذكرت اسمه ، فأنا أتذكر أن والدى المسكين تسلم ذات مرة دعوة منه لكى يذهب ويصيد فى أملاكه ، كل خريف . »
قلت : « اذن ، فلابد أن هذا الخطاب جاء منه . وما بقى علينا الا أن نعرف السر الذى يهدد به هدسون رأسى هذين الرجلين الشريين المحترمين . »
فقال صديقى : « للأسف ، يا هولمز . أخشى أن يكون سرا يجلب الاثم والعار ، ولكننى لن أخفى عنك سرا . هاك الاعتراف الذى كتبه عندما عرف أن الخطر أحدق به فعلا من هدسون . وجدته فى الخزانة اليابانية كما أخبر الطبيب . خذ الورقة هذه واقرأها لى ، اذ ليست لدى القوة ولا الشجاعة لان اقرأها بنفسى . »
« ها هى الاوراق نفسها ، يا واطسون ، التى أعطانيها تريفور . وسأقرؤها لك كما قرأتها له فى حجرة المكتب ، تلك الليلة ، وعليها عنوان من الخارج كما ترى : « بعض تفاصيل رحلة السفينة « جلوريا سكوت » منذ مغادرتها فالموث فى الثامن من أكتوبر سنة ١٨٥٥ الى أن تحطمت عند خط عرض ١٥ درجة وعشرين دقيقة شمالا ، وخط طول ٢٥ درجة واربع عشرة دقيقة غربا فى السادس من نوفمبر . وهذه التفاصيل فى صورة خطاب يحكيها هكذا :
« ابنى العزيز العزيز ـ بما أن العار المقبل قد بدأ الآن يلقى ظله القاتم على آخر سنى حياتى فبوسعى أن أكتب بكل صدق وأمانة . وان أحزن ما يحزننى ، وينهش قلبى ، ليس هو الخوف من القانون ولا فقدان مركزى فى المقاطعة ، ولا سقوطى فى عيون كل من عرفونى ، ولكنه التفكير فى أنك ستخجل من أجلى ـ أنت ، يا من تحبنى ، ويا من لم تفعل شيئا غير احترامى . ولكن ، اذا نزلت الضربة التى كانت مسلطة الى رأسى الى الأبد ، فاننى اريدك أن تقرأ هذا حتى تعرف منى مباشرة ، الى أى مدى يقع اللوم على . ومن ناحية أخرى ، اذا سار كل شيء على ما يرام (عسى أن يمنحنيه الله الرحيم القادر على كل شيء) . واذا لم تتلف هذه الورقة ، ووقعت فى يديك ، فانى استحلفك بكل ما هو مقدس لديك وغال ، وبذكرى أمك العزيزة ، وبالمحبة التى كانت بيننا ، أن تلقى بها فى النار ، والا تفكر فيها بعد ذلك .
« اذا ما وقعت عينك على هذا السطر ، فاعرف أننى انكشفت

واخرجت من بيتى ، أو ما هو اكثر توقعا - لانك تعرف أن قلبى ضعيف - يظل فمى مقفلا بالموت الى الأبد . وعلى أية حال ، فقد مضى زمن الشبهات وانقضى . وكل كلمة أقولها لك هى الحقيقة السافرة ، وانى لأقسم على هذا ، كما آمل فى الرحمة .

« ليس اسمى تريفور ، يا ولدى العزيز ، وانما جيمس أرميتادج ايام شبابى ، ويمكنك أن تفهم الآن سبب الصدمة التى أصابتنى منذ بضعة أسابيع عندما لمح صديقك فى الكلية ، المستر هولمز ، بما يفيد انه استنتج سرى . وقد دخلت أحد مصارف لندن باسم أرميتادج ، وبه أيضا أدنت بخرق قوانين بلادى ، فحكم على بالنفى الى خارج البلاد . لا تفكره فى بفلظة يا بنى كان ما يسمونه « دين شرف » هو الذى كان على أن أدفعه ، فدفعته من نقود ليست ملكى ، املا فى أن أضع بدلها قبل أن يعرف أحد نقصها . غير أن حظى البالغ التعاسة طاردنى . فلم تصلنى قط النقود التى كنت اعتمد عليها ، وحدث جرد فجائى للعهدة قبل الموعد المعتاد للجرد . فكشف العجز فى عهدتى ، وهو ما يسمونه بالاختلاس . وكان من الممكن تخفيف المحاكمة ، غير أن تطبيق القانون منذ ثلاثين عاما ، كان أقسى ، مما هو الآن . وفى عيد ميلادى الثالث والعشرين ، وجدت نفسى مكبلا بالسلاسل من اجل الاختلاس ، مع سبعة وثلاثين متهما آخرين ، وزج بنا فى الطابق الاوسط من السفينة جلوريا سكوت المسافرة الى استراليا . كان ذلك فى سنة ٥٥ وحرب شبه جزيرة القرم على اشدها . فاستعملت سفن نقل المساجين فى النقل الحربى بالبحر الاسود . وعلى ذلك اضطرت الحكومة أن تستخدم سفنا أصغر وأقل ملاءمة لنقل مساجينها . وكانت السفينة جلوريا سكوت تعمل فى تجارة الشاى الصينى ، غير أنها كانت سفينة عتيقة الطراز ثقيلة الحيزوم عريضة الكتل المستعرضة وقد تفوقت عليها السفن الشراعية الحديثة .. كانت حمولتها ٥٠٠ طن . وعلاوة على الثمانية والثلاثين سجينا الذين بها ، كانت تحمل ٢٦ بحارا ، ١٨ جنديا ، وربانا وثلاثة ضباط ، وطبيبا وكاهنا . أى كان بها حوالى مائة شخص ، عندما أقلعت بنا من فالموث .

وبدلا من أن تكون الحواجز بين زنزانات المساجين ، من خشب البلوط السميك كما هو الحال فى السفن العادية المخصصة لنقل المساجين ، كانت رفيعة وهشة .. كان الرجل السجين الذى الى

جانب زنزانتي من ناحية مؤخرة السفينة ، هو من لاحظته بنوع خاص حينما قادونا الى رصيف الميناء . كان شابا أبلج الوجه لم يطر شاربه بعد ، ذا أنف طويل رفيع وفكين بارزين ، يرفع رأسه دائما عاليا في الهواء ، ويترنح في مشيته . وفوق كل شيء كان فارع الطول بطريقة ملحوظة . ولا أظن أن رأس أي واحد منا كان يصل الى كتفه . وانني لعلى يقين من أن طوله لا يقل عن ست أقدام ونصف . ومن الغريب أن ترى بين العديد من الوجوه الحزينة المكدودة ، وجها مملوءا نشاطا وعزيمة مثل وجه ذلك الرجل . لاح لي وجهه كالنار في مهب العاصفة. لذا سرني أن يكون جاري ، وسرني أكثر حينما سمعته في هداة الليل البهيم يهمس الى جانب أذني بعد ان ثقب فتحة في الالواح الفاصلة بيننا .

قال : « هالو ، أيها الزميل . ما اسمك ، ولماذا انت هنا ؟ »

« فأجبته على سؤاله ، وسألته بدوري عن اسمه »

قال : « أنا جاك بندرجاست ، وأقسم بالله على انك ستبارك اسمي قبل ان تعمل معي ! »

« تذكرت انني سمعت عن قضيته ، اذ هزت البلاد كلها قبل القبض على بوقت ما . . انحدر هذا الرجل من اسرة طيبة ، وكان ذا كفاءة عالية ، الا أن عاداته الخبيثة الشريرة لم تكن قابلة للشفاء حصل بالتزييف البارع المتقن على مبالغ ضخمة من المال : من أشهر تجار لندن .

قال مزهوا « « أتتذكر قضيتي ؟ »

« أتذكرها جيدا جدا . »

« اذن ، فربما تذكرت شيئا غريبا فيها ؟ »

« وما ذلك الشيء الغريب فيها ؟ »

« انني حصلت على ربع مليون تقريبا . أتعرف ذلك ؟ »

« هكذا قيل . »

« ولكنهم لم يستعيدوا منها شيئا . »

« هذا صحيح . »

قال : « اذن ، فأين تعتقد وجود الرصيد ؟ »

قلت : « ليست عندي اية فكرة عنه . »

قال : « انه بين اصبعيك السبابة والابهام . أقسم بالله على أن لي باسمي عددا من الجنيهات أكثر مما في رأسك من شعر . وطالما

معك نقود يا ولدى ، وتعرف كيف تديرها وتنفقها ، فبوسعك أن تفعل شيئا ! وانك لا تعتقد ان الرجل الذى بوسعه أن يفعل شيئا ، سيبلى بنطلونه جالسا داخل زنزانته العفنة الرائحة والمليئة بالجرذان والخنافس ، في نعش عتيق لسفينة صينية ؟ كلا يا سيدى . مثل هذا الرجل ، لابد أن ينظر فى صالح نفسه وفى صالح زملائه أيضا . يمكنك الاعتماد على فى ذلك . تمسك بهذا الرجل ، وسوف تقبل الكتاب المقدس ، لأنه سينتشلك من هذه الاستكانة . »

« هكذا كان أسلوب كلام ذلك الرجل ، وظننت كلامه ، فى بادىء الامر ، لا يعنى شيئا ، ولكن بعد فترة قصيرة ، وبعد أن اختبرنى وضمنى اليه بأن جعلنى أقسم بأغلظ الأيمان ، على الولاء له ، أخبرنى بأن هناك خطة للاستيلاء والسيطرة على السفينة .. دبر هذه الخطة اثنا عشر مسجونا قبل المجىء الى ظهر هذه السفينة . كان بندرجاست هو الزعيم ، ونقوده هى القوة المحركة لها .

قال : « لى شريك نادر المثال وأمين ووفى كألواح الناجود .. الخطط معه ، ولكن أين تظنها موجودة فى هذه اللحظة ؟ مع كاهن هذه السفينة ـ الكاهن ، ولا اقل منه ! جاء الى ظهر هذه السفينة مرتديا معطفا اسود ، ومعـه الأوراق ، وما يكفى من النقود فى صندوق ، ليشترى السفينة من قاعها آلى أعلاها . كما ان البحارة ملء يديه جسما وروحا ، وقد اشتراهم فعـلا قبل تعيين اى واحـد منهم بالسفينة . ولديه اثنان من السجانين ، والضابط الثانى ميرسيه ، ويمكنه الحصول على الربان نفسه لو رأى ضرورة لذلك . »

قلت : « وماذا سنفعل ، اذا ؟ »

قال : « ماذا تظن ؟ سنجعل جاكتات هؤلاء الجنود أشد حمرة مما جعلها الخياط . »

قلت : « ولكنهم مسلحون . »

« وهكذا سنكون نحن ، يابنى . هنا حزام مسدسات لكل ابن أنثى منا . واذا لم نستطع حمل هذه السفينة بتعضيد البحارة ، عندئذ يحين الوقت الذى نرسل فيه الى مدرسة الفتيات الصغيرات الداخلية .. تحدث الى جارك الذى على يسارك ، فى هذه الليلة ، وانظر ما اذا يمكن الوثوق به . »

« فعلت حسب مشورته ، فوجدت جارى شابا صغير السن فى نفس موقفى . كانت جريمته التزييف واسمه ايفانس ، ولـكنه غير

اسمه فيما بعد ، مثلى . وهو الآن رجل غنى فى جنوب انجلترا . كان على استعداد تام للانضمام الى تلك المؤامرة كوسيلة وحيدة لانقاذنا . وقبل أن نعبر الخليج لم يكن خارج هذه المؤامرة سوى اثنين فقط ، أحدهما ضعيف العقل ، ولم نستطع المجازفة بالاعتماد عليه . أما الآخر فكان مريضا بالصفراء ولا يمكن أن يكون ذا فائدة لنا.

« الحقيقة أنه ، منذ البداية ، ما كان هناك عائق ليقف أمام استيلائنا على السفينة . فالبحارة مجموعة من الفتوات الاقوياء اختيروا لهذا الفرض وأما الكاهن المزيف ، فكان يأتى الى زنزاناتنا يحمل حقيبة سوداء ، كان المفروض أن تكون مليئة بالنشرات الدينية. وكان يزورنا كثيرا ، حتى انه لم يأت اليوم الثالث الا وقد خبأ كل واحد منا عند مؤخر سريره ، مبردا وحزام مسدسات ورطلا من البارود وعشرين طلقة . وكان اثنان من حراس السجن من أتباع برندرجاست ، وكان الضابط البحرى الثانى يده اليمنى . ولم يكن ضدنا سوى الربان والضابطين البحريين الآخرين واثنين من حرس السجن والملازم أول مارتين وجنوده الثمانية عشر والطبيب . ورغم اطمئناننا لسلامة خططنا ، فاننا لم نهمل بأية احتياطات وعملنا ترتيبنا على القيام بهجومنا فجأة أثناء الليل . بيد أن الهجوم جاء بأسرع ما كنا نتوقع ، جاء بهذه الطريقة .

« ذات مساء ، بعد حوالى ثلاثة أسابيع من بدء رحلتنا ، جاء الطبيب ليعود مسجونا مريضا . وبينما هو يفحصه ، وضع يده عند مؤخر السرير فأحس بانبعاج الفراش فوق المسدسات . ولو سكت الطبيب لكان من الممكن أن ينسف كل خططنا من أساسها ، ولكنه كان شابا صغير السن وعصبيا ، فأطلق صيحة الدهشة ، وامتقع لونه ، فعرف الرجل من فوره ماذا سيحدث ، فقبض على الطبيب وكمم فمه وربطه فى السرير قبل أن يرسل انذارا . وكان قد فتح قفل الباب المؤدى الى ظهر السفينة ، فاندفعنا خلاله جميعا وأطلقنا الرصاص على الديدبانيين فقتلناهما . وكذلك فعلنا بجندى برتبة عريف جاء يجرى ليرى ماذا حدث ، ثم فعلنا نفس الشيء بجنديين آخرين عند باب حجرة القيادة بدا أن قذافتيهما غير معبأتين بالرصاص ، اذ لم يطلقا الرصاص علينا ، فقتلناهما وهما يحاولان تثبيت السنكى . ثم اندفعنا الى داخل كابينة الربان . ولكن عندما دفعنا الباب لنفتحه سمعنا انفجارا من الداخل وقد انكفأ الربان برأسه فوق خريطة

الاطلنطي الملصقة بالنضد ، وابصرنا الكاهن واقفا الى جانبه وفى يده مسدس ينبعث منه الدخان بجانب ذراع الربان . اما الضابطان البحريان كلاهما ، فقبض عليهما البحارة وهكذا بدا ان المؤامرة كلها قد نفذت تماما .

« كانت حجرة القيادة بجانب كابينة الربان ، فتجمعنا فيها وجلسنا علي المقاعد نتحدث معا ، اذ كنا فى غمرة جنون الاحساس بحريتنا مرة أخرى . وكان حول حوائط تلك الحجرة خزانات صغيرة ، ففتح ويلسون هو الكاهن المزيف ، خزانة منها وأخرج اثنى عشرة زجاجة من نبيذ الشرى البنى اللون ، كسرنا أعناقها وافرغنا محتوياتها فى أكواب . وبينما نحن كذلك اذ بصوت اطلاق الرصاص يدوى ، دون سابق انذار ، أطلق الجنود رصاص قذأفاتهم على زملائنا ، وامتلأ الصالون بالدخان حتى تعذرت علينا الرؤية وراء النضد . وبعد أن انقشع الدخان شاهدنا المكان فوضى . كان ويلسون وثمانية آخرون يتلوون واحدا فوق الآخر على الارض ، واختلط الدم بالنبيذ البنى فوق النضد ، الأمر الذى يقشعر له بدنى كلما فكرت فيه بعد ذلك .. فخارت عزائمنا حتى خيل الى اننا لابد ان نستسلم ، لولا برندرجاست الذى أخذ يصرخ كالثور واندفع نحو الباب يتبعه كل من كان حيا منا . فجرينا خارجا حيث أبصرنا الملازم أول وعشرة من رجاله واقفين عند مؤخرة السفينة . وكانت فتحة التهوية التى فوق النضد مفتوحة قليلا . فأخذ الجنود يطلقون علينا الرصاص من خلالها . فانقضضنا عليهم قبل أن يعيدوا تعبئة قذافاتهم بالرصاص. غير انهم وقفوا وقفة الرجال رغم انتصارنا عليهم .

« انتهى كل شيء فى مدى خمس دقائق . يا الهى ! هل يوجد فى العالم كله مجزر مثل مجزر تلك السفينة ؟ كان برندرجاست اشبه بشيطان ثائر ، شرع يمسك الجنود بيديه ، كما لو كانوا اطفالا ، ويلقى بهم فى اليم ، أحياء أو أموات . وكان هناك جندى باسل برتبة عريف ، قد جرح جرحا بليغا ، ولكنه رغم هذا ، استمر يسبح عسى ان ياتى الوقت الملائم فيبقى على حياته ، غير أن أحد رجالنا اشفق عليه ونسف مخه .. وعندما انتهى القتال ، لم يبق هناك احد من الاعداء سوى حارسى السجن والضباط البحريين ، والطبيب .

« دارت المعركة الكبرى مع هؤلاء ، وخرج كثير منا ونحن

نشعر باستعادة حريتنا . ومع ذلك ، فلم تكن لنا رغبة فى أن توصم نفوسنا بالقتل .. يختلف قتل الجنود المسلحين بالقذائف عن قتل هؤلاء وهم عزل من السلاح . قال ثمانية منا : خمسة مساجين وثلاثة بحارة انهم لا يرون تنفيذ ذلك . ولكن ما من شيء كان يثني برندرجاست ومن معه عن عزمهم . فقال برندرجاست : ليس هناك سوى طريق واحد للنجاة ، وهو التخلص من كل أعدائنا كيلا يبقى لسان واحد يشهد ضدنا . قال عليكم اما أن تقاسموا الباقين نصيبهم واما أن تأخذوا قاربا وتغادروا السفينة. فاخترنا العرض الاخير اذ برمنا بأعمال القتل هذه كلها ، ورأينا أن سيكون هناك ما هو أسوأ قبل تنفيذ ذلك . فزودنا بما يحتاج اليه البحارة فى البحر : ناجود من الماء وصندوق من الحبال وآخر من البسكويت وبوصلة وخريطة . وأوصانا بأن نقول اننا الناجون من بحارة سفينة ركاب تحطمت فى عرض البحر عند خط عرض ١٥ درجة شمالا وخط طول ٢٥ درجة غربا ، ثم أطلق القارب . وهكذا انفصلنا عن السفينة وعنهم .

« والان أكتب أكثر أجزاء قصتي مدعاة الى الدهشة ، يا ولدى العزيز . كان البحارة قد طووا الشراع الامامى وقت الثوران ، ولكنهم عادوا فنشروه ثانية . ولما كانت هناك ريح خفيفة آتية من الشمال والشرق ، أخذت السفينة تبتعد عنا ببطء ، وشرع قاربنا يرتفع ويهبط مع الامواج الطويلة . وكنت أنا وايفانز أكثر من فى القارب تعلما ، فجلسنا ندرس الخريطة لنعرف موضعنا عليها ونقرر الى أى شاطىء نتجه . كان هذا عملا شاقا اذ كان كاب دى فير يبعد عنا بحوالى ٥٠٠ ميل الى الشمال منا ، بينما كان الساحل الافريقي على مسافة ٧٠٠ ميل شرقينا . وعلى أية حال ، لما هبت الريح الى الشمال ، رأينا أن سيراليون قد تكون انسب ما نتجه نحوه ، فأدرنا مقدم قاربنا فى ذلك الاتجاه . وكانت السفينة ، فى ذلك الوقت قد بعدت عنا ومؤخرها عند جانبنا المواجه للريح . وفجأة ، ونحن ننظر اليها ، اذ بنا نبصر سحابة كثيفة من الدخان الاسود تنطلق منها وتخيم كشجرة عملاقة على أفق السماء . وبعد ذلك ببضع ثوان سمعنا صوت انفجار يدوى فى آذاننا كالرعد . وبعد أن خفت حدة الدخان ، لم نر أى أثر للسفينة جلورياسكوت . وفى لحظة ، أدرنا مقدم القارب ثانية نحو مكان السفينة ونحن نجدف

بكل قوتنا ، بينما الضباب المنتشر هناك يبين لنا مسرح تلك الكارثة .

« بقينا ساعة طويلة قبل أن نصل الى ذلك المكان ، وخشينا أن يكون قد فات أوان انقاذ أى شخص . كان هناك قارب ممزق ، وبعض الصناديق ، وقطع من الاخشاب ، تعلو وتنخفض طافية فوق الامواج مبينة الموضع الذى غاصت فيه السفينة . غير أنه لم يكن هناك أى دليل على وجود حياة . فاستدرنا بعيدا يائسين ، فاذا بنا نسمع صرخة استغاثة وابصرنا على مسافة منا قطعة من الحطام يرقد فوقها رجل . ولما جذبناه الى داخل القارب ، رأيناه بحارا صغير السن اسمه هدسون يعانى من الحروق وهو منهوك القوى لدرجة أنه لم يرو لنا ما حدث الا فى صباح اليوم التالى .

« يبدو أنه بعد ان غادرنا السفينة ، أخذ برندرجاست وعصابته يقتلون الاعداء الخمسة الباقين . فقتلوا حارسى السجن والضابط البحرى الثالث وألقوا بجثثهم فى البحر . ثم نزل برندرجاست بين السطحين وذبح بيده الطبيب السيىء الحظ . لم يبق سوى الضابط البحرى الاول الذى كان جريئا ونشيطا . فعندما أبصر ذلك المسجون قادما نحوه وفى يده السكين القاتلة ، تخلص من قيوده التى خففها قبل ذلك بطريقة ما ، واندفع هابطا تحت السطح الى العنبر الخلفى .

« نزل خلفه اثنا عشر مسجونا شاهرين مسدساتهم فوجدوه ممسكا فى يده علبة ثقاب وقد أخرج منها عودا ، وجالسا الى جانب ناجود بارود مفتوح ، كان واحدا من مائة ناجود بارود تحملها السفينة . فأقسم ذلك الضابط على أن ينسف السفينة بمن فيها وما فيها اذا تعرض له أى شخص بأية حال من الأحوال . وبعد لحظة حدث الانفجار . هذا ، ولو أن هدسون كان يعتقد أن الانفجار حدث بسبب رصاصة طائشة أطلقها أحد المساجين على الضابط البحرى وليس من الثقاب الذى اشعله ذلك الضابط . ومهما يكن السبب ، فهكذا كانت نهاية جلورباسكوت وطائفة الطغاة الذين استولوا عليها .

« هذا ، باختصار ، يا ولدى العزيز ، هو تاريخ ذلك العمل

المريع الذى اشتركت فيه . وفى اليوم الثانى ، التقطتنا سفينة الركاب الكبيرة هوتسبير المتجهة الى استراليا ، والتى لم يجد ربانها مشقة فى تصديق أننا الاحياء من سفينة ركاب غرقت .. أما وزارة البحرية فسجلت سفينة النقل جلوريا سكوت على أنها مفقودة فى البحر . ولم تتسرب أية كلمة عن مصيرها الحقيقى . وبعد رحلة موفقة ، رست السفينة هوتسبير على ميناء سيدنى حيث غيرت أنا وايفانز اسمينا وشققنا طريقنا الى مواضع الحفر بحثا عن الذهب وهناك لم نجد صعوبة فى تغيير اسمينا السابقين وسط كل تلك الحشود الكبيرة المجتمعة هناك والقادمة من جميع دول العالم .

« لا حاجة بى أن أحكى بقية القصة .. اثرينا وجمعنا ثروة طائلة من الحفر عن الذهب وسافرنا عائدين ثانية الى انجلترا كرجلين من أغنياء المستعمرات ، واشترينا مزارع ريفية . وقضينا أكثر من عشرين عاما فى حياة هادئة هانئة آملين فى نسيان ماضينا الى الأبد. ويمكنك أن تتصور مشاعرى عندما جاء الينا ذلك البحار اللعين وتعرفت عليه فى الحال ، ذلك الذى انتشلناه من بين حطام السفينة وانقذنا حياته ! لقد اقتفى أثرنا بطريقة ما ووطد نفسه على أن يعيش على مخاوفنا . ستفهم الآن ، يا ولدى ، كيف اجتهدت فى اكرامه وارضائه ولابد انك سترثى من أجل الخوف الذى يملؤنى الآن بعد أن تركنى ذاهبا الى ضحيته الاخرى وهو يهدد ويتوعد .

« كتب فى آخر الخطاب عبارة بيد مرتجفة قلما تمكن قراءة كلماتها : « كتب لى بيدوس بالشفرة ، أن هـ باح بكل شىء .. ارحمنا ، أيها الاله الرحيم ! »

« هذه هى القصة التى قرأتها فى تلك الليلة الى صديقى تريفور . وأعتقد ، يا واطسون ، أنها فى تلك الظروف قصة درامية . فانكسر قلب ذلك الصديق الطيب ، ورحل الى مزارع الشاى فى تيراى حيث علمت أنه جمع ثروة كبيرة . أما عن أمر البحار وبيدوس ، فلم أسمع شيئا بعد ذلك اليوم الذى كتب فيه بيدوس خطاب التحذير . اختفى كل منهما تماما . ولم تقدم أية شكوى للبوليس . ويبدو أن بيدوس فهم التهديد خطأ على أنه سيفضحه

.. روى هدسون يتسكع فى تلك المنطقة . ويعتقد البوليس أن هدسون قتل بيدوس واستولى على أمواله . أما أنا شخصيا ، فأعتقد أن الحقيقة هي العكس تماما . أرى من المحتمل جدا ، أن بيدوس أثير الى درجة الهياج . واذ أعتقد أن هدسون خانه فعلا وأفشى سره ، انتقم لنفسه منه ، وهرب من المنطقة بكل ما أمكن أن تقع عليه يده من أموال .

« هذه هى حقائق القضية ، يا دكتور واطسون ، واذا رأيت أنها تفيد مجموعتك ، فاعلم إنها تحت أمرك واذنك ، عن طيب خاطر . »

تراث عائلة مسجريف

لفت انتباهي نشاز في عادات صديقي شرلوك هولمز . فرغم انه ، من حيث تفكيره ، أدق واضبط البشر جميعا ، ورغم كونه يراعي رقة هادئة معينة في ملبسه ، فانه في ناحية عدم ترتيبه أدواته وامتعته ، اكثر رجل لفت نظر رفيقه في المسكن . ولو أنني ، انا نفسي ، لست مثاليا في هذه الناحية بالذات ، فان العمل المضطرب في أفغانستان ، الذي يأتي في قمة البوهيمية الطبيعية للتكون الخلقي ، جعلني اتراخى بما لا يليق برجل الطب . ولكن هناك حدودا لكل شيء . فعندما اجد رجلا يضع السيجار في صندوق رسائله التي لم يرد عليها بسكين الخطابات في وسط رف الوطيس ، عندئذ اضفي على نفسي صفات حميدة . كذلك كنت ارى ان التمرين بالمسدس يجب أن يكون هواية تمارس في الخلاء . وعندما يجلس هولمز ، في احدى نزعاته الغريبة ، على مقعده ذي المتاكيء ، ومعه مسدسه الدقيق ومائة خرطوشة ثم يشرع في تزيين الحائط المقابل له بالحروف الوطنية ، ينقشها بثقوب الرصاص ، فانني اشعر شعورا قويا بأن جو حجرتنا ومنظرها لم يتحسنا بهذه الحروف اطلاقا .

تمتليء حجراتنا دائما بالمواد الكيميائية ، وببقايا محرزات الجرائم التي دابت على ان تنتقل الى اى موضع يعجبها ، كالدخول في طبق الزبد او في الاماكن التي لا نحتاج اليها كثيرا ، غير ان اوراقه كانت شغلي الشاغل . كان يشمئز من اتلاف المستندات ولا سيما ما كان منها ذا صلة بقضاياه الماضية . ومع ذلك ، فمرة واحدة في كل سنة أو سنتين ، يخصص جزءا من نشاطه كي يجلس ويرتب هذه الأوراق فكما سبق أن قلت انه اذا بذل مجهودا جبارا في قضية ما من قضاياه التي لمع اسمه فيها ، فانه يتبع ذلك الجهد بشيء من

التراخي والكسل . فتراه يستلقي على الأريكة أو الفراش ويمسك قيثارته وقلما تتحرك كتبه الا من الاريكة الى النضد .. وهكذا تتراكم أوراقه شهرا بعد شهر حتى يمتلىء كل ركن من أركان الحجرات بحزم المخطوطات التى لا يمكن أن تحرق مهما تكن الأسباب والتى لا يمكن أن تنتقل من موضعها الا بيد صاحبها .

بينما كنا جالسين معا فى احدى ليالى الشتاء ، نصطلى نار الوطيس ، اقترحت عليه ، بما أنه قد انتهى من الصاق المقتطفات فى دفتره العادى . فمن الممكن أن يقضى الساعتين التاليتين فى ترتيب حجرتنا وجعلها أكثر صلاحية للسكنى . فلم يستطع انكار عدالة مطلبى . وهكذا ذهب الى حجرة نومه بوجه مكتئب ثم رجع منها يجر خلفه صندوقا ضخما من المعدن الى أن وضعه فى وسط الحجرة . وجلس القرفصاء أمام الصندوق ، على مقعد منخفض ، وفتح غطاءه الى الخلف . وكان بوسعى أن أرى الصندوق مملوءا الى ثلثه بحزم من الأوراق مربوطة بشريط أحمر ، فى حزم متفرقة .

قال وهو ينظر الى بعينين فيهما بعض الدهاء : « هنا ما يكفى من القضايا ، يا واطسون . أعتقد أنك اذا عرفت كل ما لدى فى هذا الصندوق ، لطلبت منى اخراج بعضه بدلا من وضع حزم أخرى فيه .

قلت : « اذن ، فهل فيه سجلات أولى قضاياك ؟ كم ارغب فى تدوين مذكرات عن تلك القضايا ! »

قال وهو يرفع حزمة بعد أخرى بعناية ورفق : « نعم ، يا ولدى ، عملت هذه كلها فى أوليات مدد اشتغالى بهذه المهنة ، وقبل أن يمجدنى كاتب تاريخ حياتى .. لم تكلل جميع هذه القضايا بالنجاح يا واطسون بل يوجد بينها بعض مشاكل بسيطة : فهذه الحزمة سجل مقتل تارليتون . وهذه قضية فامبرى تاجر الخمور ، وهذه مغامرة العجوز الروسية ، وهذه القضية الفريدة للعكاز المصنوع من الالومنيوم ، وهذه الحزمة سجل كامل لعامل النادى ريكوليتى وزوجته المقيتة . وهذه ــ آه ! هذه حقا ، شىء عبارة عن بحث صغير . »

ادخل هولمز ذراعه الى قاع الصندوق ، وأخرج صندوقا خشبيا صغيرا ذا غطاء منزلق كالصناديق آلتى تحفظ فيها لعب الاطفال . وأخرج قطعة ورق مفضنة ومفتاحا من النحاس الاصفر عتيق الطراز ، واصبعا خشبية تتصل بكرة من الدوبارة ، وثلاثة أقراص معدنية عتيقة صدئة .

سألنى هولمز وهو يبتسم لما رآه فى وجهى من ملامح معبرة ، فقال : « والآن ، يا غلامى ، ماذا تستنتج من هذه المجموعة ؟ »

« انها مجموعة غريبة . »

« غريبة جدا ، وأغرب منها قصتها التى لابد أن تذهلك اكثر منها . »

« اذن ، فلهذه البقايا تاريخ ؟ »

« نعم ، لها تاريخ أى تاريخ ، جعلها هى نفسها ، تاريخا . »

« ماذا تعنى بذلك ؟ »

أخرج شرلوك هولمز تلك البقايا ووضعها عند حافة النضد ، ثم نهض فجلس على كرسيه وأعاد النظر اليها ، وفى عينيه بريق الرضا .

قال : « هذه هى كل ما تبقى عندى ليذكرنى بحلقة « تراث عائلة مسجريف . »

سبق لى أن سمعت هولمز يذكر هذه القضية أكثر من مرة ، ولو اننى لم أتمكن من معرفة التفاصيل

قلت : « يسرنى أن ترويها لى . »

قال بخبث : « وتترك القمامة لى ؟ لن يتطلب الترتيب جهدا كبيرا ، يا واطسون .. ولكن يسرنى أن تضيف هذه القضية الى مذكراتك اذ فيها بعض نقاط تجعلها طريفة جدا فى تاريخ الجريمة لهذه المملكة ، أو كما أعتقد لجميع دول العالم . فمجموعة أعمالى التافهة لا تكون كاملة الا اذا تضمنت هذه القضية البالغة الغرابة .

« قد تتذكر قضية السفينة جلوريا سكوت ، وحديثى الى الرجل التعيس الذى أخبرتك بمصيره الذى حول اتجاهى الى هذه المهنة فصارت كل عمل حياتى . ترانى الآن وقد صار اسمى ذائع الصيت فى طول البلاد وعرضها . وعندما صار الجمهور والقوات الحكومية يعرفوننى بأننى محكمة الاستئناف الاخيرة فى القضايا المشكوك فيها . وحتى عندما عرفتنى فى بادىء الأمر فى القضية التى تعرفها بموضوع « دراسة بالدم » ، كونت علاقات كثيرة ، ولو انها ليست ممتازة . قلما يمكنك ان تدرك كيف وجدتها أولا ، وكم كان على أن أنتظر قبل ان نجحت فى تقدمى .

« عندما جئت الى لندن لأول مرة ، اقمت فى شقة بشارع مونتاج عند منعطف الطريق المؤدى الى المتحف البريطانى ، وبقيت هناك املأ أوقات فراغى أدرس جميع فروع تلك العلوم التى قد

تجعلنى اكثر كفاءة . ومن آن الى آخر ، كانت تقابلنى قضايا يأتينى بها زملائى الطلبة اذ كثر الحديث عني وعن طرق تفكيرى وانا فى السنة النهائية بالجامعة . وثالث هذه القضايا هى قضية « تراث عائلة مسجريف . » وبفضل المتعة التى أثارتها سلسلة الاحداث الطريفة والنتائج العظمى التى ثبت أنها فى خطر ، تقدمت نحو المركز الذى احظى به الآن .

« كان ريجينالد مسجريف ، طالبا بنفس كليتي وكانت تربطنى به صداقة بسيطة ، ولم يكن هو ، على العموم ، ذائع الصيت بين زملائه ، ولو أنه بدا لى دائما ، أن ما يعتبره الانسان فخرا ، ليس فى الحقيقة سوى محاولة لتغطية منتهى عدم الثقة بالنفس الطبيعية . كان فى مظهره رجلا من النوع البالغ الارستوقراطية ، نحيل الجسم ، شامخ الأنف ، واسع العينين ، يتحلي بأخلاق عالية . كان فى الحقيقة سليل اسرة من أعرق الاسر فى المملكة ، ولو أن الفرع الذي نبت منه انفصل عن الجذع الاصلى الأسرة مسجريف الشمالية فى وقت ما من القرن السادس عشر ، وركز نفسه فى وسترن ساسكس ، حيث يحتمل أن يكون بيت هيرلستون هو أقدم البيوت المسكونة فى المملكة يبدو أن شيئا عن مسقط رأس هذا الرجل قد التصق به . ولم انظر قط الى وجهه الحاد المتقع اللون ، ولا الى وضعة رأسه ، دون أن افكر فى وجود علاقة بينه وبين البواكى الرمادية ، والنوافذ المقسمة بحواجز ، وكل الحطام المحترم لعهد الاقطاع . كنا نتحدث بين آونة واخرى ، وبوسعى أن اتذكر أنه عبر ، ذات مرة ، عن اعجابه البالغ بطرق ملاحظاتى واستدلالى .

« لم اره مدة أربع سنوات ، الى أن جاء ذات صباح الى حجرتى فى شارع مونتاج . لم يتغير الا تغيرا طفيفا ، فى ملابس شاب أنيق ، والحق يقال انه كان أنيقا فى ملبسه دائما ــ ويحتفظ بنفس الأخلاق الهادئة التى كانت تميزه من قبل .

وبعد أن حييته بيدى ورحبت به ترحيبا حارا ، قلت له :

« كيف الأحوال معك يا مسجريف ؟ »

قال : « من المحتمل انك سمعت عن مقتل والدى المسكين . مات منذ سنتين ومنذ ذلك الوقت تحملت مسئولية ممتلكات هيرلستون وانا عضو نائب عن منطقتى ، لذا تجد حياتى مشغولة باستمرار . ولكنى افهم ، يا هولمز انك استخدمت تلك المواهب التى طالما ادهشتنا بها ، فى أغراض عملية . »

قلت : « نعم ، اعيش الآن بواسطة ذكائى . »

« يسرنى أن اسمع ذلك ، وستكون نصيحتك لى الآن عظيمة القيمة . . حدثت أمور غريبة جدا فى هيرلستون ، ولم يستطع البوليس القاء أى ضوء على الموضوع . الحقيقة انها مسالة غريبة جدا ومتعذرة التفسير . »

« يمكنك أن تتصور ، يا واطسون ، مبلغ شوقى ولهفتى الى الاستماع اليه ، لأن الفرصة الوحيدة التى كنت انتظرها طوال شهور راحتى ، قد جاءتنى تسعى وصارت فى متناول يدى . كنت اومن فى أعماق قلبى بأننى سأنجح حيث أخفق غيرى ، وها هى فرصة اختبار نفسى ماثلة أمامى .

« جلس ريجينالد مسجريف قبالتى ، واشعل سيجارة قدمتها اليه .

قال : « يجب أن تعلم اننى رغم كونى اعزب ، فاننى ملزم بالاحتفاظ بعدد كبير من الخدم فى هيرلستون لأنه قصر قديم مترامى الأطراف ويحتاج الى عناية كبيرة . كما اننى أقيم دائما حفلات منزلية فى شهور صيد الدراج . لذا عندى باستمرار ثمانى خادمات وطاه وسفرجى وخادمان وغلام صغير . وهذا ، بالطبع ، بخلاف خدم الاسطبل والحديقة .

« ومن بين خدمنا رجل يدعى برنتون يعمل سفرجيا ، وله عندنا اطول مدة . كان مدرسا شابا صغير السن . فلما تعطل عن العمل أخذه والدى سفرجيا عنده . والحقيقة انه رجل عظيم النشاط والشخصية . وسرعان ما صار رجلا بالغ القيمة وسط الخدم فى منزلنا . وكان كامل الرجولة أنيق الهندام ذا جبين شامخ . ورغم كونه معنا لمدة عشرين سنة فان عمره الآن لا يزيد على أربعين سنة ويتحلى بميزات شخصية ومواهب خارقة . فيستطيع أن يتكلم عدة لغات ويعزف على جميع الآلات الموسيقية تقريبا . ومن الغريب أنه قانع بمثل هذا العمل طوال العشرين سنة ، ولكنى أعتقد انه مرتاح ولا يفكر فى تغيير عمله . وان سفرجى هيرلستون هذا شخصية لا ينساها كل من زارنا .

« غير أن هناك عيبا واحدا فى ذلك الشخص المثالى . فهو زير نساء (دون جوان) وبوسعك ان تتصور أن دورا كهذا ليس من الصعب القيام به فى منطقة ريفية هادئة .

« لما كان متزوجا ، كان حسن السير والسلوك فى هذه الناحية .

ولكنه منذ أن ترمل سبب لنا متاعب لا حد لها . فمنذ بضعة شهور ، راودنا الامل فى أنه سيستقر مرة أخرى اذ خطب راشيل هويل ، خادمتنا الثانية . غير انه تركها وخطب جانيت تريجالا ابنة رئيس شئون الصيد . وراشيل هذه فتاة طيبة جدا رغم مزاجها السريع الاثارة الخاص بأهل ويلز . وأخيرا أصيبت بلمسة حادة من الحمى المخية فأخذت تدور فى أنحاء البيت ـ وظلت كذلك حتى أمس ـ كانت هذه أول دراما فى هيرلستون . ولكن حدثت دراما أخرى محت الدراما الاولى من عقولنا ، مقدمتها عار برنتون السفرجى بمنزلنا ، وفصله من الخدمة .

« حدث هذا كما يأتى : قلت ان ذلك الرجل بالغ الذكاء ، وان هذا الذكاء المفرط نفسه ، هو الذى كان سبب خرابه ، اذ يبدو أنه ساقه الى فضول لا يمكن اشباعه ، عن أشياء لا تخصه أو تهمه فى كثير أو قليل . لم تكن عندى أية فكرة عن أى مدى سيحمله هذا ، حتى فتحت عينى الى ذلك بمحض الصدفة .

« قلت ان البيت واسع . وفى احدى ليالى الاسبوع الماضى ـ فى ليلة الخميس ، لأكون أكثر دقة ـ انتابنى أرق أقض مضجعى ونفى النوم عن عينى ، اذ تناولت ، بغباء ، فنجانة من القهـوة السوداء (الثقيلة) بعد العشاء . وبعد أن ناضلت ضد ذلك الأرق حتى الساعة الثانية صباحا ، لم أجد فائدة من محاولة النوم . ولذا ، نهضت وأوقدت شمعة بهدف اكمال رواية كنت بدأت قراءتها . وكان الكتاب فى حجرة البلياردو . وعلى هذا ، لبست الروب وخرجت لاحضاره.

« لكى أصل الى حجرة البلياردو كان على أن أهبط سلما ، ثم أعبر ممرا يؤدى الى المكتبة والى حجرة الاسلحة . وبوسعك أن تتصور دهشتى حينما نظرت خلال الممر ورأيت وميض نور ينبعث من باب المكتبة المفتوح .. وكنت قد أطفأت المصباح بنفسى ، وأقفلت الباب قبل ذهابى الى الفراش . وبطبيعة الحال ، اتجه أول تفكيرى الى وجود لصوص . فان حوائط هيرلستون مزينة بالكثير من التحف والاسلحة الاثرية . فتناولت بلطة حربية من بين تلك الاسلحة ، وتركت شمعتى خلفى وتسللت على أطراف أصابع قدمى خلال الممر حتى وصلت الى الباب المفتوح .

« لشد ما كانت دهشتى عظيمة عندما أبصرت برنتون السفرجى جالسا فى المكتبة وقد ارتدى ثيابه كاملة ، ومعـه قطعة ورق تبدو كالخريطة نشرها فوق ركبتيه وامال جبهته الى الأمام فوق يده فى تفكر

عميق .. وقفت وقد أخرس لسانى من فرط الدهشة وأنا أراقبه خلال الظلام . وكان على طرف النضد شمعة رفيعة تلقى ضـوءا ضعيفا يكفى لأن يرينى انه كان مرتديا كامل ملابسه . وفجأة عندما نظرت اليه نهض من على مقعده ، وسار الى مكتب فى أحد جوانب المكتبة ففتحه وجذب أحد الأدراج فأخرج منه ورقة بيضاء ، ثم عاد الى مقعده وبسط الورقة بجانب الشمعة على حافة النضد وأخذ يدرسها بامعان كبير . فثارت كرامتى للعبث بأوراق الاسرة على هذا النحو ، فتقدمت خطوة الى الامام ، فأحس بى برنتون ورفع بصره الى أعلى ، فأبصرنى واقفا فى مدخل المكتبة ، فهب واقفا على قدميه ، وقد شحب لون وجهه خوفا وهلعا ، فـدس الورقة ، التى كان يدرسها ، فى صدره .

قلت : « اذن ، فهل هكذا تجازينا على ثقتنا بك ؟ ستترك خدمتى غدا . »

فانحنى ونظر الى نظرة رجل سحق تماما ، ومر بجانبى دون أن يتفوه بكلمة واحدة . وكانت الشمعة لا تزال على النضد ، فتطلعت على ضوئها لأرى الورقة التى اخذها برنتون من الدرج . ولشد ماكانت دهشتى بالغة عندما رأيت أنها شىء عديم القيمة بل هى نسخة من قائمة أسئلة وأجوبة من قديم الزمان تعرف باسـم « تراث عائلة مسجريف . » انها نوع من تقاليد أسرتنا يجب أن يعرفها كل فرد فى أسرة مسجريف عندما يبلغ سن الرشد ــ انها شىء ذو أهمية خاصة لا يفيد منها كثيرا علماء الآثار ، مما يكتب على الحلل الحربية والدروع ، ولكنها ليست ذات قيمة عملية على الاطلاق .

قلت : « من الخير أن نرجع الى الورقة فيما بعد . »

قال فى شىء من التردد : « اذا رأيت ضرورة لها . ولكى استطرد فى حديثى ، أقفلت المكتب بالمفتاح الذى تركه فيه برنتون ، ثم استدرت لانصرف فاذا بى أفاجأ بالسفرجى برنتون يعود ويقف أمامى .

قال فى صوت بح من عواطفه الثائرة : « سيدى ، يا مستر مسجريف ! لا يمكننى احتمال العار ، يا سيدى ، انا الذى كنت أفخر بما يزيد على مركزى فى الحياة . سيقتلنى العار ، وسيكون دمى على رأسك ــ سيكون كذلك اذا دفعتنى الى اليأس ــ فاذا لم يمكنك الاحتفاظ بى بعد ما حدث ، اذن ، فاكراما لخاطر الله ، اسمح لى بأن اقدم لك اخطارا بأننى سأترك العمل من تلقاء نفسى بعد شهر ، كما لو كنت أنا الذى أطلب ذلك . يمكننى أن أحتمل هذا ،

يا مستر مسجريف ، ولكن لا يمكنني احتمال أن أطرد أمام جميع من اعرفهم جيدا ، ويعرفونني حق المعرفة . »

قلت : « انك لاتستحق أى اعتبار ، يابرنتون . كان مسلكك شائنا جدا . ومع ذلك ، فبما أن لك مدة طويلة فى أسرتى ، فلا أرغب فى ان أعلن عارك على رءوس الاشهاد . ولكن شهرا كثير . اترك العمل بعد أسبوع ، وقدم أى سبب تراه .

صاح فى صوت ينم عن اليأس : « أسبوع واحد ، هذا قليل جدا ، ياسيدى ! اجعله أسبوعين على الاقل . »

كررت قولى : « أسبوع واحد فحسب ، وبذا تعتبر نفسك قد عوملت بمنتهى الرحمة واللين . »

« انصرف برنتون ، وقد طأطأ رأسه حتى بلغ صدره ، كرجل محطم ، بينما أطفأت النور وقفلت راجعا الى حجرتى .

« ظل برنتون مواظبا تماما على عمله طوال اليومين التاليين . ولم ألمح قط الى ماحدث منتظرا فى شيء من الفضول لأرى كيف سيغطى عاره . غير انه لم يظهر فى الصباح الثالث كعادته بعد الفطور ليتلقى تعليماتى لذلك اليوم . وأثناء مغادرتى حجرة المائدة ، التقيت بالخادمة راشيل هويل . وقد اخبرتك بأنها شفيت حديثا من مرضها ، وكانت شاحبة اللون جدا وذابلة . فاعترضت على رجوعها الى العمل قائلا : « يجب أن تذهبى الى الفراش ، ياراشيل ، ولا تعودى الى العمل الا بعد أن تستعيدى قوتك . »

« نظرت الى نظرة غريبة حتى اننى بدات اشك فى ان عقلها مازال متأثرا . »

قالت : « انا قوية جدا ، يامستر مسجريف . »

قلت : « سنرى ماذا يقول الطبيب . يجب أن تكفى عن العمل الان . وعندما تهبطين الى الدور الارضى ، أخبرى برنتون بأننى أود رؤيته . »

قالت : « السفرجى انصرف ! »

« انصرف ! الى اين انصرف ؟ »

« انصرف دون أن يراه أحد ، وليس موجودا فى حجرته . نعم ، انصرف ! » قالت هذا وارتمت على الحائط تطلق صرخة اثر صرخة من الضحك ، بينما اعترانى الذعر لتلك النوبات الهستيرية المفاجئة فاندفعت نحو الجرس أطلب النجدة . . ثم حملت الفتاة الى حجرتها وهى مازالت تصرخ وتنتحب ، بينما أخذت أستفسر عن برنتون . لاشك فى اختفائه على الاطلاق . فسريره لم ينم فيه ، ولم ير برفقة

اى فرد منذ ان ذهب الى حجرته فى الليلة الماضية . ومع هـذا ، فمن الصعب معرفة كيف يمكن ان يكون قد غادر البيت ، اذ وجدت النافذتان مغلقتين ، كما وجد الباب مغلقا كذلك ، فى الصباح . وكانت ملابسه وساعته ، وحتى نقوده نفسها ، موجودة فى الحجرة ـ غير أن الحلة السوداء التى اعتاد ارتداءها ، لم تكن فى الحجـرة وكذلك اختفى خفاه ، بيد أن حذاءه كان موجودا . اذن ، فالى أين يمكن أن يكون ذلك السفرجى برنتون ، قد ذهب اثناء الليل . وماذا عن مصيره الان ؟

« وبالطبع ، فتشنا البيت وخارجه دون أن نعثر له على أثر . والبيت ، كما قلت ، بيت قديم ، عبارة عن متاهة متعددة الممرات ، ولا سيما الجناح الاصلى غير المسكون الان .. وفتشنا كل حجرة وكل ركن ، حتى السطح ، دون أن نكتشف اقل علامة تدل على ذلك الرجل المختفى . لا أصدق أبدا انه انصرف تاركا أمتعته بالحجرة . وبناء عليه ، أين يمكن ان يكون ؟ استدعيت البوليس المحلى ولكن دون فائدة . وكان المطر قد نزل فى الليلة السابقة . ففحصنا الارض المغطاة بالحشيش والممرات التى حول البيت من جميع الجهات .. ظلت الحال على ذلك النحو حتى وقع حادث جديد ذهب بانتباهنا بعيدا عن اللغز الاصلى .

« ظلت راشيل هويل مريضة لمدة يومين واشتد بهـا المرض حتى اعترتها نوبات هستيرية جعلتنا نستخدم ممرضة لتجلس معها ليلا . وفى الليلة الثالثة بعد اختفاء برنتون ، لما وجدت الممرضـة أن مريضتها نائمة جدا ، اغفت قليلا وهى جالسـة على المقعد . وعندما استيقظت فى الصباح الباكر ، وجدت الفراش خاليا ، ولا اثر للمريضة . فأيقظونى فى الحال ، فخرجت على الفور مع الخادمين نبحث عن الفتاة الغائبة . لم يكن من الصعب معرفة الاتجاه الذى سارت فيه . فبدأنا من تحت نافذتها مقتفين آثار أقدامهـا فوق الحشيش الى حافة الطين حيث اختفت الاثار بجانب الممر المبلط بالحصباء ، والمؤدى الى الفناء . وان عمق البحيرة فى هذه النقطة ثمانى أقدام ، وبوسعك أن تتصور مشاعرنا عندما رأينا أن آثار أقدام الفتاة المخبولة المسكينة ، قد انتهت عند حافة البحيرة ، وبالطبع فتشنا البحيرة على الفور وبدأنا العمل لاستعادة بقايا الجثة ولكننا لم نستطع العثور على اى أثر للجثة ، الا اننا اخرجنا الى السطح شيئا ما كنا لنتوقع وجوده هناك على الاطلاق . وجدنا كيسا من القماش بداخله

كتلة من المعدن صدئة وعديمة اللون ، وعدة قطـــع من الحصى أو الزجاج الباهت اللون . وهذا الشيء الغريب هو كل ما إمكننا العثور عليه من الطين . وعلى الرغم من قيامنا بالامس ، بالبحث فى كل موضع ممكن ، وبسؤال كل من أمكننا سؤاله ، فاننا لم نعرف مصير راشيل هويل ولا ريتشارد برنتون . هذا وان بوليس المقاطعة حائر تماما . لذا جئت اليك ، يامستر هولمز ، كآخر ملجأ . »

« يمكنك أن تتصور لهفتي ، ياوطسون ، وانا اصغي الى تسلسل الاحداث الغريبة هذه . وحاولت ربط كل حادث منها بالاخر ، وايجاد خط سير يمكن ان يقودنا الى شيء .

« اختفى السفرجى ، واختفت الخادمة .. احبت الخــادمة السفرجى ، ولكن نشأ بعد ذلك سبب جعلها تمقته . كان يجرى فى عروقها دم اهل ويلز العصبيين والسريعي الانفعال .. ثارت بعنف بعد اختفائه مباشرة . والقت فى البحيرة كيسا يحتوى على بعض الاشياء الغريبة كل هذه عوامل يجب أن ينظر اليها بعين الاعتبار . ومع ذلك ، فما من عامل منها يصل الى لب الموضوع . ما هى نقطة الابتداء فى سلسلة الاحداث هذه ؟ وهنا نهاية هذا الخط الشائك . »

قلت : « يجب أن أرى ، يامسجريف ، تلك الورقة التى ظن خادمك السفرجى انها جديرة بدراسته لها ، والمخاطرة بوظيفته من أجلها . »

قال : « ان تراثنا هذا عمل لا معنى له ، ولكن ، على الأقل ، له قيمته كتراث للاسرة يجب الاحتفاظ به . ولدى هنا نسخة من هذا التراث ، وهو عبارة عن قائمة من الاسئلة والاجابات عليهــا ، ربما يروق لك أن تلقى عليها نظرة . »

« ناولنى مسجريف هذه الورقة الغريبة ، التى معى هنــا الان ، ياواطسون ، وهى الاثار القديمة والتراث العتيق ، الذى يجب على كل شخص ينحدر من أسرة مسجريف أن يدرسه بامعان عندما تؤول اليه ممتلكات العائلة . سأقرأ لك الاسئلة واجوبتها كما هى بالضبط : ـ

« ملك من هى ؟

« ملك من ذهب .

« من سينالها ؟

« من سيأتى .

« ماذا كان الشهر ؟

« السادس من البداية .

« أين كانت الشمس ؟
« فوق أشجار البلوط
« أين كان الظل ؟
تحت أشجار الدردار .
« كيف قيست ؟
« شمالا بعشرة وبعشرة ، وشرقا بخمسة وبخمسة وجنوبا باثنين وباثنين ، وغربا بواحد وواحد . وهكذا أسفل .
« ماذا ندفع فيه ؟
« كل مانملك .
« لماذا ندفعه ؟
« من اجل خاطر الثقة .

وقد أبدى مسجريف ملاحظته قائلا : « لا تحمل النسخة الاصلية اى تاريخ ، ولكنه فى هجاء القرن السابع عشر . ومع ذلك ، فانى أخشى ان تكون قليلة العون فى حل هذا اللغز . »

قلت : « انها ، على الاقل ، تعطينا لغزا آخر إكثر امتاعا من اللغز الاول . وقد يكون حل أحد اللغزين مفتاحا لحل اللغز الاخر . وارجو أن تعذرنى يامسجريف ان قلت ان خادمك السفرجي هذا يبدو لى رجلا بالغ المهارة وذا بصيرة أوضح من بصيرة عشرة أجيال من سادته . »

قال مسجريف : « قلما أستطيع متابعتك ، فلا تبدو لهذه الورقة اية أهمية عملية . »

« ولكنها تبدو لى عملية جدا ، ويخيل الى أن برنتون كانت له نفس النظرة . من المحتمل انه رأى تلك الورقة قبل الليلة التى أمسكته فيها . »

« هذا ممكن جدا . لم نعمل اى احتياط لاخفائها . »

« الامر ببساطة ، انه أراد ، كما يخيل الى ، أن يراجع النظرة الاخيرة فى ذاكرته ، فى تلك الليلة . كان معه ، كما أفهم ، نوع من الخرائط أو الرسوم واخذ يقارنها بذلك المخطوط ، فدسه فى جيبه عندما باغته . »

« هذا صحيح . ولكن ماذا بوسعه أن يفعل بهذا التراث العتيق لاسرتنا ، وما معنى هذه الخزعبلات غير المفهومة ؟ »

قلت : « لا اعتقد اننا سنجد صعوبة كبيرة فى معرفة ذلك . ومن بعد اذنك . نستقل اول قطار الى سسيكس ، ونتعمق أكثر ،

فى هذه المسألة على الطبيعة . »

« بعد ظهر ذلك اليوم نفسه ، كنا كلانا ، فى هيرلستون . من المحتمل أنك رأيت صورا وقرأت أوصافا لذلك المبنى العتيق الشهير ، لذا سأحصر كلامى على أنه مبنى على شكل الحرف ، ل ، تمثل الذراع الطويلة فيه المبنى الحديث ، أما الذراع القصيرة فتمثل النواة العتيقة لهذا القصر ، وهى التى نشأ منها الجزء الحديث . وقد نقش التاريخ ١٦٠٧ فى وسط الباب ذى الزخرف العلوى الثقيل . غير أن الخبراء اتفقوا أن الكتل الخشبية والحوائط المبنية بالحجارة ، من تاريخ اقدم من هذا التاريخ بكثير . وبسبب الحوائط البالغة السمك والنوافذ الصغيرة جدا ، قامت الاسرة فى القرن الماضى ببناء الجناح الجديد . ويستعمل القسم العتيق الان كمخازن وأقبية ، فى حالة استعماله ، وأحيانا كان يترك بغير استعمال . ويحيط بالبيت متنزه جميل ذو أعمال خشبية دقيقة . أما البحيرة التى أشار اليها زبونى فتقع بجوار الطريق ، على مسافة مائتى ياردة من هذا المبنى .

« كنت مقتنعا تماما ، من قبل ، ياواطسون ، أنه لا توجد هنا ثلاثة ألغاز منفصلة ، بل لغز واحد . واذا ما قرأت تراث اسرة مسجريف قراءة صحيحة ، أمسكت فى يدى المفتاح الذى سيقودنى الى الحقيقة فيما يختص بكل من السفرجى برنتون والخادمة راشيل هويل . فركزت كل نشاطى فى فهم ذلك التراث . لماذا تلهف ذلك الخادم الى معرفة كنه تلك الصيغة ؟ من الجلى أنه تلهف لانه رأى فيها شيئا فات كل تلك الاجيال من النبلاء الريفيين ، كما توقع الحصول منها على منفعة شخصية . ماذا كان ذلك التراث ، وكيف أثر فى مصيره ؟

« ظهر لى بوضوح ، من قراءة هذا التراث ، أن تلك المقاسات لابد أن تصل الى بقعة بعينها تتعلق بها بقية ماجاء بهذا التراث . فاذا استطعنا معرفة هذه البقعة صرنا فى مركز يوصلنا الى معرفة السر ، الذى وجد مسجريف العجوز أن من الضرورى وضعه فى مثل هذه الصورة الغريبة .. هناك دليلان يمكننا الابتداء بهما : شجرة بلوط ، وشجرة دردار . اما شجرة البلوط فلا جدال فيها البتة ، لانها امام البيت مباشرة ، وعلى الجانب الايسر من الطريق ، وسط اشجار البلوط . انها من أجمل وأروع الأشجار التى رأيتها فى حياتى .

فقلت ونحن نمر الى جانبها بالعربة : « هل كانت هذه الشجرة موجودة عندما خطط تراثكم ؟
قال : « كانت هناك أيام الغزو النورماندى ويبلغ محيطها ثلاثة وعشرين قدما .
« اذن ، فقد تأكد موضع احدى النقطتين الثابتتين .
قلت : « هل عندكم أشجار دردار قديمة ؟
« كانت هناك شجرة عتيقة جدا ، غير أن صاعقة احرقتها منذ عشر سنين ، فقطعنا ماتبقى من جذوعها .
« أيمكنك معرفة مكانها ؟ »
« نعم ، بكل تأكيد . »
« هل هناك أشجار دردار أخرى ؟
« لا أشجار دردار قديمة ، لكن عندنا كثيرا من أشجار الزان .
« اريد أن ارى أين كانت . »
« كنا راكبين عربة بعجلتين ، فقادنى اليها مضيفى ، فى الحال ، قبل أن نذهب الى البيت . رأيت آثار شجرة وسط الحشيش حيث كانت شجرة الدردار ، وكانت فى منتصف المسافة ، تقريبا ، بين شجرة البلوط والبيت . ويبدو أن تحقيقى يتقدم .
فقلت : « أظن من المستحيل معرفة ارتفاع شجرة الدردار . »
قال : « يمكننى أن أذكره لك من فورى . كان ارتفاعها أربعا وستين قدما . »
فقلت مدهوشا : « وكيف عرفته ؟ »
« اعتاد مدرسى العجوز أن يعطينى تمرينات فى حساب المثلثات تلزمنى بقياس الارتفاعات . فعندما كنت صبيا ، قست ارتفاع كل شجرة وكل مبنى فى ضيعتنا . »
« هذه نقطة حظ لم أكن أتوقعها . فان المعلومات التى أحتاج اليها تصلنى بسرعة أكثر مما أتوقع . »
قلت : « أخبرنى ، ألم يسألك برنتون ، فى يوم ما ، هذا السؤال ؟ »
نظر الى ريجينالد مسجريف مدهوشا ، وقال : « انك تذكرنى الان بهذا الشىء . فمنذ بضعة أشهر ، سألنى عن ارتفاع تلك الشجرة ، اذ حدث جدال بسيط بينه وبين السايس . »
« كان هذا خبرا رائعا ، ياواطسون . اذ أوضح لى اننى أسير

فى الطريق الصحيح . فنظرت الى الشمس فكانت منخفضة فى السماء ، فقدرت أنها فى أقل من ساعة ستكون فوق أعلى أغصان شجرة البلوط العتيقة . وبذا أمكن تحقيق شرط من الشروط التى تضمنتها قائمة التراث . وأن ظل شجرة الدردار يجب أن يعنى الطرف البعيد للظل ، والا فلماذا اختير الجذع لأن يكون مرشدنا ؟ كان على فى ذلك الوقت ان اجد موضع نهاية الظل عندما تظهر الشمس من شجرة البلوط . »

« لابد أن كانت هذه عملية صعبة ياهولمز لاسيما وان شجرة الدردار ليست هناك . »

« على الاقل ، كنت أعلم انه طالما استطاع برنتون معرفة ذلك ، فمن المؤكد أننى سأعرفه أنا أيضا . وعلى أية حال ، لم تكن هناك أية صعوبة .. فذهبت مع مسجريف الى حجرة مكتبه وقطعت لنفسى وتدا من الخشب ، ربطت فيه قطعة طويلة من الدوبارة ، جعلت بها عقدة عند كل ياردة وأخذت قصبة صيد سمك طولها ست أقدام بالضبط ، ورجعت مع زبونى الى الموضع الذى كانت فيه شجرة الدردار . وكانت الشمس تكاد تلمس قمة شجرة البلوط . فثبت القصبة من طرفها وحددت اتجاه الظل ، وقسته فكان تسع أقدام .

« وبالطبع صار القياس سهلا . فاذا كان عود طوله ست أقدام يحدث ظلا طوله تسع أقدام فان شجرة ارتفاعها أربع وستون قدما تحدث ظلا طوله ست وتسعون قدما فى نفس الاتجاه . فقست المسافة التى بلغت حائط البيت تقريبا حيث غرست وتدا فى تلك النقطة التى تحدد نهاية الظل . ويمكنك ان تتخيل فرحى ، ياواطسون ، عندما أبصرت انخفاضا فى الارض على مسافة بوصتين من وتدى ، فعرفت أن هذه هى العلامة التى وضعها برنتون عندما قاس المسافة ، واننى مازلت احذو حذوه .

« اخذت اخطو من نقطة الابتداء هذه بعد أن حددت الجهات الاصلية ببوصلة احملها دائما فى جيبى فعشر خطوات لكل قدم الى الشمال اخذتنى الى اتجاه مواز لحائط البيت ، فعينت هذه النقطة بوتد ، ثم خطوت بعناية خمس خطوات الى الشرق ، واثنتين الى الجنوب فصرت عند عتبة الباب القديم نفسها . وتقدمت خطوتين غربا لأصل الى الممر المبلط بالحجارة . اذن ، فهذا هو المكان الذى حدده التراث .

« لم أشعر فى حياتى بمثل قشعريرة الاخفاق هذه ، ياواطسون.

فلمدة لحظة بدا لى أن هناك خطأ فى حساباتى . سقطت أشعة الشمس الغاربة على أرض الممر تماما ، وامكننى أن أرى الحجارة الرمادية العتيقة البالية بفعل الاقدام . كانت ملتحمة معا تماما ، وبالطبع لم تحرك لعدة سنين طوال . لم يعمل برنتون هنا . فطرقت الارض فأحدثت رنينا بطولها كله . ولم يكن هناك اى علامة لشرخ أو شق . غير انه ، لحسن الحظ ، اخرج مسجريف الذي بدأ يقدر معنى عملى ، والذى كان وقتئذ متحمسا مثلى ، أخرج المخطوط من جيبه ليراجع حساباتى .

صاح مسجريف يقول : « لقد نسيت عبارة « وهكذا أسفل » . »

« ظننت اننا يجب أن نحفر ، ولكننى عرفت لتوى اننى أخطأت فهم معناها ، فصحت أقول : « اذا فهناك بدروم تحت هذا المكان . »

« نعم ، يوجد بدروم قديم قدم البيت أسفل هذا الممر نصل اليه بهذا الباب . »

« هبطنا سلما حجريا حلزونيا ، واشعل رفيقى عود ثقاب أوقد به فانوسا كان فوق ناجود فى الركن . وفى لحظة ، اتضح لنا اننا أمام المكان الحقيقى ، واننا لم نكن الوحيدين اللذين زارا هذا المكان حديثا .

« استعمل هذا البدروم لتخزين الاخشاب ، ولكن الاوراق المهملة التى القيت هناك متناثرة على أرض البدروم ، ازيحت جانبا وكومت لتترك موضعا فى الوسط حيث وجدنا غطاء ضخما من الحجر بوسطه حلقة حديدية صدئة ربطت فيها كوفية راع .

« صاح زبونى يقول : « أقسم بجوف على أن هذه كوفية برنتون . رأيتها عليه مرارا . ماذا كان يفعل هنا ذلك الوغد ؟ »

« وتبعا لاقتراحى ، استدعى اثنان من بوليس المقاطعة ليحضرا معنا . وعندئذ حاولت رفع الغطاء بالكوفية ، ولكنى لم استطع سوى زحزحته قليلا ، فساعدنى أحد الكونستابلين ، ورفعنا الغطاء أخيرا ، ووضعناه جانبا . فاذا بجب مظلم تحته ، نظرنا فيه جميعنا بينما ركع مسجريف بجانبه وادلى الفانوس الى اسفل الجب .

« كان ذلك الجب عبارة عن حجرة صغيرة عمقها حوالى سبع اقدام ، مربعة الشكل طول ضلعها أربع أقدام ، فى احد جوانبها صندوق خشبى مصفح بالنحاس الاصفر ، وقد فتح غطاؤه ذو المفصلات ، وبه هذا المفتاح العتيق الطراز بارزا من القفل . ويحيط بالصندوق من الخارج طبقة من التراب والطين ، وقد اكل السوس

الخشب حتى نما بداخله بعض الاشنة . وجدنا على قاع الصندوق عدة اقراص معدنية متناثرة ـ من الحلى انها نقود قديمة ـ تشبه الاقراص التى معي هنا . لكن الصندوق لم يحو شيئا آخر .

« الى تلك اللحظة ، لم تكن لدينا فكرة عن ذلك الصندوق العتيق ، اذ تسمرت عيوننا على الهيكل القابع الى جانبه . كان جسم رجل يرتدي حلة سوداء ، وقد جثا على ركبتيه وجبهته داخل الصندوق ، وذراعاه على جانبى الصندوق . سحبت هذه الوضعة كل الدم الراكد الى وجهه . وما كان لاى فرد أن يتعرف عليه بملامحه التى فى لون الكبد ، الا من طوله وثيابه وشعره التى كانت كافية ، عندما رفعت الجثة خارجا ، لكي يعرف مسجريف انها جثة السفرجي الغائب كان ميتا منذ بضعة أيام ، ولكن لم يكن به أى جروح أو كدمات لتبين كيف لقى حتفه الفظيع . وبعد أن نقلت الجثة من البدروم ، كنا لانزال نواجه مشكلة لا تقل فظاعة عن هذه .

« اعترف ، ياواطسون ، باننى الى هذا الحد ، اعتبر نفسي قد اخفقت فى التحقيق . كنت اعتمد على حل المسألة بمجرد أن اكتشفت الموضع المبين فى التراث . لكنى مازلت جاهلا ماكانت الاسرة تخفيه بمثل هذا الاحتياط البارع . صحيح اننى القيت ضوءا على مصير برنتون . ولكن يجب ان ابين كيف لقى هذا المصير الشنيع ، واى دور لعبته تلك المرأة ، التى اختفت ، فى هذا الموضوع . فجلست على ناجود فى الركن وفكرت فى الامر كله بامعان .

« وانك لتعرف طرقي فى مثل هذه القضايا ، ياواطسون . اضع نفسى فى مكان ذلك الرجل ، واتخذ لنفسي مبلغ ذكائه ، واحاول ان اتخيل كيف كنت اتصرف فى مثل تلك الظروف . بسط برنتون الامور بذكائه الممتاز . فلم تكن هناك حاجة الى فرض أى فروض للمعادلة الشخصية كما كونها الفلكيون . عرف برنتون أن الغطاء الحجرى ثقيل فلا يقدر على رفعه شخص واحد بمفرده . لم يستطع الحصول على مساعدة من الخارج ، حتى ولو كان هناك شخص يثق فيه ، دون فتح الابواب والتعرض لخطر اكتشاف أمره . اذن ، فلو استطاع الحصول على هذه المساعدة من شخص داخل البيت . ولكن ممن يطلب هذه المساعدة ؟ كانت تلك الفتاة راشيل هويل مخلصة له . وان الرجل ليجد دائما انه من الصعب عليه ادراك انه خسر محبة امرأة مهما يكن قد أساء معاملتها .. فليحاول اصلاح ذات البين مع راشيل هويل ، بقليل من المداعبة ، ثم يستخدمها شريكة له . فيأتيان

معا اثناء الليل الى البدروم ، وتكفى قوتاهما المتحدتان لرفع ذلك الغطاء الثقيل . والى هنا يمكننى أن أتابع أفعالها كما لو كنت قد رأيتهما فعلا .

« ولكن رفع ذلك الحجر كان ثقيلا عليهما ، وأحدهمـا رجل والاخرى امرأة . فماذا يفعلان لكى يتمكنا من انجاز ذلك العمل ؟ وماذا كنت افعل أنا نفسى ؟ فنهضت من مقعدى وأخذت أفتش جيدا فى ذلك المكان خلف الاوراق المهملة المبعثرة على الارض . وفى الحال ، عثرت على ضالتى المنشودة قطعة من الخشب طولها حوالى ثلاث اقدام وفى احد اطرافها تسنين بسيط ، بينما ضغطت عدة قطع على الجوانب وعلقت بها كما التحمت بها بقوة . ومن الجلى إنهم عندما سحبوا الحجر الى اعلى ، وضعوا بعض الشظايا الخشبية فى الشق حتى صارت الفتحة كبيرة لكى يزحف خلالها شخص ، ثم حافظوا على بقائها مفتوحة بقطعة من الخشب وضعوها بالطول ، فضغط عليها الغطاء الحجرى فأحدث بها تسنينا عند الطرف السفلى . والى هذا الحد ، كان تخيلى صحيحا أيضا .

« والان ، كيف يتسنى لى أن أبدأ فى تصور هذه الدراما التى حدثت وقائعها فى منتصف الليل ؟ ومن الجلى أن شخصا واحدا هو الذى نزل من الفتحة الى الجب ، وهو برنتون ، ولابد أن الفتـاة بقيت خارج الفتحة . بعد ذلك فتح برنتون الصندوق ، ومن المعقول أنه أعطاها محتويات الصندوق ، اذ لم نجد به تلك المحتويات — ثم — ماذا حدث ؟

« أية نار انتقام متأججة تلك التى اشتعلت فجأة فى نفس تلك المرأة الكلتية السريعة الانفعال عندما أبصرت الرجل الذى داس على كرامتها وظلمها — وربما ظلمها بأكثر مما نعلم — فى قواها ؟ أم هـل قطعة الخشب انكسرت صدفة فوقع الغطاء فى مكانه وحبس برنتون داخل الجب الذى صار قبره ؟ هل هى مذنبة بعدم اعلان مصيره ؟ أم هل ضربة من يدها هى التى أزاحت الخشبة فأرسلت الغطـاء هابطا الى مكانه ؟ ليكن ماكان ، فاننى لازال أتصور صورة تلك المرأة ممسكة بكنوزها وتجرى بجنون صاعدة السلم الحلزونى والصرخات المكتومة تدوى فى أذنيها ، وكذلك صوت طرق اليدين على الغطـاء الحجرى الذى خنق حبيبها فلفظ روحه .

« هذا هو السر فى وجهها الممتقع واعصابها المضطربة ونوبات ضحكاتها الهستيرية فى الصباح التالى ولكن ماذا كان فى الصندوق ؟

وماذا فعلت به ؟ بالطبع ، لابد أن كانت به قطعة من المعدن العتيقة ، والحصى الذى اخرجه زبونى من الطين . رمت كل ذلك فى البحيرة ، فى اول فرصة ، لتزيل آخر أثر لجريمتها .

« جلست لا أتحرك مدة عشرين دقيقة ، وأنا افكر فى الامر . ومازال مسجريف واقفا بوجه شاحب جدا ، يهز فانوسه وينظر الى اسفل داخل ذلك الجب .

« امسك مسجريف بعض الاقراص التى كانت فى الصندوق ، وقال : « هذه هى العملة التى سكها تشالز الاول ، وبذا ترى أننا كنا على حق فى تحديد تاريخ التراث ! »

« طرأ على بالى معنى محتمل للسؤالين الاولين من ذلك التراث، فقلت : « قد نجد شيئا آخر لتشارلز الاول . أرنى محتويات الكيس الذى أخرجته من الطين . »

« صعدنا الى حجرة مكتب مسجريف ، فوضع أمامى تلك الانقاض التى كانت بالكيس . وكان بوسعى أن افهم السبب فى أنه اعتبرها عديمة الاهمية عندما نظر اليها اذ كان المعدن أسود اللون تقريبا ، والاحجار عديمة البريق ومعتمة . ولكن عندما دلكت احداها فى كمى تألقت فى تجويف يدى المظلم كأنها شرارة . وكانت قطعة المعدن على هيئة حلقة مزدوجة ، ولكنها التوت وتغير شكلها .

قلت : « يجب أن تضع فى ذهنك ان الحفل الملكى الذى أقيم فى انجلترا بعد موت الملك وهرب الموجودون بعده مباشرة ، ربما دفنوا كثيرا من اشيائهم الثمينة مدفونة فى مكان ما بهدف العودة لاخذها وقت السلم . »

فقال صديقى : « كان سلفى السير رالف مسجريف فارسا شهيرا ، وكان اليد اليمنى للملك تشارلز الثانى فى تجوالاته . »

قلت : « احقيقى هذا ! اذن ، اعتقد أن هذا يمدنا بآخر حلقة كنا بحاجة اليها . والان ، لابد ان اهنئك على امتلاكك لاثار بالغة القيمة الحقيقية ، وذات قيمة اعظم كعاديات تاريخية ، ولو أن هذا حدث بمأساة . »

فقال مدهوشا : « وما هى اذا هذه الاثار ؟ »

« انها ليست اقل من تاج ملوك انجلترا القديم . »

« التاج ! »

« بالضبط . تمعن فيما يقوله التراث : « ملك من هذا ؟ ملك من ذهب . كان هذا بعد اعدام الملك تشارلز .. ومن سينالها ؟

من سياتي . وهذا هو تشارلز الثاني ، الذى تنبىء بمجيئه . وأعتقد انه لاشك فى أن هذا التاج المحطم والمعوج قد أحاط ، فيما مضى ، بجباه ملوك انجلترا . »

« وكيف جاء الى البركة ؟ »

« هذا سؤال تحتاج الاجابة عليه الى وقت طويل .. وبهـذا حررت قائمة بسلسلة الادلة والنتائج الكثيرة التى كونتهـا . وجاء الشفق ، واخذ القمر ينير متألقا فى السماء قبل أن تنتهى روايتى . »

فقال مسجريف : « اذن ، فكيف حدث أن تشارلز لم يحصل على تاجه عندما رجع ؟ » ثم وضع هذه البقايا فى الكيس .

« هانتذا تضع اصبعك على النقطة الوحيدة التى ربما لا نستطيع توضيحها اطلاقا . من المعقول أن يكون مسجريف ، المحتفظ بالسر ، قد مات فى تلك المدة ، ثم ترك هذا المرشد لخلفه دون أن يفسر له معناه . ومنذ ذلك اليوم الى الآن ، يسلم الاب هذا المرشد لابنه ، حتى وقع أخيرا فى يد رجل كشف سره وفقد حياته فى هـذه المغامرة . »

« هذه هى قصة « تراث مسجريف » ، ياواطسون . ولدى أسرة مسجريف التاج ، الان ، فى هيرلستون ، ولو أن هناك اشكالا قانونيا ، وسيدفع مبلغ ضخم قبل السماح لهم باستعادة هـذا التاج . وانا على يقين من انك اذا ذكرت لهم اسمى ، فسيسرهم أن يطلعوك عليه ..

« أما عن تلك المراة فلم يسمع شىء ، ومن المحتمل انهـا غادرت انجلترا ، حاملة نفسها وذكرى جريمتها الى بلد ما فيمـا وراء البحار . »

قضـــــاة ريجيـــــت

حدثت وقائع هذه القضية قبل ان يشفى صديقى شرلوك هولمز، تماما ، من الاجهاد البالغ فى ربيع سنة ١٨٨٧ فان قضـــية شركة سومطرة بالاراضى المنخفضة ، والخطط الضخمة للبارون موبرويس، مازالت عالقة بأذهان الجمهور ، وتتصل من قرب بالشئون السياسية والمالية . وبذا كانت موضوعا ملائما لمجموعة القصص هذه . ورغم هذا ، فقد أدت بطريق غير مباشر الى مسالة فريدة ومعقدة هيأت لصديقى فرصة عرض قيمة سلاح جديد من بين الاسلحة الكثيرة التى شن بها معركته ضد الجريمة طوال حياته .

بالرجوع الى مذكراتى ، وجدت أننى فى الرابع عشر من ابريل تلقيت برقية من ليون تقول ان هولمز راقد فى السرير مريضا بفندق دبلونج . ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى كنت فى حجـــرته بالفندق . واطمأنت نفسى عندما علمت انه ليس فى اعراض مرضــه ما ينذر بالخطر . الا أن بنيته الحديدية قد تداعت تحت ضـــغط التحقيق الذى امتد الى أكثر من شهرين عمل خلالهما ما لايقل عن ١٥ ساعة فى اليوم . وفى أكثر من مرة استمر يعمل لمدة خمســة أيام متواصلة ليلا ونهارا ، كما أكد لى . ولكن انتصاره فى عمله لم ينقذه من رد فعل ذلك الاجهاد الفظيع . وبينما كانت أوروبا تدوى باسمه ، وحجرته مملوءة الى نصفها ببرقيات التهنئـــة ، وجدته فريسة لأسوأ انهيار عصبى . وحتى علمه بانه نجح حيث أخفق البوليس فى ثلاث دول ، وانه تغلب على اعظم نصاب مثقف فى أوروبا ، حتى ذلك العلم لم يكن كافيا ليوقظه من ذلك الانهيار .

بعد ذلك بثلاثة أيام كنا معا ثانية فى شارع بيكر . ولكن كان من الجلى أن صحة زميلى ستتحسن ان قضى فترة ما فى جو غير جو لندن . كما ان فكرة قضاء اسبوع فى الريف وقت فصل الربيع ، ستكون ذات فائدة لى انا شخصيا . فان صديقى الكولونيل هايتر الذى اشرفت على علاجه فى أفغانستان ، قد اشترى بيتا قرب ريجيت

بمقاطعة صرى . وكثيرا ما وجه الى الدعوة لزيارته فى ذلك البيت .
وذكر فى آخر دعوة منه انه يسره جدا أن أصحب معى صديقى شرلوك هولمز فى زيارتى له . احتاج الامر الى قليل من الدبلوماسية . غير أنه لما علم هولمز بأن صديقى أعزب وانه ستكون له مطلق الحرية هناك ، وافق على خطتى . وبعد أسبوع من عودتنا من ليون ، كنا تحت سقف بيت الكولونيل فى ريجيت . وكان هايتر هذا جنديا مسـنا لطيف المعشر شاهد الكثير فى الدنيا . وسرعان ماوجد ، كما كنت أتوقع ، أن بينه وبين هولمز كثيرا من الصفات المشتركة .

جلسنا مساء يوم ذهابنا ، فى حجرة أسلحة الكولونيل ، وقد تمدد هولمز على أريكة ، بينما أنا وهايتر نتفرج على مجموعة أسلحته .

فقال هايتر فجأة ، على فكرة ، يادكتور واطسون سآخذ معى أحد هذه المسدسات الى الدور العلوى فربما استدعى الامر استعماله فى حالة الخطر . »

قلت : « خطـر ! »

« نعم ، وقع حادث سرقة روع المنطقة كلها اخيرا ، اذ دخل اللصوص بيت المستر اكتون العجوز ، أحد قضاة مقاطعتنا ، يوم الاثنين الماضى . ورغم عدم حدوث خسائر كبيرة ، فان اللصـوص مازالوا طليقين . »

أدار هولمز عينه نحو الكولونيل ، وقال : « أما من قرينة أو دليل ؟ »

« لا شىء حتى الان . ولكن المسألة تافهة . انها احدى الجرائم الصغيرة التى تبدو تافهة جدا فلا تستحق إنتباهك ، يا مستر هولمز ، بعد تلك القضية الدولية العظمى . »

لم يهتم هولمز بهذا الاطراء ، ولو أن ثغره افتر عن ابتسـامة عبرت عن سروره .

« هل صاحبت السرقة ظاهرة هامة ؟ »

« كلا . وانما فتش اللصوص المكتبة ولم يسرقوا الا القليل جدا نظير مجهودهم الكبير ذاك . قلبوا المكتبة كلها راسا على عقب . فتحوا الادراج والقوا محتويات الخزانات على الارض ، فكان كل ماسرقوه هو نسخة قديمة من « هوميروس » من تأليف البابا وشـمعدانين مطليين بالفضة ، وثقل خطابا تمن العاج ، وبارومتر صـغير من خشب البلوط ، وكرة دوبارة .

قلت مستغربا : « يالها من تشكيلة غريبة ! »

« من الواضح جدا أن اللصوص اخذوا كل ما استطاعت أيديهم ان تقع عليه . »

تمتم هولمز ببضع كلمات وهو مستلق على الاريكة .

قال : « يجب على بوليس المقاطعة أن يستنتج شيئا من هذا .. من الجلي أن ... »

لكني رفعت اصبعي محذرا .

« أنت هنا للراحة ، يازميلى العزيز ، اكراما للسماء . لاتبدأ بمسالة جديدة ، ومازالت اعصابك محطمة . »

هز هولمز كتفيه ، ونظر الي الكولونيل نظرة اذعان .. وتحول مجرى الحديث الى موضوعات أقل خطرا .

ومع ذلك ، فقد قدر لكل جهودي واحتياطاتي المهنية أن تضيع هباء . ففى الصباح التالى فرضت المسألة نفسها علينا بطريقة لم نستطع معها تجاهلها واتخذت زيارتنا الريفية طابعا لم يتوقعه أى واحد منا . فبينما نحن نتناول طعام الافطار ، اذ بسفرجى الكولونيل يندفع داخلا وهو يرتجف هلعا .

قال وهو يلهث : « هل سمعت الخبر الجديد ياسيدى ؟ عن اسرة كننجهام ؟ »

قال الكولونيل ، وفنجان القهوة بيده فى الهواء : « سرقة ؟ »

« قتل ! »

صفر الكولونيل ، وقال : « بحق جوف ! من الذى قتل ، اذن ؟ اهو القاضى أم ابنه ؟ »

« لا هذا ، ولا ذاك ، ياسيدى . انه وليم سائق عربتهما . اطلقت عليه رصاصة أصابت قلبه ، فلم يتكلم بعد ذلك . »

« من اطلق عليه الرصاص ؟ »

« اللص ، ياسيدى ، وهرب كالبرق ، اختفى تماما . دخل من نافذة البهو ، فانقض عليه وليم ، فلقى حتفه ، حفاظا على أملاك سيده . »

« متى ؟ »

« فى الليلة الماضية ، ياسيدى ، فى حوالى الساعة الثانية عشرة مساء . »

فقال الكولونيل ببرود وهو يجلس لاكمال طعام افطاره : « سنذهب الى هناك حالا . » وعندما انصرف السفرجى ، استأنف الكولونيل كلامه يقول : « ياله من عمل شنيع ! انه خادم القاضى

العجوز كننجهام ، وهو شخص بالغ الادب ، سيحزن عليه القاضى حزنا عميقا ، اذ كان فى خدمته منذ عدة سنوات ، وكان أمينا . ومن الجلى أن القاتل هو نفس اللص الذى سرق بيت أكتون . »

وقال هولمز وهو يفكر : « وسرق تلك المجموعة الفريدة ؟ »

« بالضبط . »

« ياللعجب ! ستتمخض هذه القضية عن كونها أبسط مسألة فى الدنيا ، ولكنها على أية حال غريبة بعض الشىء ، أليس كذلك ؟ فان عصابة من اللصوص تعمل فى مقاطعة ، لابد أن تغير مسرح عملياتها ، فلا تقوم بعمليتين فى نفس المنطقة فى خلال بضعة أيام . فعندما تكلمت عن الاحتياط فى الليلة الماضية ، مر بخاطرى انه من المحتمل أن تكون هذه آخر أبروشية فى انجلترا كلها يهتم بها لص أو لصوص . وهذا يعنى اننى سأعلم الكثير فيما بعد . »

فقال الكولونيل : « يخيل الى ان هذا عمل شخص من المنطقة نفسها . وفى هذه الحال ، يكون بيت أكتون وبيت كننجهام هما الاماكن التى يقصدها السارق ، لانهما اضخم مبنيين فى هذه الجهة . »

« واغناها ؟ »

« نعم ، يجب أن يكونا كذلك ، ولكن توجد بينهما قضية منذ عدة سنوات ، امتصت دم كليهما ، على ما اظن . يطالب أكتون العجوز بملكيته لنصف مزرعة كننجهام ، وظل المحامون يعملون فى تلك القضية بكل ما أوتوا من جهد . »

فقال هولمز وهو يتثاءب : « اذا كان اللص أحد الاوغاد المحليين ، فلن تكون هناك صعوبة فى القبض عليه . حسنا ، ياواطسون ، لا أنوى أن أتدخل . »

فتح السفرجى الباب وقال : « المفتش فورستر ، ياسيدى .

ومفتش البوليس هذا ، رجل صغير السن ، أنيق الهندام حاد الوجه ، قال وهو يدخل الحجرة : « صباح الخير ياكولونيل هايتر ، آمل فى الا اكون متطفلا ، ولكننا سمعنا أن المستر هولمز القاطن فى شارع بيكر ، موجود فى ضيافتك هنا . »

أشار الكولونيل بيده نحو صديقى ، فانحنى له المفتش فورستر .

« فكرنا فى أنك ربما تتدخل فى هذه القضية ، يامستر هولمز . »

فضحك هولمز وقال : « الاقدار ضدك ، ياواطسون ، كنا نتحدث عن هذا الامر قبيل أن تأتى ، أيها المفتش . ربما أمكنك أن تخبرنا ببعض التفاصيل . »

اتجه هولمز بظهره الى الخلف فى مقعده بطريقته المعهودة ، فعرفت أنه لا أمل فى هذه القضيّة .

قال المفتش : « ليس لدينا اى دليل فى مسألة سرقة أكتون ، ولكن لدينا كثيرا من الادلة فى هذه القضية الاخيرة ، ربما تقودنا الى شيء . ولا شك فى أن اللص واحد فى الحالتين . وقد رؤى اللص القاتل وهو يهرب . »

« مرحى ! »

« نعم ، ياسيدى ، ولكنه هرب كالظبى بعد أن أطلق الرصاصة التى قتلت وليم كيروان المسكين . ابصره المستر كننجهام من نافذة حجرة النوم ، كما رآه المستر اليك كننجهام من الممر الخلفى . وكانت الساعة الثانية عشرة الا ربعا ، عندما انتشر الخبر . كان المستر كننجهام قد أوى الى فراشه منذ لحظة بينما كان ابنه اليك يدخن غليونا وهو لابس الروب . وقد سمع كلاهما الحوذى وليم وهو يصرخ مستغيثا . فجرى المستر اليك الى الدور الارضى ليرى ماذا حدث . وكان الباب الخلفى مفتوحا . وعندما وصل الى قاعدة السلم راى رجلين يتصارعان معا خارج الباب ، وأطلق احدهما رصاصة على الاخر ، فسقط هذا ميتا ، واندفع القاتل عبر الحديقة ، وقفز فوق السور النباتى . . واطل المستر كننجهام العجوز من نافذة حجرة نومه فأبصر القاتل يجرى ويصل الى الطريق ، ولكنه اختفى فى الحال من أمام ناظريه . ووقف المستر اليك ليرى ما اذا كان بوسعه أن يسعف الرجل المحتضر ، وهكذا هرب ذلك الوغد بعيدا . وزيادة على كونه رجلا متوسط الحجم ويرتدى ملابس دكناء ، فليس لدينا اى دليل شخصى . ولكن تحرياتنا تجرى على قدم وساق ، فاذا كان ذلك اللص القاتل غريبا عن المنطقة ، فسرعان ماسنعثر عليه . »

« ووليم هذا ، ماذا كان يعمل هناك ؟ هل قال شيئا قبل ان يموت ؟ »

« ولا كلمة . انه يعيش فى كوخ مع امه . ولما كان شخصا يتفانى فى خدمة سيده ، فيخيل الينا انه سار الى البيت بهدف الاطمئنان عليه . اذ بالطبع ، جعلت مسألة أكتون هذه ، كل شخص يلزم الحذر . لابد أن السارق فتح الباب عنوة — كسر القفل — عندما باغته وليم . »

« هل قال وليم شيئا لامه قبل أن يخرج ؟ »

« انها عجوز دردبيس وصماء ، ولم نستطع الحصول منها على أية معلومات . وقد أطارت هذه الصدمة نصف عقلها ، ولكنى اعلم انها لم تكن فى أى وقت على شىء من الذكاء . ومع ذلك ، فهناك دليل بالغ الاهمية . انظر الى هذه ! »

أخذ المفتش قطعة ورق صغيرة ، انتزعت من دفتر مذكرات وبسطها على ركبته .

« وجدت هذه الورقة بين سبابة القتيل وابهامه . يبدو انها قطعة من ورقة اكبر . وتلاحظ ان الساعة المذكورة بها هى نفس الساعة التى لقى فيها ذلك المسكين حتفه . كما ترى أن قاتله قد يكون خطف منه بقية الورقة ، أو انه خطف هذه القطعة من يد القاتل . يبدو من قراءتها انها موعد . »

اخذ هولمز قطعة الورق التى ترى هنا صورة طبق الاصل منها .

« استطرد المفتش يقول : لنفرض انها كانت موعدا ، فبالطبع تكون النظرية المعقولة ، أنه على الرغم من سمعة وليم كيروان هذا وشهرته بالامانة فربما كان على اتفاق مع اللص . ربما قابله هناك ، وربما ساعده فى كسر الباب . وبعد ذلك قد يكونا اختلفا فيما بينهما . »

قال هولمز الذى كان يفحص الورقة بتركيز بالغ :

« هذا الخط ذو اهمية خارقة هناك أمور أعمق مما كنت أعتقد . » ثم وضع راسه على يديه بينما ابتسم المفتش لذلك الاثر الذى أحدثته قضيته على اخصائى لندن الشهير .

قال هولمز فى الحال : « ملاحظتك الاخيرة فى امكان وجود تفاهم بين اللص والخادم وأن هذه الورقة قد تكون موعدا من احدهما للاخر ، ملاحظة وليدة الذكاء البالغ ، وليست غير ممكنة . غير ان هذه الكتابة تبدأ ... »

وضع هولمز راسه على يديه مرة اخرى ، وبقى كذلك لبضع دقائق يفكر تفكيرا عميقا . وعندما رفع راسه ، ادهشنى ان ارى خده ملونا بالحمرة ، وعينيه تتألقان كما كان قبل مرضه . ونهض واقفا على قدميه بخفته ونشاطه القديمين .

قال : « أقول لك ماذا ! اريد ان القى لمحة هادئة على تفاصيل هذه القضية . هناك شىء يثير تفكيرى كثيرا . فلو سمحت سأترك صديقى واطسون هنا معك ، وسأذهب مع المفتش لاختبار حقيقة

واحدة أو اثنتين من تخيلاتى الصغيرة . سأعود اليكما بعد نصف ساعة . »

مرت ساعة ونصف قبل أن يعود المفتش وحده .

قال المفتش : « المستر هولمز يذرع أرض الحقل جيئة وذهابا فى الخارج ، ويريدنا نحن الاربعة أن نذهب الى البيت معا . »

« الى بيت المستر كننجهام ؟ »

« نعم ، ياسيدى . »

« لماذا ؟ »

هز المفتش كتفيه ، وقال : لا أعلم بالضبط ، يا سيدى . وفيما بيننا ، أعتقد أن المستر هولمز لم يتغلب على مرضه بعد . بدا منه مسلك غريب وهو منفعل غاية الانفعال . »

قلت : « لا أعتقد أن هناك مايدعو الى القلق . فقد جرت العادة على اننى أجد طريقة تفكير فى ذلك الجنون الذى يبدو عليه . »

فتمتم المفتش يقول : « قد يقول بعض الناس ان هناك جنونا فى طريقته . ولكنه متلهف الى ان يبدأ تحقيقه . فمن الخير أن نلحق به اذا كنتما مستعدين . »

وجدنا هولمز فى الحقل يسير ذهابا وايابا وذقنه مغروس فى صدره ، ويداه فى جيوب بنطلونه .

قال : « ما أعظم ماتزيد متعة هذه القضية ! الحقيقة ياوطسون، ان رحلتك هذه قد نجحت نجاحا واضحا . سعدت بصباح بهيج . »

قال الكولونيل : « علمت انك ذهبت الى مسرح الجريمة . »

« نعم ، قمت انا والمفتش بقليل من الاستكشاف . »

« هل من نجاح ؟ »

« نعم ، رأينا بعض الاشياء المتعة . سأخبرك ماذا فعلنا ونحن سائرون . رأينا أولا جثة ذلك الرجل المنكود الحظ . ومن المؤكد انه مات من رصاصة كما ذكر . »

« وهل شككت فى ذلك ؟ »

« من الخير أن نفحص كل شىء ، ففحصنا أشياء كثيرة ، ولم يضع فحصنا سدى . ثم التقينا بالمستر كننجهام وابنه اللذين أمكنهما تحديد النقطة التى انطلق منها القاتل خلال الحديقة أثناء فراره . وكانت هذه بالغة الاهمية . »

« بطبيعة الحال . »

« ثم ألقينا نظرة على والدة وليم المسكين . ولم نستطع الحصول

منها على اية معلومات بسبب شيخوختها وضعفها . »

« وما نتيجة تحقيقك ؟ »

« عرفت أن الجريمة فيها الكثير من الغرابة ، وربما جعلتها زيارتنا هذه ، أقل غموضا . أظننا متفقين ، ياسيادة المفتش ، على أن قصاصة الورق التي وجدت فى يد القتيل وقد كتب عليها موعد موته بالضبط ، بالغة الاهمية . »

« هى دليل ، يامستر هولمز . »

« انها دليل بالفعل . فالشخص الذى كتب هذه المذكرة ، هو الذى أخرج وليم كيروان من فراشه فى تلك الساعة المتأخرة . ولكن ، اين بقية هذه الورقة ؟ »

فقال المفتش : « فحصت الارض بعناية بهدف العثور عليها ، ولكنى لم أجدها . »

« لقد انتزعت من يد القتيل وهو متشبث بها فتمزقت وبقى جزء منها فى يده . لماذا تلهف شخص ما الى الحصول عليها ؟ لانها تثبت التهمة عليه . وماذا سيفعل بها ؟ المعقول انه وضعها فى جيبه دون أن يفطن الى أن أحد اركانها بقى فى يد القتيل . فلو أمكننا الحصول على بقية هذه الورقة ، فمن الجلى اننا نكون قد قطعنا شوطا طويلا نحو حل هذا اللغز . »

« هذا صحيح . لكن كيف نصل الى جيب القاتل قبل أن نقبض عليه ؟ »

« حسنا ، حسنا ! هذا جدير بالتفكير . هناك نقطة واضحة أخرى . أرسلت هذه المذكرة الى وليم ولا يمكن أن يكون الرجل الذى كتبها قد أخذها اليه بنفسه والا كان بوسعه أن يخبره بمضمون الرسالة شفويا . فمن أحضر هذه المذكرة ، اذن ؟ وهل جاءت بالبريد ؟ »

قال المفتش : « عملت تحقيقا ، فعلمت أن وليم تسلم خطابا بالبريد بعد ظهر امس . ولكنه مزق مظروف الخطاب . »

فصاح هولمز وهو يربت على ظهر المفتش : « رائع ! هل رايت ساعى البريد ؟ انه لمما يسرنى أن أعمل معك ياسيادة المفتش . حسنا ، هاهو الكوخ ، هل تأتى معى ياكولونيل ، فأريك مسرح الجريمة ؟ »

مررنا بالكوخ الجميل ، الذى كان القتيل يعيش فيه . وسرنا فى طريق تحف بجانبيه أشجار البلوط ، ومنه الى بيت الملكة آن

القديم الجميل ، الذى يحمل تاريخ مالبلاكيه على الزخرف المثلث الشكل فوق بابه . فقادنا هولمز والمفتش حوله حتى وصلنا الى البوابة الجانبية التى يفصلها جزء من الحديقة عن سور النباتات المتسلقة المجاور للطريق وكان هناك كونستابل واقف عند باب المطبخ .

فقال هولمز : « افتح الباب ، أيها الضابط ! » « وكان المستر أليك كننجهام واقفا على السلم فأبصر الرجلين يتصارعان فى هذا المكان الذى نحن فيه الان اما المستر كننجهام المسن فكان واقفا الى جانب الشباك — الثانى الى اليسار — فأبصر القاتل يجرى الى يسار تلك الشجيرة . وكذلك أبصره الابن . وهما ، متأكدان من ذلك فيما يختص بالشجيرة . ثم خرج المستر اليك وركع بجانب الرجل المجروح . والارض صلبة ، كما ترى ، ولا آثار اقدام هناك

وبينما هو يتكلم ، جاء رجلان يسيران فى ممر الحديقة ، حول زاوية البيت ، احدهما مسن ذو وجه قوى عميق التجاعيد به عينان قويتان . اما الاخر فصغير السن ذو ملامح باسمة متألقة ، يرتدى ملابس جميلة ، على نقيض الموضوع الذى جاء بنا الى ذلك المكان .

نظر هذا الشاب الى هولمز وقال : اما زلت فى هذا التحقيق ؟ ظننتكم ، أيها اللندنيون ، لا تخطئون أبدا . وعلى اية حال ، يبدو انك لست سريعا . »

فقال هولمز بروح طيبة : « يجب أن تعطينا قليلا من الوقت . »

قال اليك كننجهام الصغير : « ستحتاج الى ذلك الوقت . لا ارى اى دليل لدينا على الاطلاق . »

فقال المفتش : « لدينا دليل واحد . اعتقد أننا لو وجدناه ... يالرحمة السماء ! ماذا جرى يامستر هولمز ؟ »

ففجأة صارت ملامح صديقى مخيفة : دارت عيناه الى فوق ، والتوت ملامحه من شدة الالم واصدر آنة مكبوتة سقط فى اثرها على وجهه فوق الارض . واذ فزعنا لهول تلك المفاجأة وشدة هذه النوبة ، حملناه الى المطبخ وارقدناه فوق مقعد طويل ضخم وهو يتنفس بصعوبة ، واستمر هكذا لبضع دقائق .

« سيخبركم واطسون أننى ماكدت أشفى من مرض شديد . واننى مازلت معرضا الى مثل هذه النوبات العصبية المفاجئة . »

فقال كننجهام العجوز : « هل ارسلك الى البيت فى عربتى ؟ »

« بما اننى هنا ، فهناك نقطة واحدة يجب أن أتأكد منها .

ويمكننا التحقق منها بسهولة . »

« وما هي ؟ »

« يبدو أنه من الممكن ان مجيء وليم المسكين ، لم يكن قبل دخول اللص الى البيت ، وانما بعده . يبدو أننا لابد أن نأخذ كقضية مسلمة ، انه على الرغم من كسر الباب ، فان اللص لم يدخل اطلاقا . »

فقال المستر كننجهام برزانة : « اعتقد ان هذا واضح تماما . لم يكن ابني اليك قد ذهب الى الفراش بعد ، وبالطبع كان لابد ان يسمع اي شخص يسير فى البيت . »

« أين كان يجلس ؟ »

« كنت جالسا أدخن فى حجرة النوم . »

« عند أية نافذة كنت ؟ »

« آخر نافذة على اليسار ، المجاورة لحجرة أبى . »

« وكان مصباحاك كلاهما مضاءين بالطبع ؟ »

« بدون شك . »

فقال هولمز مبتسما : « هنا بعض نقاط طريفة أليس من الخارق أن يأتى لص — ولص ذو خبرة سابقة — ويكسر باب بيت ويدخل فى وقت يرى فيه ، من الاضواء ، أن اثنين من الاسرة مازالا متيقظين ؟ »

« لابد أن كان غشيما . »

فقال المستر اليك : « بالطبع ، اذا لم تكن هذه القضية غريبة ، فما كنا نستدعيك ونطلب منك تفسيرا وأما قولك ان الرجل سرق البيت قبل أن يمسكه وليم ، فقول سخيف . اما كنا نجد المكان فى فوضى وتضيع منا الاشياء التى يأخذها ؟ »

قال هولمز : « هذا يتوقف على نوع تلك الاشياء يجب أن تتذكر أننا نتعامل مع لص غريب الاطوار ، يبدو انه يعمل بطريقته الخاصة . فمثلا ، انظر الى المجموعة الغريبة التى سرقها من بيت أكتون — ماذا كانت ؟ — كرة من الدوبارة ، وثقل خطابات ، ولا أعلم ماذا كانت الاشياء الغريبة الاخرى ! »

فقال كننجهام الاب : « حسنا ، نحن فى يديك ، يامستر هولمز . أى شىء تقترحه أنت أو المفتش ، فسننفذه بكل تأكيد . »

قال هولمز : « أولا ، أريد أن تعرض مكافأة منك شخصيا ، لان الحكومة قد تستغرق زمنا طويلا قبل أن تتفق على مبلغ المكافأة ،

وقد جرت العادة ألا تتم هذه الامور بسرعة . هاك صيغة الاعلان عنها اذا لم يكن لديك مانع من التوقيع عليها . أعتقد أن خمسين جنيهـا تكفى . »

فقال القاضى كننجهام : « أقدم ، بكل سرور ، خمسمائة جنيه . » وأخذ الورقة والقلم اللذين قدمهما له هولمز ، وقال وهو ينظر الى المستند : « ولكن هذا ليس صحيحا . »

« لاننى كتبته بسرعة . »

« ترى أنك بدأت تقول : « بما أنه فى حوالى الساعة الواحدة الا ربعا حدثت محاولة الخ » بينما كانت الساعة الثانية عشرة الا ربعـا . »

تألمت لذلك الخطأ ، لاننى أعرف أن هولمز دقيق فى مثل هذه الامور ولا يمكن أن يخطأ هكذا . من ميزاته أنه دقيق فيما يختص بالحقائق ، ولكن مرضه الاخير لابد أنه أثر فيه . فكانت هذه الحادثة الصغيرة كافية لان ترينى أنه لم يعد الى نفسه بعد . ومن الجلى أنه أحرج لحظة عندما رفع حاجبيه ، وانفجر اليك كننجهام ضاحكا . فصحح الاب الخطأ وناول هولمز الورقة ثانية .

قال الاب : « انشرها بسرعة قدر الامكان . اظن فكرتك رائعة ، يامستر هولمز . »

وضع هولمز قطعة الورق بعناية فى دفتر مذكراته ، وقال : « والان ، من الخير حقيقة أن نمر جميعا فى البيت كله ، سويا ، لنتأكد من أن ذلك اللص الغريب الاطوار ، لم يحمل معه شيئا . »

قبل أن يدخل هولمز ، فحص بعناية الباب الذى كسره اللص . من الجلى أن ازميلا أو سكينا قوية ، ادخلت ، ودفع القفل الى الداخل بتلك الاداة . كان بوسعنا أن نرى العلامات فى أخشاب الباب حيث أدخلت هذه الاداة .

فسأل قائلا : « اذن ، فأنتم لا تستعملون مزاليج ؟ »

« لم نجدها ضرورية على الاطلاق . »

« هل تحتفظون بكلب ؟ »

« نعم ، ولكنه مربوط بسلسلة فى الجانب الاخر من البيت . »

« متى يذهب الخدم الى الفراش ؟ »

« فى حوالى الساعة العاشرة . »

« أعلم أن وليم يذهب الى الفراش فى تلك الساعة أيضا . »

« نعم . »

« من الطريف انه كان ساهرا فى تلك الليلة بالذات . والآن ، يا مستر كننجهام ، يسرنى اذا تفضلت وأريتنا البيت . »

هناك ممر مبلط بالحجارة يتفرع منه المطبخ بسلم خشبى يصل مباشرة الى الدور الاول من البيت . ويفتح على الجانب المقابل بسلم ثان أكثر زخرفا ، يأتى من البهو الامامى . وتفتح حجرة الاستقبال على هذا البهو ، وكذلك عدة حجرات نوم ، تتضمن حجرة نوم المستر كننجهام ، وحجرة نوم ابنه . وكان هولمز يمشى وئيدا وهو يلاحظ بدقة تلك المظاهر المعمارية للبيت . وكان بوسعى أن أعرف من ملامحه أنه وقع على دليل قوى ، ومع ذلك فلم يمكننى أن أتصور الى اية جهة ستقوده هذه الاستدلالات .

قال المستر كننجهام فى شىء من القلق : « يا سيدى الفاضل ، ليس هذا ضروريا بالتأكيد . هذه هى حجرتى الواقعة عند آخر السلم والتى بعدها حجرة ابنى . وأترك لحكمك وتقديرك ما اذا كان بوسع اللص أن يصعد الى هنا دون أن يزعجنا . »

قال الابن بابتسامة خبيثة : « يجب أن تبدأ من الاول ثانية ، وتبحث عن دليل جديد . »

قال : « لا أزال أطلب منك أن تحترمنى أكثر من ذلك . فلابد أن أعرف ، مثلا ، المسافة التى تسيطر بها حجرات النوم على واجهة البيت . أفهم أن هذه حجرة نوم ابنك — وفتح الباب — « واظن هذه هى الحجرة التى جلس يدخن فيها حينما أطلق الانذار بالخطر .. على أى مكان يطل شباك هذه الحجرة ؟ » ودخل حجرة النوم وفتح الباب والقى نظرة حول الحجرة الاخرى .

قال المستر كننجهام مختبرا : « آمل فى أن تكون قد اقتنعت الآن ؟ »

« أشكرك . اعتقد اننى رأيت كل ما رغبت فى رؤيته . »

« ثم اذا كان من الضرورى حقيقة ، فيمكننا أن ندخل حجرتى . »

« اذا لم يكن فى هذا تعب كبير لك . »

هز القاضى كتفيه وتقدم الطريق الى حجرته التى كانت مؤثثة بأثاث بسيط ، وكانت حجرة عادية . وعندما دخلناها فى اتجاه النافذة ، تأخر هولمز حتى صرت أنا وهو آخر أفراد المجموعة . وكان عند مؤخر السرير نضد صغير مربع عليه طبق برتقال ودورق ماء . وعندما مررنا بجانبه ، لشد ما كانت دهشتى بالغة عندما مال هولمز امامى وأوقع النضد عمدا بكل ما كان فوقه .. تحطم الدورق الف

قطعة وتدحرجت الفاكهة الى كل ركن من الحجرة .

فقال ببرود : « عملت هذا الآن ، واحدثت كل هذه الفوضى على الطنفسة ! »

انحنيت فى شيء من الارتباك واخذت التقط البرتقال . وقد فهمت من ذلك أنه لأمر ما رغب زميلى فى الصاق التهمة بى . كذلك انحنى الآخرون يجمعون البرتقال ويضعونه فى الطبق مرة أخرى ، وأقاموا النضد على قوائمه ثانية .

فصاح المفتش يقول : « يا للعجب ! الى اين ذهب المستر هولمز ؟ »

اختفى هولمز .

فقال اليك كننجهام : « انتظر هنا لحظة . فى رأيى أنه ليس فى رشده . تعال معى ، يا ابى ، لنرى أين ذهب ! »

اندفع الابن وأبوه خارج الحجرة ، تاركين المفتش والكولونيل معى وكل منا يحملق فى الآخر .

قال المفتش : « أقسم بشرفى على اننى اوافق المستر اليك . قد يكون هذا تأثير مرضه ، ولكن يبدو لى أن ..... »

لم يكمل المفتش كلامه اذ سمعنا صرخة تدوى فجأة : « اغيثونى ! أغيثونى ! جريمة قتل ! » فتعرفت على صوت صديقى ، واندفعت بجنون من الحجرة الى البهو . وكان الصراخ قد تحول الى صياح مبحوح آت من الحجرة التى زرناها أولا . فاندفعت الى داخلها والى الحجرة التى بعدها . فأبصرت الأب وابنه منحنيين فوق جسم هولمز الطريح على الارض ، وقد أمسك الابن بعنق هولمز بكلتا يديه ، بينما لوى الأب معصمه . وفى لحظة هجمنا عليهما نحن الثلاثة وأزحناهما بعيدا عنه . فترنح واقفا على قدميه شاحب اللون جدا وبادى الانهاك .

صاح هولمز يقول : « آقبض على هذين الرجلين ، أيها المفتش ! »

« عن أية تهمة ؟ »

« تهمة قتل سائق عربتهما وليم كيروان ! »

نظر المفتش حواليه مرتبكا ، وقال : « أنا على يقين من انك لا تقصد هذا حقيقة ، يا مستر هولمز »

فصاح هولمز بجدية يقول : « ويحك ، يا رجل ، انظر الى وجهيهما ! »

بالتأكيد ، لم أر فى حياتى اعترافا بالذنب باديا على الوجه

البشرى أوضح مما ظهر فى وجهى هذين الرجلين .
بدا الرجل الكبير متحجرا ومذهولا ، وقد أخرس لسانه وبان الذعر قويا فى ملامح وجهه . أما الابن ، فقد ترك كل أسلوب الصلف والعجرفة الذى تميز به ، والتوت ملامحه الجميلة .. لم يقل المفتش شيئا بل خرج الى الباب واطلق صفارته . فلبى نداءه اثنان من الكونستابلات .
قال المفتش : « ليس لى الخيار ، يا مستر كننجهام اتعشم أن يسفر هذا كله عن خطأ ، ولكنك ترى اليس كذلك ؟ اترك هذا ! » قال ذلك وضرب يد الابن فوقع على الارض مسدس كان على وشك اطلاقه .
فقال هولمز : « احتفظ بهذا . » ووضع قدمه بسرعة على المسدس وقال : « سنجده ذا فائدة عند المحاكمة . هذه ، فى الحقيقة ، هى ما كنا نريدها . » ورفع فى يده قطعة صغيرة من الورق ، مغضنة .
فصاح المفتش يقول : « بقية الورقة ! »
« بالضبط . »
« وأين كانت ؟ »
« فى الموضع الذى كنت متأكدا من ضرورة وجودها فيه .. سأوضح لك كل شىء الآن . اعتقد ان بوسعك ان ترجع الآن ، يا كولونيل ، أنت وواطسون وسأعود اليكما بعد ساعة على الاكثر . يجب أن نتحدث الى المسجونين ، أنا والمفتش ، وستريانى اكيدا فى موعد الغداء . »
كان شرلوك هولمز عند وعده ، إذ انضم الينا فى حوالى الساعة الواحدة مساء فى حجرة تدخين الكولونيل ، بصحبة رجل مسن قصير القامة ، قدمه الينا على انه المستر اكتون ، الذى كان منزله مسرح السرقة الاولى .
قال هولمز : « اردت ان يكون المستر إكتون حاضرا وانا اشرح لكما هذه القضية ، اذ من الطبيعى أن يهتم كثيرا بالتفاصيل . اخشى ، يا عزيزى الكولونيل أن تأسف على استضافة شخص كثير المشاكل مثلى . »
قال الكولونيل ، بجدية : « على العكس ، فاننى أعتبر زيارتك أعظم ميزة جعلتنى ادرس طرق عملك . وأعترف بأنها تفوق كل ما كنت أتوقعه . كما اننى عاجز تماما عن معرفة كيفية توصلك الى

هذه النتيجة . لم ار حتى الآن وجه اى دليل . »

« أخشى أن يضللك شرحي ، ولكنى تعودت دائما الا اخفى شيئا من طرقى ، سواء عن صديقى واطسون أو عن اى واحد يجد فيها متعة . ولكن ، أولا ، بما أنني اعانى من وقوعي على الارض ومن الاجهاد الذى أصابنى فى حجرة النوم هناك ، فأظن أننى يجب أن أشرب كأسا من البراندى الخاص بك ، يا كولونيل اذ انهكت قوتى أخيرا . »

« أتعشم الا تعانى شيئا بعد ذلك من هذه النوبات العصبية . »

ضحك شرلوك هولمز ملء فمه ، ثم قال : « سنأتى الى هذه النقطة حينما يأتى دورها . سأسرد لكم وقائع القضية بترتيبها الصحيح ، مبينا لكم شتى النقط التى أرشدتنى . وأرجو أن تقاطعوننى اذا ما رأيتم استدلالا غير واضح لكم .

« من الأهمية القصوى فى اكتشاف الجرائم ، أن يستطيع المحقق معرفة عدد الوقائع العرضية والوقائع الحيوية ، والا صار انتباهه مشتتا بدلا من أن يكون مركزا . وفى هذه القضية ، لم يكن فى ذهنى أدنى شك منذ البداية فى أن مفتاح هذه القضية كلها يقع فى قصاصة الورق التى وجدت فى يد القتيل .

« وقبل الدخول فى هذا الموضوع ، أحب أن أوجه انتباهكم الى انه اذا كانت رواية أليك كننجهام صحيحة ، وأن القاتل ، بعد أن اطلق الرصاص على وليم كيروان ، هرب على الفور ، فمن الجلى انه ليس هو الذى انتزع الورقة من يد القتيل واذا لم يكن هو الذى انتزعها ، فلابد أن الذى فعل ذلك هو أليك كننجهام نفسه . اذ عندما نزل الوالد كان كثير من الخدم فى مكان الجريمة . فالواقعة هنا سهلة جدا ، ولكن المفتش سها عنها لأنه وضع فى ذهنه أنه لا يد لأحد من هؤلاء الوجهاء الريفيين فى الجريمة . أما أنا فلا أتعصب لأحد قطعيا ، وأتتبع بسهولة كل واقعة قد تقودنى الى حقيقة ما . لذلك ، فمنذ المرحلة الاولى وجدت نفسى أتساءل عن الدور الذى لعبه أليك كننجهام .

فحصت ركن الورقة التى اعطانيها المفتش فحصا دقيقا ، فاتضح لى على الفور انها جزء من مستند عظيم الأهمية . ها هى ، هل تلاحظون الآن شيئا فيها يعتبر دليلا فى القضية ؟ »

فقال الكولونيل : « منظرها غير منتظم . »

فصاح هولمز يقول : « يا سيدى العزيز . ما من أقل شك فى

الدنيا ، ان الذى كتبها شخصان . كتب كل منهما كلمة وترك أخرى للآخر : »

فصاح الكولونيل يقول : « وحق جوف ! انها لواضحة وضوح النهار . لماذا يكتب رجلان مذكرة بهذه الطريقة ؟ »

« من الجلى أن الموضوع لم يكن شريفا . وكان أحدهما لا يثق بالآخر ، فأصر على أنه اذا اكتشفت الجريمة ، فلابد أن ينال الآخر نصيبه من العقاب . والآن ، فيما يختص بالرجلين ، يتضح أن الذى كتب هو رئيس العصابة . »

« وكيف عرفت ذلك ؟ »

« يمكننا أن نستنتج هذا من مقارنة صفة أحد الخطين بصفة الخط الآخر . ولكن لدينا أسبابا أكثر تأكيدا من الافتراض . فاذا فحصت قصاصة الورق هذه بامعان ، استنتجت أن الرجل ذا الخط الأقوى كتب جميع كلماته أولا ، تاركا مسافات ليملأها الآخر . ولم تكن هذه المسافات كافية دائما . ويمكنك ملاحظة أن الرجل الثانى اضطر الى ضغط احدى الكلمات . فالرجل الذى كتب كل كلماته من قبل ، لا شك فى أنه الرأس المدبر لهذه الجريمة . »

فصاح المستر اكتون يقول : « رائع ! »

قال هولمز : « ولكن هذه مسألة سطحية ، والآن ، نأتى الى نقطة هامة . . قد لا يكون وصل الى علمكم أن خبراء الخطوط توصلوا الى معرفة سن الرجل ، بغاية الدقة ، من خطه . ففى الأحوال العادية ، يمكن وضع الشخص فى عقده الصحيح بثقة تامة . أقول فى الأحوال العادية ، لأن اعتلال الصحة والضعف البدنى يعطيان مظهر تقدم السن ، وحتى ولو كان المريض شابا . وفى حالتنا هذه ، ينظر الى الخط الجرىء القوى لأحد الرجلين ، والى منظر خط الآخر المتكسر الظهر ، الذى ما زال محتفظا بقوته على أن يقرأ رغم أن حرف «ت» بدأ يفقد الشرطة الأفقية . فيمكننا اذن أن نقول ان الاول رجل صغير السن والثانى متقدم فى سنوات عمره دون أن يكون عاجزا . »

فصاح المستر اكتون للمرة الثانية ، يقول : « رائع ! »

« ومع ذلك ، فهناك نقطة أخرى أكثر دهاء ، وبالغة الأهمية . هناك صفة مشتركة بين الخطين . انهما لرجلين من دم واحد . ويتجلى هذا لكم بوضوح فى الحروف الاغريقية ، أما لى ، فهناك نقط صغيرة تدل على نفس الشىء . لا شك اطلاقا فى أن هناك صفة عائلية يمكن اقتفاؤها فى عينتى الخط هاتين . أعطيكم هنا النتائج المرشدة

فحسب ، لفحص تلك الورقة . هناك ثلاثة وعشرون استنتاجا تهم الخبراء أكثر مما تهمكم . وتميل كلها الى تأكيد النتائج التى توصلت اليها بأن كننجهام الأب ، وابنه هما كاتبا هذا الخطاب .

« وبعد أن وصلت الى هذه النتيجة ، كانت خطوتى التالية ، بلا شك ، هى فحص تفاصيل الجـريمة والى اى مدى يمكن أن تساعدنا . ذهبت مع المفتش الى البيت حيث عاينت كـل ما تجب معاينته . فقد حدث الجرح القاتل ، كما أمكننى أن أستدل فى ثقة تامة ، برصاصة مسدس أطلقت على مسافة تزيد على أربع ياردات . لم تكن هناك بقع احتراق البارود على ملابسه ، وهكذا يتضح أن أليك كننجهام كاذب حينما قال ان الرجلين كانا يتصارعان عندما أطلقت الرصاصة . ثم اتفق كل من الأب والابن على الموضع الذى هرب منه الرجل الى الشارع . والواقع أن هناك حفرة عريضة فى تلك النقطة ، مبتلة القاع . ولكن ليس بها ما يدل على آثار حذاء عند هذه الحفرة . فتأكدت ثانية من كذب هذين الرجلين ولم يكن هناك رجل غير معروف فى مكان الجريمة ، اطلاقا .

« سأناقش الآن ، الدافع على ارتكاب الجريمة الفريدة هذه . ولكى أصل الى هذا الدافع ، كان على أن أصل أولا الى سبب تلك السرقة الطريفة التى حدثت فى بيت المستر اكتون . فهمت من شىء ذكره لى الكولونيل ، أن هناك قضية قائمة بينك يا مستر أكتون ، وبين اسرة كننجهام . وبالطبع ، فكرت فى الحـال فى أنهما اقتحما مكتبتك بهدف الحصول على مستند ذى أهمية بالغة فى القضية . »

فقال المستر أكتون : « هكذا ، بالضبط . ولا يمكن أن يكون هناك شك فى نواياهما .. لى الحق فى امتـلاك نصف مزرعتهما . ولو أمكنهما العثور على مستند واحد بعينه ــ كان لحسن الحظ فى خزانة محامى ــ لأحبطا القضية دون ما ريب . »

فقال هولمز مبتسما : « هكذا كان ! كانت محاولة جريئـة محفوفة بالخطر . يمكننى أن أستنتج منها نفوذ ذلك الابن أليك . فلما لم يجدا شيئا مما أراداه ، حاولا دفع الشبهة عنهما بجعلها تبدو سرقة عادية ، وبذا حملا كل ما وقعت عليه أيديهما . وما كنت بحاجة اليه هو حصولى على ذلك الجزء الباقى من المذكرة . كنت على يقين من أن أليك انتزعه من يد القتيل ، ومن المؤكد تقريبا ، أنه دسه فى جيب روبه ، والا فأين يمكن أن يكون قد خبأه ؟ والسؤال الوحيد بعد ذلك هو ، هل الورقة ما زالت فى جيب الروب أم أخرجت منه ؟

كان هذا يستحق القيام بمجهود للعثور عليها . ولهذا الغرض ذهبنا جميعا الى البيت .

« انضم الينا الأب وابنه كما تعلمون خارج باب المطبخ . كان من الأهمية الأولى عدم تذكيرهما بوجود هذه الورقة ، والا أتلفاها دون ما تأخير . وكان المفتش على وشك اخبارهما بالأهمية التى نعلقها على هذه الورقة ، ولكن الحظ أتاح لى أعظم فرصة فتصنعت تغير ملامحى ، وجحوظ عينى ، كما لو كانت أصابتنى نوبة عصبية . وهكذا غيرت مجرى الحديث . »

فصاح الكولونيل ، يقول : « يا لرحمة السماء ! أتعنى أن اشفاقنا عليك ضاع سدى ، وأنها كانت مجرد تظاهر ؟ »

قلت وأنا أنظر مدهوشا الى هذا الرجل الذى كان يحيرنى دائما بطور جديد من دهائه : « اذا حق لنا أن نتكلم بمصطلحات مهنية ، قلت انها تمت بروعة . »

قال : « هذا فن ينفع فى كثير من المواقف . وعندما افقت ، افلحت بطريقة تحتاج الى بعض النبوغ الى جعل كننجهام المسن يكتب كلمة الثانية عشرة كى أقارنها بمثيلتها فى الورقة ، فتعمدت الخطأ فى ذكر الساعة الواحدة بدلا من الثانية عشرة . »

فصحت مدهوشا أقول : « كم كنت حمارا ! »

قال هولمز ضاحكا : « كان بوسعى أن ألاحظ عليك انك تنسب هذا الخطأ الى مرضى . وانى لآسف تماما على أننى سببت لك الم الاشفاق علي ، الذى كنت أعلم أنك شعرت به .. ثم صعدنا معا الى الطابق العلوى . وبعد أن دخلت الحجرة ، أبصرت الروب معلقا خلف الباب ، فقلبت النضد بما عليه من برتقال ودورق ماء لأشغل انتباههما لحظة ، ورجعت لأفتش الجيوب . غير أنه ما كادت يدى تمسك بالورقة التى وجدتها فى أحد الجيوب ، كما كنت أتوقع ، حتى انقض علي الأب وابنه ، وأوشكا أن يقتلانى ، كما أعتقد ، لولا اسراعكم الى نجدتى ، أيها الاصدقاء . فقبض الابن الفتى على رقبتى بكلتا يديه ، ولوى الأب معصمى بهدف الحصول على الورقة من يدى . أدركا أننى عرفت كل شيء عنهما ، فتحولا من الاطمئنان التام ، الى اليأس المطلق ، وبذا ثارت ثائرتهما وصمما على انتزاع الورقة من يدى بأى ثمن .

« بعد القبض عليهما ، وجهت بعض الاسئلة اليهما فكان الأب طيعا سهل التناول ، أما ابنه فكان شيطانا رجيما ، على استعداد

لنسف راسه أو راس أى فرد آخر ، لو استطاع الوصول الى مسدسه .. فلما رأى الاب أن الاتهام ضده قويا ، خارت عزيمته واعترف بكل شيء . يبدو أن وليم اقتفى سرا أثر سيديه فى الليلة التى أغارا فيها على بيت المستر آكتون ، وبذا وضعهما تحت رحمته وفى قبضة يده ، وشرع يهددهما بفضح أمرهما ليبتز منهما بعض المال . ولكن المستر اليك كان رجلا خطرا . فلا يقبل أن يعامله ذلك الرجل على هذا النحو . فرأى الفرصة سانحة أمامه ، اذ ساد المنطقة كلها ذعر شديد من وجود لصوص بها ، وماذا يمنعه ، والحال هذه ، من التخلص من الرجل الذى يخشاه فأخرج وليم من كوخه بحيلة بارعة ، ثم أطلق عليه الرصاص . ولو حصلا على الخطاب كله ، أو فكرا فى اتلافه قبل أن يقع فى يد الغير ، لما اتجهت الشبهات نحوهما اطلاقا . »

فقلت : « والخطاب ؟ »

وضع شرلوك هولمز الورقة الموصولة أمامنا فقرأنا فيها :

« اذا أتيت الى البوابة الشرقية فى الساعة الثانية عشرة الا ربعا ، علمت ما سيكون مفاجأة كبيرة لك . وقد يكون خدمة عظيمة لك ، وكذلك للعمة موريسون . ولكن لا تقل شيئا لأحد عن هذا الموضوع . »

قال هولمز : « هـذا هو نفس الشيء الذى كنت أتوقعه . وبالطبع ، لسنا نعرف حتى الآن العـلاقة بين أليك كننجهام ووليم كيروان والعمة آني موريسون . وتوضح النتيجة أن الطعم قد أجيد وضعه فى المصيدة بمهارة فائقة . وأعتقد ، يا واطسون ، أن فترة راحتنا الهادئة فى الريف هذه ، كانت نجاحا واضحا .. وبالتأكيد ، سأعود غدا الى شارع بيكر ، وأنا ممتلىء نشاطا وقوة . »

الرجـــل المشــــوّه

جلست فى احدى ليالى الصيف ، بعد زواجي ببضعة أشهر ، الى جانب وطيسي أدخن آخر غليون ، وأقرأ رواية ، اذ كان عملى بالعيادة فى ذلك اليوم مرهقا تماما . وكانت زوجتى قد صعدت من قبل الى الطابق العلوى . ودلنى صوت اقفال باب البهو على أن الخدم قد انصرفوا ليناموا .. نهضت من مجلسى انفض الرماد من غليونى ، فاذا بى أسمع فجأة رنين الجرس .

نظرت الى الساعة فكانت الثانية عشرة الا ربعا .. ليس هذا زائرا الذى يأتى فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . لابد انه مريض جاء ليكمل عناء اليوم ، ومن الممكن أن عينه لم تذق طعم النوم .. فذهبت بوجه متجهم وفتحت الباب ، فاذا بى أدهش لأرى شرلوك هولمز هو الواقف على عتبة الباب .

قال : « حمدا لله ، يا واطسون ! كنت آمل فى الا أجىء متأخرا جدا كي أجدك . »

« أرجوك أن تدخل ، يا زميلى العزيز . »

« تبدو مدهوشا ، ولا عجب فى هذا ! وقد اطمأنت نفسك أيضا على ما يبدو لى ! ويحك الا تزال تدخن خليط الاركاديا ، الذى كنت تدخنه وأنت أعزب ! هذا أكيد ، يفضحه الرماد العــالق بسترتك والمنتفخ بصورة ملحوظة . ومن السهل معرفة انك تعودت ان تلبس حلة كاملة فى بيتك ، يا واطسون . كما انك لن تصير مدنيا أصيلا طالما تتمسك بعادة الاحتفاظ بمنديلك داخل كمك .. هل بوسعك أن تستضيفنى فى هذه الليلة ؟ »

« بكل سرور ، وعلى الرحب والسعة ! »

« أخبرتنى بأن لديك حجرة لشخص أعزب ، وأرى عدم وجود زائر رجل هنا فى الوقت الحاضر ، فان حامل قبعاتك يدل على ذلك . »

« سيبهجنى جدا ، ان بقيت . »

« شكرا . سأملأ مشجبا شاغرا فى حامل قبعاتك . آسف لأرى ان عاملا بريطانيا كان يعمل عندك اليوم . انه دليل الشر . وأتعشم الا يكون عامل المجارى . »

« انه عامل الغاز . »

« لقد ترك أثرى مسمار من حذائه على مشمع ارض بيتك حيث يقع الضوء على المشمع .. لا ، وشكرا . تناولت العشاء فى ووترلو ، ولكننى سأدخن معك غليونا بكل سرور . »

ناولته كيس التبغ ، فجلس قبالتى ، ودخن لبعض الوقت وهو صامت .. وكنت أعلم تماما أنه ما من شىء يأتى به الى بيتى فى مثل ذلك الوقت سوى عمل هام ، لذا انتظرت فى صبر حتى يفتح لى الموضوع بنفسه .

قال وهو ينظر الى بامعان : « كنت مجهدا فى عمل العيادة اليوم ؟ »

« نعم . كنت مشغولا طول اليوم ، ولكننى لست أدرى كيف استنتجت هذا ؟ »

قهقه هولمز فى نفسه .

قال : « لى ميزة معرفة عاداتك ، يا واطسون : اذا كان عملك خفيفا فانك تمشى ، اما اذا كان كثيرا مرهقا فانك تركب عربة . وانى لأرى حذاءك غير قذر رغم استعماله ، فلم أشك فى انك كنت مشغولا ولذلك استخدمت عربة . »

صحت أقول : « أنت رائع ، يا هولمز ! »

قال : « هذه أمور مبدئية . هذا أحد الأمثلة التى يستطيع فيها المدلل احداث تأثير يبدو رائعا فى نفس جاره ، لأن هذا الجار لا يعرف النقطة التى هى أساس الاستنتاج . ويمكن أن يقال نفس الشىء ، يازميلى العزيز ، عن بعض الامور القيمة التى تتوقف قيمتها على بعض عوامل القضية التى فى يدك ، والتى لم تنقل الى القارىء .. والآن ، أنا فى مركز هؤلاء القراء ، لأننى أمسك فى يدى هذه عدة خيوط لقضية من أغرب القضايا التى حيرت عقل الانسان ، ولكن ينقصنى خيط أو اثنان لاكمال نظريتى ، ولكنى سأحصل عليهما ، يا واطسون . سأحصل عليهما ! » قال هذا وتألقت عيناه ، واحمرت وجنتاه الرفيعتان . ولمدة لحظة ، انقشع القناع من فوق طبيعته الحادة ، ولكن لمدة لحظة واحدة فحسب . فلما نظرت اليه ثانية ،

وجدت وجهه قد استعاد لونه الهندي الاحمر ، الذى جعل الكثيرين يعتبرونه آلة أكثر منه رجلا .

قال : « تنطوى هذه المسألة على مظاهر ممتعة ، ويمكننى القول بأنها مظاهر استثنائية بالغة المتعة . فكرت فى هذا الموضوع من قبل ووصلت ، على ما أعتقد ، الى ما يكاد يكون هو الحل . فاذا أمكنك أن ترافقنى فى هذه الخطوة الأخيرة ، كنت ذا فائدة كبيرة لى . »

« يسرنى هذا . »

« أبوسعك أن تذهب معى غدا الى الدرشوط ؟ »

« لا شك فى أن جاكسون يستطيع فحص مرضاى . »

« حسنا جدا . أريد الذهاب بقطار الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق من ووترلو . »

« فى هذا متسع من الوقت لى . »

« ثم اذا لم يكن النوم يداعب عينيك ، فسأعطيك مجملا لما حدث وما بقى لنعمله . »

« غالبنى النعاس قبل مجيئك ، أما الآن فأنا يقظان تماما . »

« سأختصر القصة قدر الامكان دون أن أترك أى شىء هام فى القضية . ومن الممكن أن تكون قرأت شيئا عنها . انها قضية الاعتداء على الكولونيل باركلى وقتله . وهو من فرقة مالوز الملكية فى الدرشوط . وهى القضية التى أقوم بالتحقيق فيها . »

« لم أسمع عنها شيئا . »

« لم تثر هذه القضية انتبـاه الكثيرين حتى الآن ، باستثناء جمهور منطقة وقوعها . حدثت وقائعها منذ يومين فقط ، وهى باختصار :

« تعلم أن فرقة مالوز الملكية ، هى أشهر فرقة ايرلندية فى الجيش البريطانى ، اذ فعلت العجائب فى حرب شبه جزيرة القرم ، وقمع المتمردين . وشهرت نفسها فى كل فرصة ممكنة منذ ذلك الوقت . كان يقودها جيمس باركلى حتى ليلة الاثنين . وهو من قدامى المحاربين الشجعان .. بدأ حياته العسكرية كجندى بسيط ، ورقى لبطولته أيام حرب المتمردين . وهكذا عاش ليقود الفرقة التى كان فيها نفرا يحمل بندقية ، فى وقت ما .

« تزوج الكولونيل باركلى أيام أن كان رقيبا (جاويش) ، من فتاة اسمها قبل الزواج نانسى ديفوى . وهى ابنة الرقيب حامل العلم بنفس الفرقة . لذا كان بينهما بعض الاتصال الاجتمـــاعى

البسيط ، كما يمكن أن يتصور المرء .. وعندما كان هذان الزوجان صغيرين (اذ مازالا صغيرين) وجدا نفسيهما فى بيئة جديدة . ويبدو أنهما تأقلما بسرعة . وكما أعلم ، اشتهرت مسز باركلى بين سيدات الفرقة مثلما كان زوجها بين زملائه الضباط . كما يمكننى أن أضيف على قولى هذا ، أنها كانت على قدر عظيم من الجمال .. ورغم أنها تزوجت منذ أكثر من ثلاثين عاما ، فانها مازالت فاتنة جـذابة المنظـر .

« يبدو أن حياة الكولونيل باركلي العائلية كانت سعيدة تسير فى نظام رتيب . وقد أكد لى الماجور مورفى ، الذى ادين له بمعظم هذه الحقائق ، أنه لم يسمع قط عن حدوث سـوء تفاهم بين هذين الزوجين . وعلى العموم ، يعتقد أن اخلاص باركلى لزوجته أكثر من اخلاصها له . فاذا تصادف أن غاب باركلى بعيدا عن زوجته لمدة يوم واحد ، قلق اشد القلق . اما هى ، من ناحية أخرى ، فرغم وفائها وأمانتها ، كانت أقل حبا لزوجها من حب زوجها لها . ولكنهمـا يعتبران ، فى الفرقة ، نموذجا للزوجين المتوسطى العمر . ولم يكن فى علاقتهما المتبادلة شىء على الاطـلاق يمكن أن يؤدى الي وقوع تلك الجريمة التى سأروى لك قصتها .

« يبدو أن للكولونيل باركلى بعض نزعات شاذة فى أخلاقه . ففى حالته العادية ، تراه جنديا مرحا جريئا . الا انه كانت هنـاك حالات يبدى نفسه فيها قادرا على كثير من العنف والحقـد وحب الانتقام . ومع ذلك ، يبدو أن هذا الجانب من حياته لم يتجه نحو زوجته اطلاقا . حقيقة أخرى استرعت انتباه الماجور مورفى وثلاثة اخماس الضباط الاخرين الذين تحدثت معهم ، وهى انه كانت تعتريه احيانا حالة من الاكتئاب . وعندما عبر الماجور عن ذلك ، كثيرا ماكانت ترتسم على فمه ابتسامة كما لو كانت تحركها يد غير مرئية ، حينما ينضم الى مائدة حفل مرح فى مطعم الثكنات . واحيانا كانت تلازمه نوبة من الاكتئاب لعدة أيام متصلة ، فيبدو فى أعمق حالات الحزن . وهذه ، وبعض الخرافات الاخرى ، هى كل مافى أخلاقه من نزعات غير عادية لاحظها اخوانه الضباط . والخرافة التى سادت لديه ، هى أنه كان يخاف البقاء وحده فى اى مكان ، ولا سيما بعد هبوط الظلام . وهذه ظاهرة نتج عنها كثير من التقول والتخمينات ، اذ كانت فى رجل يتصف بالجراة والشجاعة .

« بقي الفيلق الاول من فرقة المالوز الملكية (الذى هو الفيلق

المائة والسابع عشر) فى الدرشوط لعدة سنين . ويقيم الضباط المتزوجون خارج الثكنات . فأقام الكولونيل باركلى طوال هذه المدة فى فيللا اسمها « لاشين » ، تبعد عن المعسكر الشمالى بحوالى ميل ونصف الميل .. يقوم ذلك البيت فى قطعة ارض خاصة به ، ولكن الجانب الغربى منه لايبعد عن الطريق العام بأكثر من ثلاثين ياردة . وتتألف هيئة الخدم من : سائق عربة وخادمتين . وهؤلاء ، مع سيدهم وسيدتهم ، هم كل سكان لاشين اذ لم ينجب الباركليان اطفالا ، كما لم يكن من عادتهما أن يزورهما من يقيم معهما .

« وقعت الاحداث الاخيرة فى لاشين ، فيما بين الساعة التاسعة والعاشرة من مساء يوم الاثنين الماضى .

« يبدو أن مسز باركلى كانت عضوا فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وكانت مولعة بالخدمة فى جمعية القديس جورج التابعة لكنيسة شارع واط ، بهدف امداد الفقراء بالملابس المستعملة . وعقد اجتماع لهذه الجمعية فى ذلك المساء فى الساعة الثامنة . ولكى تحضر مسز باركلى ذلك الاجتماع ، أسرعت بتناول عشائها مبكرا . وحينما غادرت البيت ، سمعها سائق العربة وهى تتحدث الى زوجها فى بعض الامور العادية وتؤكد له أنها ستعود بعد فترة قصيرة . ثم نادت مس موريسون الشابة التى تقيم فى الفيللا التالية لبيتها ، فذهبت الاثنتان معا لحضور ذلك الاجتماع الذى استغرق اربعين دقيقة عادت بعده مسز باركلى الى بيتها فى الساعة التاسعة والربع بعد أن تركت مس موريسون عند باب بيتها وهى تمر أمامه .

« هناك فى فيللا لاشين حجرة تستعمل كحجرة صباحية ، تقع فى مواجهة الطريق ، ولها باب زجاجى ضخم ذو اربعة مصاريع ، يفتح على الارض المعشوشبة البالغ عرضها ثلاثين ياردة ، ولا يفصلها عن الطريق العام سوى حائط منخفض بأعلاه جلفق من الحديد . فلما رجعت مسز باركلى الى بيتها ، ذهبت الى هذه الحجرة . ولم يكن الشيش مقفلا اذ قلما تستعمل هذه الحجرة فى المساء ، ولكن مسز باركلى نفسها أوقدت المصباح ثم دقت الجرس وطلبت من خادمتها جين ستيوارت أن تأتيها بقدح من الشاى ، على غير عادتها . وكان الكولونيل جالسا فى حجرة المائدة . ولكنه لما سمع بعودة زوجته ، ذهب اليها فى الحجرة الصباحية . وقد أبصره سائق العربة وهو يعبر البهو ويدخل تلك الحجرة . غير أنه لم ير بعد ذلك حيا مرة أخرى . جاءت الخادمة بالشاى المطلوب بعد عشر دقائق ، ولكنها عندما

تقدمت من الباب ادهشها أن تسمع سيدها وسيدتها فى نزاع حاد . فطرقت الباب دون أن تسمع ردا ، فأدارت مقبض الباب ولا مجيب. كان الباب مقفلا من الداخل . وبطبيعة الحال جرت الى داخل البيت لتخبر الطاهية . فجاء سائق العربة والمراتان الى البهو ، ووقفوا يصغون الى العراك الذى كان لايزال دائرا . واتفقوا جميعـا على أن هناك صوتين ليس غير : صوت باركلى وصوت زوجته . كانت اقوال باركلى منخفضة ومتقطعة لذا لم يسمع المتصنتون منهـا شيئا . أما صوت السيدة فكان مريرا ، وعندما رفعته أمكنهم أن يسمعوا بوضوح ، قولها : « أنت ياجبان ! » وكررت هذه العبارة مرات ومرات . » ماذا يمكن عمله الان ؟ أعد الى حياتى . لن إستنشق نفس الهواء الذى تستنشقه أنت مرة اخرى ! ايها الجبان ! أيهـا الجبان ! » كانت هذه بعض عبارات حديثهـا ، وانتهت بصرخة فجائية مدوية من صوت الرجل ، وصوت ارتطام جسم بالارض ، تعقبه مباشرة صرخة حادة من المرأة . واذ اقتنع المتصنتون بحدوث فاجعة ، هجموا على الباب بكل ثقلهم يحاولون كسره ، بينما انطلقت صرخة اثر صرخة من الداخل . ورغم كل هذا ، عجز سائق العربة على الدخول من ذلك الباب ، وذعرت الخادمتان فلم يمكنهما مساعدته. واخيرا ، طرات على باله فكرة جاءت فجأة . فجرى خلال باب البهو وحول الارض المعشوشبة التى تطل عليها النوافذ الواسعة . وكان أحد جوانب الشنباك مفتوحا ، الامر الذى كما أفهم ، كان عاريا فى وقت الصيف ، فمر منه السائق بدون عناء الى داخل الحجرة ... وجد سيدته قد كفت عن الصراخ وهى ممددة فاقدة الوعى فوق اريكة ، بينما كان الجندى العاثر الحظ راقدا على فوتيل ، وقدماه مائلتان على جانب الفوتيل ، وراسه على الارض قرب المتكأ ، ميتـا كالحجر ، فى بركة من دمائه .

« وبطبيعة الحال ، كان أول مافكر فيه السائق بعد أن رأى انه لايستطيع عمل شىء لسيده ، هو أن يفتح الباب . ولكن حالت دون هذا صعوبة واحدة ، وهى أن المفتاح لم يكن فى البـاب من الداخل ، ولم يمكنه العثور عليه فى اية ناحية من نواحى الحجرة ، لذا خرج من النافذة ثانية ، وحصل على مساعدة أحد رجال الشرطة وطبيب ، ثم رجع الى الحجرة . فنقلت المرأة التى تحوم حولها أقوى الشبهات الى حجرتها فاقدة الوعى . ثم وضع جثمان الكولونيل على الاريكة ، وفحص مسرح المأساة فحصا دقيقا .

« والاصابة التى عانى منها الضابط ، كانت قطعا غير منتظم طوله حوالى بوصتين فى ظهر رأسه ، ويبدو أنه تسبب عن ضربة عنيفة من آلة غير حادة . ولم يكن من الصعب التخمين بنوع تلك الالة . فعلى الارض بجانب الجثة هراوة من الخشب الثقيل المنقوش ذات مقبض من العظم . وكان الكولونيل يمتلك مجموعة من الاسلحة جاء بها من دول مختلفة حارب فيها ، ورجح البوليس أن تكون هذه الهراوة من بين تلك المجموعة . وانكر الخدم رؤيتها قبل ذلك . ولكن بما أن بالمنزل عددا كبيرا من أمثال هذه التحفة ، فمن الممكن أن ينساها الخدم ، أو انه فاتهم رؤيتها وسط ذلك العدد الكبير .. لم يكتشف اى شىء مهم بعد ذلك ، سوى حقيقة واحدة وهى أن المفتاح ليس مع مسز باركلى ولا مع القتيل ولا فى اية ناحية أخرى بالحجرة . وعلى ذلك جىء بحداد من الدرشوط ، فتح الباب .

« هكذا كانت الامور ، ياواطسون . فذهبت فى صباح يوم الثلاثاء الى الدرشوط بناء على طلب الماجور مورفى لاكمال جهود البوليس . واعتقد انك ستعترف بأن هذه القضية ممتعة . ولكن سرعان ما جعلتنى ملاحظاتى أدرك أنها كانت ، فى الحقيقة ، اكثر غرابة مما تبدو لأول وهلة .

« قبل أن افحص الحجرة ، استجوبت الخدم ، ولكنى لم أحصل منهم على اكثر من الحقائق التى ذكرتها لك . وتذكرت الخادمة جين ستيوارت موضوعا آخر . تذكرت أنه حينما سمعت هذه الخادمة صوت العراك ، عادت وأحضرت معها الطاهية والسائق . ولكنها عندما جاءت وحدها أولا كان صوت سيدها وسيدتها منخفضا لدرجة أنها كادت الا تسمع شيئا وحكمت من واقع نغمة الصوت اكثر من الكلمات التى لم تكن واضحة ، أنهما وقعا .. ولما شددت عليها الخناق تذكرت أنها سمعت كلمة واحدة هى دافيد ، قالتها سيدتها مرتين . وهذه النقطة بالغة الاهمية لتقودنا الى سبب ذلك النزاع الجنونى . وانك لتتذكر أن اسم الكولونيل هو جيمس وليس دافيد .

« هناك نقطة واحدة فى هذه القضية انطبعت فى نفوس كل من الخدم والبوليس ، وهى التواء وجه الكولونيل . فقد تحول الى ذلك الشكل الملتوى الذى ثبت حسب روايتهم أنه أشد الملامح افزاعا ، يمكن أن يتخذه الجسم البشرى . فأغمى على اكثر من شخص عند رؤية ذلك المنظر المفزع . ومن المؤكد انه لقى حتفه مقدما ، اذ سبب

له افظع انواع الذعر . وهذه اتفقت تماماً مع نظرية البوليس ، اذ كان الكولونيل قد رأى زوجته تنقض عليه بهجـــوم قاتل . كذلك الجرح الذى فى ظهر رأسه اذ يجوز أنه أدار رأسه بعيدا ليتفادى الضربة . ولم يمكن الحصول على أية معلومات من السيدة نفســها التى أصيبت بجنون مؤقت من هجوم الحمى المخية الحاد .

« علمت من البوليس أن مس موريسون ، التى كما تتذكر ، خرجت مع مسز باركلى فى تلك الليلة ، أنكرت معرفتها لاى شىء سبب غضب رفيقتها وهى عائدة .

« واذ جمعت هذه المعلومات ، ياواطسون ، دخنت عدة غلايين وانا أفكر فيها محاولا فصل الادلة البالغة الاهمية ، عن المعلومات العرضية . ولا جدال فى أن النقطة الاكثر وضوحا وايحاء هى اختفاء المفتاح ، ولم يمكن العثور عليه رغم التفتيش الدقيق للحجرة . اذن ، فلابد أنه أخذ من الحجرة . ولكن لم يأخذه الكولونيل ولا زوجته ، وهذا واضح تمام الوضوح وعلى ذلك فلابد أن شخصا ثالثا قد دخل الحجرة . وهذا الشخص الثالث لم يدخل الا من النافذة .. فبدا لى أن فحص الحجرة والارض المعشوشبة قد يظهر بعض آثار لذلك الشخص الغريب ، وانك لتعرف قوة ملاحظتى وطرق استنتاجى ، ياواطسون . لم أترك أية نظرية فى علم الفراســـة الخاص بى ، الا استخدمتها فى تحقيقى . فانتهى الامر باكتشافى بعض الاثار ، ولكنها تختلف عما كنت أتوقعه . كان بالحجرة رجل سار فوق الحشيش آتيا من الطريق . أمكننى العثور على خمسة آثار اقدام واضحة له اثر واحد فى الطريق نفسه عند نقطة تسلقه الحائط المنخفض ، واثنين على الحشيش ، وأثرين ضعيفين جدا على الالواح المبقعة قرب النافذة حيث دخل . ومن الجلى أنه أسرع فوق الارض المعشوشبة اذ كانت آثار أصابع قدميه أعمق من آثار عقبيه . ولم يكن ذلك الرجل هــو الذى أدهشنى ، وانما الذى أدهشنى هو رفيقه . »

« رفيقه ؟ »

أخرج هولمز من جيبه فرخا كبيرا من الورق الماص ، ونشره بعناية فوق ركبتيه ، وسألنى :

« ماذا تستنتج من هذا ؟ »

كان الورق مغطى بآثار أقدام حيوان صغير ــ خمسة آثار واضحة لبطن قدم الحيوان ، ودليل على أظافر طويلة . والاثر كله فى حجم ملعقة الحلوى .

قلت : « انه كلب . »

« هل سبق أن سمعت عن كلب يتسلق ســـتارة حتى قرب نهايتها ؟ وجدت آثار أقدام واضحة لهذا الحيوان على الستارة . »

« اذن ، فهل هو قرد ؟ »

« هذه ليست آثار أقدام قرد . »

« اذا ، فماذا يمكن أن يكون ؟ »

« ليس كلبا ولا قردا ، ولا أى مخلوق مألوف لنا . حاولت معرفته بالمقاسات . هاهى أربعة آثار له حيث وقف لا يتحرك . ترى أن المسافة بين القدم الامامية والخلفية لا تقل عن ١٥ بوصة ، أضف الى ذلك طول الرأس والرقبة ، فترى أن طوله لا يقل عن قدمين ـ وربما كان أكثر من ذلك لو أن له ذيلا . أما الان ، فلاحظ هذه المقاسات الاخرى . تحرك ذلك الحيوان ، ولدينا طول خطوته . ففى كل حالة كان طول تلك الخطوة ثلاث بوصات ، وهذا يدل على جسم طويل مع أرجل قصيرة جدا . ولم يترك وراءه اى شعر ، ولكن شكله هو ماذكرته لك . ويستطيع أن يجرى الى أعلى الستارة فى سهولة ، وهو آكل لحوم . »

« وكيف استنتجت هذا ؟ »

« لأنه تسلق الى قمة الستارة حيث يوجد قفص عصـــفور كناريا معلق بوسط الشباك ، ويبدو أن غرضه كان الوصول الى ذلك العصفور . »

« اذا ، فماذا كان ذلك الحيوان ؟ »

« لو أمكننى أن أعطيه اسما لقطعت شوطا بعيدا نحو حـــل القضية . وعلى العموم ، ربما كان مخلوقا من فصيلة العرسة ـ رغم انه أطول من أية عرسة شاهدتها . »

« وما شأنه بالجريمة ؟ »

« لايزال هذا مبهما أيضا . ولكننا علمنا الكثير ، كما ترى : عرفنا أن رجلا كان واقفا فى الطريق يشاهد العراك بين الكولونيل باركلى وزوجته ـ وكان الشيش مرفوعا والحجرة مضاءة ، كما نعرف انه قفز فوق الحائط المنخفض وجرى فوق الحشيش ودخل الحجرة بصحبة ذلك الحيوان الغريب ، وانه ضرب الكولونيل ، أو أن الكولونيل سقط على الارض لمجرد رؤيته ، فجرح راسه على ركن المتكأ . واخيرا عرفنا الحقيقة الغريبة ، وهى أن ذلك الدخيل اخذ المفتاح معه عندما غادر الحجرة . »

« يبدو أن اكتشافاتك اضفت غموضا على الموضوع أكثر مما كان عليه من قبل . »

« بالضبط . لاشك فى انها أوضحت أن المسألة اعمق مما خمن فى أول الامر . فكرت فيها بامعان ، فاستنتجت أننى يجب أن أتناولها من ناحية أخرى . ولكننى ، فى الحقيقة ، جعلتك تسهر أكثر ممـا يجب ، ياواطسون ، وبوسعى أن أخبرك بكل شىء ونحن فى طريقنـا غدا الى الدرشوط . »

« شكرا ، ولكنك قطعت شوطا بعيدا ، فلا يمكنك أن تتوقف عنده . »

« من المؤكد جدا أن مسز باركلى غادرت البيت فى السـاعة السابعة والنصف مساء ، وكانت على وفاق مع زوجهـا . وعلى ما أعتقد ، كانت لا تتظاهر كثيرا بحبها لزوجها . وقد سمعها سائق العربة ، تتحدث مع الكولونيل بطريقة ودية . كما أنه من المؤكد أنها بمجرد عودتها مباشرة ، ذهبت الى تلك الحجرة التى لا ينتظر أن تقابل زوجها فيها ، وطلبت قدحا من الشاى كما تفعل المرأة الثائرة . وأخيرا عندما جاء اليها ، أخذت تكيل له الشتائم بعنف . اذن ، فلابد أن شيئا ما حدث بين الساعة السابعة والنصف ، والساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم ، غير مشاعرها نحوه . ولكن مس موريسـون كانت معها طيلة هذه الساعة والنصف . هذا أكيد تماما . وعلى ذلك ، فرغم انكارها ، فانها لابد أن تعلم شيئا عن هذا الامر .

« كان أول تخمين لى هو انه من الممكن أن تكون قد حدثت علاقات بين تلك المرأة الشابة والجندى المسن ، اعترف بها الضابط لزوجته . وهذا هو سبب العودة فى غضب ، وانكار الفتاة أن شيئا حدث . ولكن هذا لا يتفق اطلاقا مع معظم الالفاظ التى سمعت ، فضلا عن وجود اشارة الى دافيد . ثم ان هنـاك حب الكولونيل لزوجته فى مقابل تدخل الرجل الاخر ، الذى قد تكون له علاقة بما حدث . وليس من السهل تتبع كل خطوات اى انسان . ولكننى ، على العموم ، اميل الى عدم التفكير فى حصول اى شىء بين الكولونيل ومس موريسون ، بيد اننى مقتنع أكثر من كل مرة بأن الفتـاة تملك مفتاح ما جعل مسز باركلى تكره زوجها . وعلى ذلك عولت على أن أسلك الطريق الواضح فأقابل مس موريسون وأفهمها بأننى متأكد تماما من معرفتها للحقائق ، وأؤكد لها بأن صديقتها مسـز

باركلى قد تجد نفسها فى موقف الحكم عليها بالاعدام ، اذ لم تتضح الامور .

« مس موريسون فتاة هوائية ذات عينين حيبتين وشعر أشقر . غير اننى وجدتها على شىء كثير من الدهاء والذكاء . فجلست تفكر لبعض الوقت بعد أن كلمتها ، ثم استدارت نحوى بعزيمة ثابتة ، واعترفت بما سألخصه لك . »

قالت : « وعدت صديقتى بألا ابوح بشىء عن ذلك الموضوع ، والوعد وعد . ولكن ، طالما كان بوسعى مساعدتها فى الخروج من تهمة عظمى وقد أقفل المرض فمها ، فاننى أجد نفسى فى حل من ذلك الوعد ، وسأخبرك بما حدث بالضبط فى مساء يوم الاثنين .

« ونحن عائدتان من اجتماع شارع وات فى حوالى الساعة التاسعة الا ربعا ، كان علينا أن نمر فى طريقنا بشارع هدسون الهادىء ، ولم يكن به سوى مصباح واحد على الجانب الايسر . وعندما اقتربنا من ذلك المصباح ، رأيت رجلا مقبلا نحونا وظهره محنى جدا ، وقد علق على احدى كتفيه شيئا كالصندوق ، ويبدو هو نفسه مشوها اذ يحنى رأسه ويسير وركبتاه مثنيتان . ولما مررنا بجانبه رفع وجهه لينظر الينا فى دائرة ضوء المصباح ، ثم وقف وصاح بصوت مفزع : « رباه ! انها نانسى ! » فامتقع لون مسز باركلى حتى صارت بلون الموتى واوشكت تقع على الارض ، لولا أن ذلك المخلوق المفزع المنظر أمسك بها . فأردت أن أستدعى البوليس ، ولكن لشد ما كانت دهشتى عندما تحدثت اليه فى أدب ورفق .

قالت بصوت متهدج : « ظننتك مت ، طوال هذه الثلاثين سنة ، يا هنرى . »

قال : « كذلك كنت . » وكان من المخيف حقا أن تسمع النغمة التى قال بها ذلك . فوجهه قاتم جدا ومرعب وفى عينيه بريق يراودنى فى أحلامى . وشعره شعر عوارضه قصير أشيب ، ووجهه ملىء بالتجاعيد ومغضن كأنه تفاحة ذابلة .

فقالت مسز باركلى : « سيرى قليلا يا عزيزتى فأنا أريد أن أقول كلمة لهذا الرجل . لا خوف من شىء . » وحاولت أن تتكلم بجرأة ، ولكنها ما زالت شاحبة الوجه جدا ، وقلما تستطيع النطق بألفاظها من خلال شفتيها المرتجفتين .

« فعلت كما طلبت منى ، وتحدثا معا لبضع دقائق ثم جاءت

تسير فى الطريق والشرر يتطاير من عينيها . وابصرت ذلك الوغد الكسيح واقفا الى جانب عمود المصباح ويهز قبضتيه المقفلتين فى الهواء ، كما لو كان مجنونا ثائرا .. لم تنطق مسز باركلى بكلمة واحدة حتى صرنا عند الباب هنا ، فأمسكتنى من يدى وتوسلت الى الا أخبر أحدا بما حدث ، ثم قالت : « انه أحد أصدقائى القدامى أناخت عليه الدنيا بكلاكلها . » فلما وعدتها بألا أقول شيئا ، ولم أرها منذ ذلك الوقت .. هأنذا أخبرتك الآن بالموضوع كله لاننى لم أدرك ، من قبل ، مبلغ الخطر المحدق بصديقتى العزيزة . وقد عرفت الآن أن من صالحها أن يظهر كل شىء . »

« ها هى أقوالها ، يا واطسون ، وكانت بالنسبة لى ، كما يمكن أن تتخيل ، نورا ساطعا فى ليلة ظلماء . فكل ما كان مفككا من قبل ، بدأ يتخذ مكانه الحقيقى الان ، وكان عندى هاجس مبهم عن تسلسل تلك الاحداث .. أما خطوتى التالية ، فهى بالطبع البحث عن الرجل الذى أضفى ذلك الطابع على مسز باركلى . فاذا كان لا يزال فى الدرشوط ، فلن نجد صعوبة فى العثور عليه . ليس فى ذلك المطرح كثير من المدنيين ، ولابد أن يستلفت أى رجل مشوه أنظار الاهلين جميعا . قضيت يوما أبحث عنه ، وفى المساء ـ هذا المساء نفسه ، يا واطسون ـ عثرت عليه . اسمه هنرى وود ، ويقيم بالمساكن الشعبية فى نفس ذلك الشارع الذى قابل فيه المرأتين . له خمسة أيام فحسب فى ذلك المكان . واذا اتخذت شخصية وكيل تسجيلات ، تحدثت حديثا ممتعا مع صاحبة بيته . مهنته مشعوذ وممثل ، يدور على المقاصف بعد أن يخيم الظلام على الكون ، فيعرض على الناس ما يسليهم ويرفه عنهم . ويحمل ، فى صندوق ، حيوانا لا تعرف نوعه صاحبة البيت ، لأنها لم تر ، من قبل ، حيوانا مثله . انه يستخدم ذلك الحيوان فى بعض العابه ، تبعا لروايتها . هذا هو ما استطاعت أن تخبرنى به تلك السيدة ، كما أخبرتنى بأنه من العجب أن يعيش ذلك الرجل ، رغم كل تشوه جسمه ، وانه يتكلم أحيانا بلغة غريبة . وفى الليلتين الماضيتين ، سمعته يئن ويبكى فى حجرة نومه . كان ميسور الحال فيما يختص بالمادة ، ولكنه أعطاها ضمن نقود التأمين قطعة نقود تبدو مثل فلورين مزيف ، وأطلعتنى عليها ، يا واطسون ، فكانت روبية هندية .

« والآن ، يا صديقى العزيز ، ترى مركزنا ، ولماذا اريدك

معى . من الواضح جدا ، أنه بعد أن افترقت المرأتان ، تبعهما ذلك الرجل من مسافة ما ، فلما رأى العراك بين الزوج والزوجة ، من خلال النافذة ، اندفع الى داخل الحجرة وأطلق الحيوان الذى فى الصندوق . هذا أكيد جدا . ولكنه الشخص الوحيد فى هذه الدنيا ، الذى يستطيع اخبارنا بكل ما حدث فى تلك الحجرة ، بالضبط . »

« وهل تنوى سؤاله ؟ »

« بكل تأكيد ـ ولكن فى حضور شاهد . »

« وأنا الشاهد ؟ »

« اذا تفضلت بأن تكون لطيفا الى هذا الحد . فاذا استطاع اضفاء نور على الأمور ، كان بها ونعمت ، والا فلا مندوحة لنا من استصدار أمر بالقبض عليه . »

« ولكن كيف تعرف أنه سيكون هناك عندما نرجع ؟ »

« كن على يقين من اننى اتخذت بعض الاحتياطات هناك غلام من شارع بيكر ، تابع لى ، يقف حارسا عليه ، يلازمه كظله . يذهب وراءه أينما يذهب . سنجده فى شارع هدسون غدا ، يا واطسون . وفى تلك الأثناء ، سأكون أنا المجرم ان أخرتك عن الفراش أكثر من هذا . »

« فى ظهر اليوم التالى وجدنا أنفسنا فى مسرح المأساة . وبارشاد رفيقى اتجهنا فورا الى شارع هدسون . ورغم مقدرة هولمز على اخفاء عواطفه ، أمكننى بسهولة أن أراه يكبت غيظه بينما أظهر أنا نصف الروح الرياضية ونصف البهجة الذهنية كما تعودت أن أفعل عندما أكون معه فى تحقيقاته .

قال وهو يعرج على شارع قصير تحده بيوت من طابقين مبنية بالطوب الأحمر : « هذا هو الشارع . ها هو سيمبسون . آت ليخبرنى بكل شىء عن ذلك الرجل . »

جرى الينا غلام عربى صغير ، وقال : « انه ما زال هناك ، يا مستر هولمز . »

فقال هولمز وهو يربت على رأسه : « حسنا ، يا سيمبسون ! »

« هيا ، يا واطسون ، هذا هو البيت . »

أرسل صديقى بطاقته مع رسالة يقول فيها انه جاء لأمر هام . وبعد لحظة ، كنا وجها لوجه أمام الرجل الذى جئنا لنقابله . ورغم دفء الطقس ، كان يجلس أمام الوطيس ، وكانت حجرته

الصغيرة أشبه بالأتون . وجدناه جالسا مقوسا وملتويا فى مقعده بصورة تبين مدى تشوه جسمه ، الذى لا يوصف . ورغم تغضن الوجه الذى أداره نحونا وخشونته فيبدو أنه كان فيما مضى جميلا .. نظر الينا مرتابا بعينين صفراوين حادتين ، وبغير أن يتكلم أو يقف ، أشار الى مقعدين .

فقال هولمز فى نغمة رقيقة : « المستر هنرى وود العائد أخيرا من الهند ، على ما أعتقد ؟ جئت بخصوص تلك المسألة البسيطة الخاصة بموت الكولونيل باركلى . »

« وماذا عساى أن أعلم عنها ؟ »

« هذا ما أردت أن أتحقق منه . وانك لتعرف ، كما يخيل الى ، أنه ان لم تظهر الحقيقة فى هذه المأساة ، فان مسز باركلى ، صديقتك القديمة ، ستحاكم قطعا عن جريمة القتل . »

فزع ذلك الرجل فى عنف .

وصاح يقول : « لست أعلم من انت ، ولا كيف عرفت ما عرفته . ولكن هل تقسم على أن ما تقوله لى هو الصدق ؟ »

« انهم ينتظرون أن تثوب الى رشدها كى يقبضوا عليها بتهمة القتل . »

« رباه ! هل انت من البوليس ، انت نفسك ؟ »

« كلا . »

« اذن ، فما شأنك بهذا ؟ »

« من شأن كل انسان أن يرى العدل يسود . »

« ثق بكلامى ، انها بريئة . »

« اذن ، فأنت مذنب ؟ »

« كلا ، لست مذنبا . »

« اذا ، فمن قتل الكولونيل جيمس باركلى ؟ »

« قتلته العناية الالهية . ولكن ، ضع فى ذهنك أننى لو هشمت راسه لما نال منى أكثر مما يستحق على يدى . واذا لم يقتله ضميره الآثم ، لوقع دمه على روحى . أتريدنى أن أروى لك القصة كلها ؟ حسنا ، فلست أرى ما يمنعنى روايتها . ما من سبب يدعونى الى أن أخجل منها .

« حدثت هكذا ، يا سيدى : ترى مظهرى الآن كمظهر الجمل وضلوعى كلها ملتوية ، وقد كنت فى سالف العصر ، العريف (أومباشى) هنرى وود ، أعظم الرجال أناقة فى فيلق المشاة المائة

والسابع عشر . كنا فى ذلك الوقت بالهند فى معسكر سكان يطلق عليه اسم بهورتى . أما باركلى الذى مات فى ذلك اليوم ، فكان رقيبا (جاويش) فى نفس الفيلق ، وأجمل من فى الفرقة . وكانت نانسى أجمل فتاة يمر نفس الحياة من بين شفتيها .. نانسى ريفوى ابنة الرقيب حامل العلم . وقد أحبها رجلان ، ولكن الرجل الذى أحبته هى ، وستبتسم أنت عندما تنظر اليه مكوما أمام النار .. استمع الى وانا أقول لك انها أحبتني لملاحة تقاطيع وجهى .

« ورغم أن قلبها كان معى ، الا أن أباها أصر على أن تتزوج باركلى . فقد كنت أنا شابا متهورا قليل التعلم . أما باركلى فكان على قدر لا بأس به من العلم ، وكان قد وقع عليه الاختيار لحزام السيف (أى ليصير ضابطا) ولكن الفتاة ظلت وفية لى ، وبدا اننى سأنالها . غير أنه شبت حركة تمرد ، وأطلقت الجحيم من عقالها فى البلاد .

« حوصرنا فى بهورتى ، فرقتنا ، مع نصف بطارية من المدفعية ، وجماعة من السيخ ، وكثير من المدنيين والنساء .. التف حولنا عشرة آلاف متمرد ، وكانوا شديدى اليقظة كأنهم جماعة من كلاب الصيد حول قفص ملىء بالجرذان . وبعد حوالى أسبوع نفدت كمية الماء التى كانت عندنا ، وكان لابد لنا من الاتصال بطابور الجنرال نيل ، الذى كان متجها الى شمال البلاد . كانت هذه هى فرصتنا الوحيدة ، فلا يمكن أن نشق طريقنا وسط المتمردين ومعنا كل أولئك النساء والأطفال . لذا تطوعت بالخروج لتحذير الجنرال نيل واخباره بالخطر المحدق بنا . فقبل عرضى . وتحدثت فى هذا الأمر مع الرقيب باركلى الذى كان يعرف المنطقة أحسن من اى فرد آخر ، فرسم لى طريقا يمكننى به اختراق صفوف المتمردين تحت جنح الظلام . أسير فى رحلتى التى انقذ بها ارواح الف شخص ، ولكنى لم افكر الا فى شخص واحد ، وانا اقفز فوق سور المعسكر ، فى تلك اللحظة .

« كان طريقى يمتد بطول مجرى مائى جف ماؤه ، كى يحجبنى عن انظار ديدبانات العدو .. ولكن بينما أنا أدور حول احد أركانه ، وجدت نفسى بين أيدى ستة منهم مختبئين فى الظلام فى كمين نصبوه لى . وفى لحظة فقدت وعيى بضربة ، وقيدت يداى ورجلاى . غير أن الضربة الحقيقية صوبت الى قلبى وليس الى راسى . ولما افقت وأخذت استرق السمع الى حديثهم ، قدر امكانى ، سمعت

ما يكفي لأعلم منه أن زميلي الذي رسم لي الطريق الأسلكه آمنا ، قد خانني بواسطة أحد الوطنيين ، وبذا سلمني الى أيدي الاعداء كي يخلو له الجو .

« لا حاجة بي الى الاطالة في هذا الجزء ، فأنت تعرف الآن ما يستحقه جيمس باركلي . وفي اليوم التالي عمل الجنرال نيل على انقاذ بهورتي . ولكن المتمردين أخذوني معهم في تقهقرهم وقضيت سنوات طوالا قبل أن أرى وجها ابيض مرة أخرى . عذبوني ، وحاولت الفرار ، فقبضوا علي وعذبوني مرة أخرى . وبوسعكما أن تعرفا الحالة التي تركت عليها .. وقد فر بعض هؤلاء الى نيبول وأخذوني معهم .. وبعد ذلك وصلت الى دار جيلنج . وهناك قتل سكان الجبل ، المتمردين الذين كنت معهم وتركوني لأصير عبدا لهم . وهكذا غدوت عبدا البي طلبات سكان الجبل هؤلاء ، لبعض الوقت حتى استطعت أن أهرب ، فهربت . وبدلا من السير جنوبا ، اتجهت شمالا ، فاذا بي أجد نفسي بين الافغانيين حيث اخذت أجول لعدة سنوات ، وأخيرا رجعت الى البنجاب حيث عشت معظم الوقت مع الوطنيين اكسب عيشي من الشعوذة التي تعلمتها . ماذا يجديني ، أنا الكسيح الحقير أن أعود ثانية الى انجلترا أو أعرف أصدقائي القدامى وأقابلهم ؟ وحتى رغبتي في الانتقام لا تجعلني أفعل ذلك . كنت أفضل أن تعرف نانسي ويعرف زملائي القدماء أن هنري وود مات بظهر مستقيم ، على أن يروني حيا محدب الظهر أزحف على عصا كالشمبانزي . لم يشكوا قط في موتي ، وكنت أقصد الا يشكوا .. سمعت أن باركلي تزوج نانسي وأنه ارتقى بسرعة في الفرقة . ولكن حتى هذا لم يحثني على أن أتكلم .

« غير أن المرء اذا ما بلغ الشيخوخة حن الى وطنه . ظللت سنوات أحلم بالحقول الخضراء وأسوار النباتات المتسلقة لانجلترا . وأخيرا ، عولت على أن أراها قبل أن أموت . فوفرت ما يكفي لمجيئي ، وأتيت الى هنا حيث يوجد الجنود ، وأنا أعرف طرقهم وكيف أسليهم ، وبذا أكسب عيشي . »

فقال شرلوك هولمز : « روايتك ممتعة جدا . وقد سمعت عن لقائك مع مسز باركلي ومفاوضتكما المتبادلة . أفهم من هذا انك تبعتها بعد ذلك الى بيتها ، وأبصرت ، من خلال النافذة ، ما دار بينها وبين زوجها من عراك اتهمته فيه بموضوعك . فتغلبت عليك

مشاعرك ، فجريت عبر الارض المكسوة بالحشيش ودخلت عليها الحجرة . »

« فعلت هذا ، يا سيدى . ولما رآنى ، تغير منظره بصورة غريبة وصار مختلفا عن منظر أى شخص رأيته من قبل طوال حياتى ، فسقط ، وارتطم رأسه بالمتكأ ، ومات قبل أن يسقط . قرأت الموت واضحا فى وجهه كما أقرأ نصا أمام النار . كان مجرد رؤيتى كالرصاصة خلال قلبه الآثم . »

« وماذا حدث بعد ذلك ؟ »

« بعد ذلك اغمى على نانسى ، فأخذت مفتاح الباب من يدها قاصدا أن أفتحه وأطلب نجدة ، ولكن ، بينما انا أهم بفعل ذلك ، بدا لى من الخير أن أترك كل شىء على ما هو عليه وأخرج ، اذ تبدو المسألة سوداء ضدى . وعلى أية حال ، كان سرى سينفضح اذا ما قبض على . وفى عجلتى ، وضعت المفتاح فى جيبى ، وتركت عصاى وانا أطارد تيدى ، الذى جرى الى أعلى الستارة . فلما أمسكته ووضعته فى الصندوق الذى خرج منه ، هربت بأسرع ما فى مكنتى أن أجرى . »

فسأله هولمز : « ومن هو تيدى ؟ »

انحنى الرجل الى الأمام وضرب غطاء نوع من الصندوق كان فى ركن الحجرة ، فخرج منه فى الحال مخلوق جميل بنى اللون يميل الى الحمرة ، وجسمه رفيع طرى ، وارجله قصيرة كأرجل العرسة ، وخطمه طويل رفيع ، وله زوج من أجمل العيون الحمراء التى رأيتها فى حياتى فى رأس حيوان .

صحت أقول : « انه ابن عرس ! »

« حسنا ، بعض الناس يسميه هكذا ، أما أنا فأسميه « قانص الثعابين » . وتيدى هذا مدهش فى سرعته وهو ينتفض على الكوبرا . عندى كوبرا هنا ، نزع ناباها ، وتيدى يقبض عليها كل ليلة ، فيبهج المتفرجين فى المقصف . أتريد أية نقطة أخرى ، يا سيدى ؟ »

« قد نضطر الى المجىء اليك مرة أخرى ، اذا تأزمت الامور مع مسز باركلى ووجدناها فى موقف حرج . »

« فى هذه الحال ، سأحكى كل شىء . »

« واذا لم تصل الامور الى هذا الحد ، فلا داعى الى اذاعة هذه الفضيحة ضد رجل مات ، رغم خسة فعلته . قد يرضيك انه

عاش ، على الأقل ، ثلاثين سنة من حياته وضميره يوخزه على عمله الشرير . وها هو الماجور مورفى يسير على الجانب الآخر من الطريق . الى اللقاء ، يا وود . أريد أن أعرف منه ما اذا كان قد استجد شيء منذ الأمس . »

وصلنا فى الوقت المناسب لنلحق بالماجور قبل أن يصل الى منعطف الطريق .

قال : « آه ، هولمز ! اظنك سمعت أن كل تلك الضجة كانت زوبعة فى فنجان ، أسفرت عن لاشيء . »

« وماذا ، اذن ؟ »

« انتهى التحقيق .. جاء تقرير الطبيب الشرعى ، يقول انه مات بالسكتة القلبية ، وهأنتذا ترى أنها غدت قضية فى غاية البساطة . »

فقال هولمز مبتسما : « يا لها من قضية سقيمة جدا ! هيا ، يا واطسون ، لا اظنهم يريدوننا فى الدرشوط بعد ذلك . »

قلت ونحن سائران الى المحطة : « هناك سؤال واحد : اذا كان الزوج اسمه جيمس ، والحبيب اسمه هنرى ، فلم ورد ذكر دافيد فى الحديث ؟ »

« تحكى لى هذه الكلمة ، يا عزيزى واطسون ، قصة كاملة ، لو كنت أنا الشخص المثالى الذى أنت مولع بتصويره . من الجلى أن هذا الاسم مصطلح يراد به التحقير أو التوبيخ . »

« التحقير أو التوبيخ ؟ »

« نعم ، تاه دافيد ذات مرة ، كما تعلم ، وفى مرة ما ، فى نفس الاتجاه ، مثل الرقيب جيمس ، هلّ تتذكر تلك القضية البسيطة ، قضية أوريا وباتشيبا ؟ ان معلوماتى عن التوراة صدئة قليلا ، واظنك تستطيع العثور على هذه القصة فى سفر صموئيل الأول ، أو صموئيل الثانى من التوراة . »

المريض المقيم

بمراجعة مجموعة المذكرات غير المتجانسة التى حاولت بهما توضيح العجائب الذهنية لصديقى المستر شرلوك هولمز ، ادهشتنى الصعوبة التى قابلتنى فى اختيار أمثلة تبين هدفى من جميع نواحيه . ففى تلك الاحوال التى انجز هولمز فيها اعمالا تحتاج الى مهارة غير عادية ، فى تلك الحالات استدلال تحليلى يوضح قيمة طرقه العجيبة فى التحقيق . كانت الحقائق نفسها ضئيلة او عادية ، فلم اشعر بالرضا فى وضعها امام الجمهور . ومن ناحية أخرى ، كثيرا ما حدث أن قام ببعض ابحاث كانت الحقائق فيها أهم الادلة . ولكن من حيث النصيب الذى قام به فى معرفة أسبابها ، كان اقل وضوحا مما كنت آمل ، كما قال كاتب تاريخ حياته ، والمادة البسيطة التى رويتها تحت عنوان « دراسة بالدم » ، والقصة الاخرى الخاصة بضياع السفينة « جلوريا سكوت . » قد تعتبر هذه أمثلة لتلك السكولا وخاروبدس ، التى تهدد مؤرخه باستمرار . وقد يكون الدور الذى قام به صديقى فى القضية التى سأكتب وقائعها الان ، غير واضح وضوحا كافيا ، ومع ذلك ، فسلسلة ظروف القضية شهيرة جدا بحيث لا يمكننى ، بحال ما ، أن أحذفها من هذه المجموعة .

فى أحد أيام شهر اكتوبر ، والمطر يهطل غزيرا والشيش نصف مرفوع ، رقد هولمز على الاريكة يقرأ خطابا جاءه فى بريد الصباح ، ويعيد قراءته بامعان . أما أنا ، فان مدة خدمتى فى الهند علمتنى أن أقاوم الحر أكثر من البرد ، وان درجة حرارة ٩٠ درجة فهرنهيت ليست صعبة الاحتمال . غير أن الصحيفة لم تكن ممتعة ، وقد انفضت الدورة البرلمانية ، وغادر كل فرد المدينة ، فاشتقت الى خلاء الغابة الجديدة او شاطىء البحر الجنوبى . واذ نضب رصيد حسابى فى البنك ، أضطررت الى تأجيل عطلتى . أما رفيقى فلم يهتم بالريف ولا بالبحر فى قليل او كثير . كان يلذ له ان يرقد وسط خمسة ملايين شخص ، ويمد خيوطه بينهم استجابة لكل شائعة بسيطة ، أو اشتباه فى وجود جريمة لم يتوصل احد الى حلها وعندئذ لا يجد جمال الطبيعة له مكانا بين مواهبه الكثيرة . والتغير الوحيد الذى

يحظى به هو عندما يحول ذهنه من مجرم المدينة ، ويوجهه نحو مُجرم الريف .

لما وجدت هولمز منهمكا جدا فى ذلك الخطاب ومشغولا به عن التحدث معى ، القيت بصحيفتى الخاوية جانبا ، واسندت ظهرى الى مقعدى واستغرقت فى شرود ذهن عميق . وفجأة ، دوى صوت رفيقى ليخرجنى من تفكيرى .

قال هولمز : « انت على حق ، ياواطسون . تبدو طريقة غير معقولة لتسوية النزاعات . »

قلت : « نعم ، هى غير معقولة على الاطلاق » ثم ادركت فجأة كيف عرف لب فكرتى بالضبط ، فاعتدلت فى جلستى وحملقت فيه مدهوشا .

صحت اقول : « ما هذا ، ياهولمز ؟ هذا أكثر مما يمكننى أن اتصوره . »

ضحك ملء فمه لحيرتى .

قال : « اتتذكر ، ياواطسون اننى حينما قرات لك منذ وقت قصير فقرة من احدى روايات بو ، تتبع فيها محقق افكار رفيقه التى لم يتحدث عنها ، كنت تميل الى اعتبار الموضوع مجرد عمل يحتاج الى مهارة عادية . واذ لاحظت ان من عادتى أن أفعل باستمرار نفس الشيء ، عبرت عن عدم تصديقك . »

« كلا ، البتة ! »

« ربما انك لم تعبر بلسانك ، ياعزيزى واطسون ، ولكن من المؤكد انك عبرت بحواجبك لذا ، عندما أبصرتك تلقى صحيفتك على الارض ، وتدخل فى سلسلة من الافكار ، فرحت جدا لأجد فرصة لقراءة افكارك ، والتصريح بذلك كبرهان على اننى كنت على اتصال بك . »

ولكنى لم اقتنع بما قاله ، فقلت له : « فى المثال الذى قرأته لى عن علم الفراسة ، استدل المحقق على استنتاجه من افعال الرجل الذى لاحظه فاذا كانت ذاكرتى سليمة ، فانه تعثر فوق كومة من الحجارة ، ونظر نحو النجوم .. وما الى ذلك . ولكنى كنت جالسا على مقعدى فى هدوء ، ولم أقدم لك اية دلائل ، فماذا لاحظت ؟ »

« انت تظلم نفسك ، ياواطسون . وهب الانسان ملامحه ليعبر بها عن عواطفه وما يجيش بخاطره ، وملامحك خادم أمين . »

« هل تعنى انك قرات افكارى عن طريق ملامحى ؟ »

« نعم ، قراتها عن طريق ملامحك ، ولا سيما عيناك . وبما لا تتذكر ، أنت نفسك ، كيف بدات مناجاتك نفسك ؟ »

« فعلا ، لا أتذكر . »

« اذن ، فسأخبرك بما حدث منك : بعد أن رميت صحيفتك ، ذلك العمل الذى لفت انتباهى اليك . فجلست لمدة نصف دقيقة وملامحك لا تنم عن شيء ، ثم ثبت عينيك على صورة الجنرال جوردون فرأيت من التغييرات التى حدثت بوجهك أن سلسلة من الافكار قد بدأت . ولكنها لم تقدك الى مسافة بعيدة . ثم استدارت عيناك نحو صورة بدون اطار لهنرى وارد بيتشر موضوعة فوق قمة كتبك . وبعدها نظرت الى الحائط ، وبالطبع كان معنى هذا واضحا . كنت تفكر فيما اذا وضع اطار لهذه الصورة فانها يمكن أن تغطى ذلك الجزء العاري من الحائط ، علاوة على انها تحدث تماثلا مع صورة فوردون الموضوعة هناك . »

قلت : « لقد تتبعتني جيدا . »

« الى هذا الحد لم تشرد بعيدا . اما الان ، فقد رجعت افكارك الى بيتشر ، فنظرت اليه مليا كما لو كنت تدرس اخلاقه من تلك الملامح .. وبعد هذا توقفت عيناك عن التحرك ولكنك مازلت تنظــــر الى هناك ، وكان وجهك كثير التفكير . كنت تتذكر احداث حياة بيتشر . كما لاحظت انك لم تستطع أن تفعل هذا دون ان تفكر فى المهمة التى قام بها نيابة عن أهل الشمال اثناء الحرب الاهلية ، لانني أتذكرك تعبر عن اشمئزازك من الطريقة التى استقبله بها جمهور شـــعبنا الاكثر اضطرابا . شعرت بقوة ازاء ذلك حتى عرفت انك لاتستطيع التفكير فى بيتشر دون أن تفكر فى ذلك أيضا . وبعدها بلحظة ابصرت عينيك تذهبان بعيدا عن الصورة ، فاشتبهت فى أن يكون عقلك قد اتجه الى الحرب الاهلية . وحينما لاحظت ان شفتيك مضمومتان وعينيك تتألقان ويديك مقفلتان ، تأكدت من انك تفكر فى الشــهامة التى ابداها كل من الطرفين فى ذلك النضال المرير . ولكن الحزن بان على وجهك مرة أخرى فهززت راسك . كنت تفكر بحزن فى فظاعة ضياع الحياة هكذا بدون فائدة . وتحركت يدك نحو جرحك القديم وارتسمت على شفتيك ابتسامة أوضحت لى أنه قد جال بخاطرك ذلك الجانب السخيف لطريقة تسوية المسائل الدولية .. عند تلك النقطة وافقتك على أن هذه الطريقة غير معقولة .. فسرني انك عرفت أن جميع استنتاجاتى صحيحة . »

قلت : « كلها صحيحة تماما . والان ، بما انك شرحتها لى ، فانا اعترف بأننى مازلت مدهوشا كما كنت من قبل . »

« أؤكد لك ، ياعزيزى واطسون ، أنها مسألة سطحية ، وما كنت لأخبرك بها لو انك لم تصرح بعدم تصديقك فى ذلك اليوم لمظاهر علم الفراسة . غير أن المساء جاء معه بنسمة . فما قولك فى أن نتجول معا خلال لندن ؟ »

مللت البقاء فى حجرة جلوسنا الصغيرة ، فوافقته مسرورا . ولمدة ثلاث ساعات أخذنا نسير معا ، نلاحظ استمرار تغير الحياة وهى تزدحم وتنحسر فى شارعى فليت وستراند ، وقد عمل كلام هولمز المألوف وملاحظاته الدقيقة للتفاصيل ، على بقائى مدهوشا طول الوقت .

« كانت الساعة العاشرة قبل أن نصل الى شارع بيكر مرة اخرى . فلما وصلنا وجدنا عربة تنتظر أمام بابنا .

قال هولمز : « عجبا ! عربة طبيب ! انه ممارس عام حسبما ارى . لم يمض وقت طويل على بدئه فى مزاولة مهنته . ولكن لديه الكثير من العمل ، يخيل الى أنه جاء ليستشيرنا ، ومن حسن الحظ اننا رجعنا . »

كنت ملما تمام الالمام بطرق هولمز ، فأمكننى ان اتتبع استنتاجاته، واعرف ان طبيعة الادوات الطبية الموجودة فى السلة الخيزران المعلقة فى فانوس العربة هى التى زودته بالمعلومات اللازمة لاستنتاجاته هذه. دل النور الظاهر فى نافذتنا على أن هذا الزائر المتأخر كان ، فى الحقيقة، يقصدنا . فتبعت هولمز الى مسكننا ، وانا افكر فيما عسى ان يكون قد جاء بزميل لى فى المهنة ، فى مثل هذه الساعة المتأخرة .

حينما دخلنا حجرة الاستقبال ، نهض رجل شاحب الوجه طويله ، ذو عوارض صفراء اللون ، نهض من فوق مقعده أمام الوطيس. لايزيد عمره على ثلاث وثلاثين او اربع وثلاثين سنة ، ولكن ملامحه الهزيلة ولونه الشاحب دلتنا على حياة امتصت قوته وسلبته شبابه. كان بادى العصبية والخجل ، مرهف الحس ، وكانت يده الرفيعة البيضاء التى وضعها على رف الوطيس وهو ينهض ، اشبه بيد فنان أكثر منها يد جراح . أما لباسه فهادىء وقاتم ، يرتدى سترة فروك سوداء ، وبنطلونا ادكن اللون ، ورباط رقبة به لمسة من اللون .

قال هولمز باشا : « مساء الخير يادكتور . يسرنى أنك لم تنتظرنى أكثر من بضع دقائق . »
« اذن ، فقد تحدثت الى سائق عربتى ؟ »
« كلا ، بل ان الشمعة القائمة على النضد هى التى اخبرتنى بذلك . ارجو أن تجلس ثانية وتعلمنى كيف يمكننى خدمتك . »
قال : « اسمى الدكتور بيرسى تريفليان ، وأقيم فى رقم ٤٠٣ شارع بروك . »
فسألته : « الست مؤلف رسالة فى خلل الاعصاب الغامض ؟ »
احمرت وجنتاه الصفراوان سرورا لسماعه اننى أعرف مؤلفه .
قال : « قلما سمعت عن هذا المؤلف . ظننته ميتا . فناشرو هذه الرسالة يثبطون من همتى ويبالغون فى قلة المبيعات . أعتقد انك ، انت نفسك ، طبيب . »
« جراح فى الجيش ، متقاعد . »
« كانت هوايتى باستمرار أمراض الاعصاب ، وكنت اطمح الى جعلها تخصصى الوحيد . يجب على المرء ان يتناول مايمكنه الحصول عليه اولا . وعلى أية حال ، هذا خارج عن الموضوع . فأنا أقدر قيمة وقتك الثمين ، يامستر هولمز .. المسألة ، وما فيها ، أنه حدثت سلسلة وقائع حديثا فى بيتى بشارع بروك وقد وصلت هذه الاحداث ذروتها فى هذه الليلة حتى شعرت بأنه من المستحيل ان انتظر ساعة اخرى قبل أن اطلب نصيحتك ومساعدتك . »
جلس شرلوك هولمز ، واشعل غليونه ، وقال : « مرحبا بك من اجل كلتيهما . ارجوك أن تروى لى بالتفصيل ، تلك الظروف التى ازعجتك . »
قال الدكتور تريفليان : « ظرف أو اثنان منها تافهان ، حتى اننى لأخجل من ذكرهما . ولكن المسألة تستعصى على الشرح . وقد وصلت اخيرا الى دور دقيق يجعلنى أضع كل شىء امامك ، واترك لك الحكم على ماهو ضرورى منها ، وما هو تافه لا يستحق الذكر .
« ولكى ابدأ قصتى ، اجد نفسى مضطرا الى ان اذكر شيئا عن حياتى فى الكلية : انا خريج جامعة لندن ، كما تعرف ، وانا على يقين من أنك لن تظننى أطرى محاسن نفسى عندما أقول ان جميع أساتذتى وأنا طالب ، كانوا يعتبرون سنى دراستى مبشرة جدا بالخير . وبعد تخرجى ، داومت على تكريس نفسى للابحاث . فشغلت منصبا بسيطا فى مستشفى كلية الملك . وقد ساعدنى الحظ كثيرا

بأن اثير اهتمام الكثيرين بأبحاثي في امراض التخشب العصبي . وأخيرا ، لكي أحظي بجائزة بروس بنكرتون وميداليتهـا ، وضعت رسالة في خلل الاعصاب الغامض التي لمح اليها زميلك الان فقط . لن أطيل الكلام اذا قلت ان مستقبلا باهرا كان ينتظرني .

« ولكن العقبة الوحيدة الكأداء هي افتقاري الى راس المال كما ستفهم بعد لحظة . فان الاخصائي الطموح الى الشهرة مضطر الى ان يبدأ عمله في شارع بميدان كافنديش . وكلها تتطلب ايجارا عاليا ونفقات تأثيث باهظة . وعلاوة على هذه الامور المبدئية ، فهو مضطر الى الانفاق على نفسه لعدة سنوات ، ويستأجر عربة فخمة وحصانا . وهذا فوق مقدوري . فكان كل ما طمعت فيه هو أن أقتصد مايكفي لأن أضع لافتة باسمي ، ولكن لم ألبث سوى عشية وضحاها حتى حدث ما لم يكن في الحسبان ، ففتح أمامي آفاقا جديدة .

« زارني رجل اسمه بلسنجتون وكان غريبا على تماما . دخل الى حجرتي ذات صباح ، وبدون مقدمات ولا لف أو دوران ، دخل من فوره في موضوع العمل . »

قال : «هل أنت الدكتور بيرسي تريفيليان الشهير بجدك وذكائك، وفزت أخيرا بجائزة عظمى ؟ » فانحنيت له .

استطرد يقول : « أنت تملك المهارة التي تكون الرجل الناجح . فهل لديك اللباقة ؟ »

« لم يسعني الا أن ابتسم لمفاجاة هذا السؤال .

فقلت : « أثق بأن لي نصيبي . »

« ألديك أية عادات سيئة ؟ كشرب الخمر مثلا ؟ »

قلت : « حقيقة ، ياسيدي ! »

« صحيح تماما ! هذا ملائم ! ولكني مضطر الى أن اسألك : « اذا كانت لك كل هذه الصفات فلماذا لا تباشر اختصاصك ؟

« هززت كتفي . »

قال بطريقته المتعجرفة : « هيا ، هيا ! انها الحكاية القديمة . ما في فمك أكثر مما في جيبك . ماذا تقول اذا هيأت لك مكانا للعمل في شارع بروك ؟ »

« حملقت فيه مدهوشا . »

فصاح يقول : « هذا من أجل خاطري أنا ، وليس من أجل

خاطــرك انت . سأكون معك فى منتهى الصراحة . فاذا وافقك ما سأعرضه عليك ، فانه سيوافقنى أنا أيضا .. معى بضعة آلاف أريد ان أستثمرها . أترى أن أستثمرها معك ؟ »

قلت : « ولماذا ؟ »

« انها مثل أى استثمار آخر ، وأكثر أمنا من معظم وجــوه الاستثمارات الاخرى . »

« اذن ، وماذا تريدنى أن أفعل ؟ »

« سأخبرك . سآخذ البيت ، وأؤثثه ، وأدفع أجر الخادمات ، وادير المكان كله . كل ماعليك أن تفعله هو أن تبلى مقعدك فى حجرة الاستشارة الطبية . وسأعطيك مبلغا للمصروفات النثرية ، وكل شيء آخر يلزم للعيادة . وفى نهاية كل يوم ، تسلمنى ثلاثة أرباع الايراد ، وتحتفظ لنفسك بالربع . »

« هذا هو الاقتراح الغريب ، يامستر هولمز الذى عرضه على ذلك الرجل بلسنجتون . لن أتعبك باخبارك كيف تساومنا وكيف تفاوضنا .. وانتهى الامر بانتقالى الى ذلك المنزل ، فى عيد السيدة العذراء التالى . وبدأت أمارس العمل بنفس الشروط التى اقترحها . وجاء هو نفسه ليعيش معى كمريض مقيم . كان قلبه ضعيفا ، كما يبدو ، ويحتاج الى ملاحظة طبية مستمرة . فحول أفضل حجرتين بالدور الاول الى حجرة نوم وحجرة جلوس لنفسه . وكان رجلا غريب الطباع ، يتحاشى مقابلة أى فرد ، ولا يخرج من البيت الا نادرا . لم تكن حياته منتظمة ولا يعرف النظام الا فى حالة واحدة كان فيهـــا النظام بعينه . ففى كل مساء وفى نفس الموعد ، يدخل حجرة الفحص الطبى فيفحص الدفاتر ويضع خمسة شلنات وثلاثة بنسات من كل جينى (الجنى = ٢١ شلنا) ، ويأخذ الباقى معه ليضعه فى خزانة حديدية فى حجرته .

« يمكننى أن أقول واثقا من كلامى ، انه لم يجد أية فرصة تجعله يندم على استثماره أمواله بهذه الطريقة . فمنذ البداية كان الاستثمار ناجحا . كانت هناك بضع حالات طيبة ، وكونت شهرة للمستشفى انتقل بها بسرعة الى المقدمة . وابان السنة الماضية أو السنتين الماضيتين ، جعلت منه رجلا ثريا .

« هذا هو تاريخى ، يامستر هولمز ، وعلاقتى بالمستر بلسنجتون ولا يتبقى أمامى الان الا أن أخبرك بما حدث وجعلنى أجيء اليك فى هذه الليلة .

« منذ بضعة أسابيع ، جاءنى المستر بلسنجتون فى حالة هياج شديد وهو يرغى ويزبد ، وأخبرنى بحدوث سرقة فى وست اند ، واذكر أنه بدا ثائرا بغير مبرر ، من أجل تلك السرقة ، وقال انه يجب الا يمر يوم قبل أن نضع لأبوابنا ونوافذنا ، مزاليج أقوى من التى بها . وظل مدة أسبوع فى حالة من القلق الشـــديد الغريب فتراه يطل باستمرار من النوافذ . وكف عن الخروج ليتمشى قبل تناول طعام العشاء كما اعتاد دائما . وقد هالنى أن استشف من حالته أنه فى هلع شديد من شىء ما ، أو من شخص ما . ولكن عنـــدما سألته عن ذلك ، أخذ يسب ويلعن حتى اضطررت الى ترك ذلك الموضوع تماما .. وبالتدريج ، ومع مرور الوقت ، بدات مخاوفه تتلاشى ، ورجع الى عاداته السابقة ، الى أن وقع حادث جديد هز كيانه وجعله يرقد الان ، ينتفض خوفا وهلعا .

هاك ماحدث منذ يومين : تسلمت الخطاب الذى سأقرؤه لك الان ، وليس به عنوان ولا تاريخ .

يقول الخطاب : « يقيم أحد النبلاء الروس الان فى انجلترا ، ويسره أن يعهد بنفسه الى مساعدة الدكتور بيرسى تريفلين وعنايته الطبية . ظل هذا النبيل عدة سنوات فريسة نوبات تخشب عصبى ، ذلك المرض الذى اشتهر به الدكتور تريفلين وبأنه حجة فيه . يود هذا النبيل أن يأتى لعيادتك فى حوالى الساعة السادسة والربع من مساء غد ، اذا تكرم الدكتور تريفلين وبقى فى البيت فى ذلك الموعد . »

« أمتعنى هذا الخطاب كثيرا لأن الصعوبة الرئيسية التى الاقيها لدراسة هذا المرض ، هى ندرة هذا المرض .. صدقنى ، يامستر هولمز كنت فى عيادتى فى ذلك الموعد بالضبط ، فاذا بالخادم يدخل ذلك المريض .

كان رجلا عجوزا نحيل الجسم جم الادب ، وبسيطا عاديا ، على عكس الفكرة التى تتكون فى الذهن عن نبيل روسى . وقد آثار انتباهى كثيرا منظر رفيقه . كان شابا فارع الطول أنيقا بدرجـــة مدهشة ، ذو وجه قاتم شرس ، وله صدر هرقل وذراعاه . كان يضع يده فى ذراع العجوز وهما داخلان . ثم ساعده فى الجلوس على كرسى ، برفق قلما يتوقعه الانسان من منظر ذلك الشاب المفتول العضلات .

قال لى الشاب بانجليزية ذات لثغة خفيفة : « معذرة لدخولى ، يادكتور . هذا والدى ، وتهمنى صحته كثيرا . »

« تأثرت كثيرا للقلق البنوى هذا ، وقلت له : « ربما أمكنك ان تبقى هنا اثناء الفحص والاستشارة . »

صاح يقول فى فزع وانتفاض : « كلا ، أرجوك . هذا يؤلمنى ألما لا استطيع التعبير عنه . فلو رأيت والدى فى احـدى تلك النوبات المريعة ، لما بقيت بعدها على قيد الحياة ، دون ما شك .. ان جهازى العصبى حساس للغاية .. أرجو ان تأذن لى بالبقاء فى حجـــرة الانتظار ، ريثما تنتهى من فحص حالة أبى وتقرر له مايجب عليــه عمله . »

« وبالطبع ، وافقت على هذا ، وانسحب الابن واستغرقت أنا والمريض فى مناقشات عن حالته ، دونت عنها كثيرا من الملاحظات . لم يكن جم الذكاء ومعظم اجاباته غامضة ، نسبتها الى المامه المحدود بالانجليزية . وحينما جلست أكتب ملاحظاتى ، وكف تماما عن الرد على اسئلتى . وعندما استدرت نحوه ، هالنى أنه جلس متخشبا تماما فوق الكرسى يحملق فى بوجه متصلب عديم الملامح . لقد صار مرة أخرى فى قبضة مرضه الغريب .

« كان أول شعورى ، كما قلت ، هو الاشفاق والفزع ، وثانيا ، اخشى أن يكون هو الرضا المهنى . فأخـذت مذكرات بنبض ذلك المريض ودرجة حرارته وقست تصلب عضلاته وفحصت انقباضاتها العكسية . لم يكن هناك شىء غير عادى فى أية حالة من هذه ، وتتجانس مع خبرتى السابقة . وسبق أن حصلت على نتائج طيبة فى مثل هذه الحالة بأن أجعل المريض يستنشق نتريت الاميل . وهذه الحالة فرصة رائعة لاختبار مدى فعالية هذا العقار .. غير أن زجاجة نتريت الاميل كانت فى معملى بالدور الأرضى . لذا تركت المريض جالسا فوق الكرسى ، وجريت لأحضر هذه الزجاجة . وتأخرت قليلا فى العثور عليها – خمس دقائق مثلا – ثم رجعت الى العيادة .. وتصور دهشتى ، يا مستر هولمز حينما وجدت الحجرة خاوية والمريض غير موجود !

« وبالطبع ، كان أول ما فكرت فيه هو ان اذهب الى حجرة الانتظار ، فوجدت أن الابن قد غادرها هو أيضا . كان باب البهو مقفلا قليلا ولكنه لم يكن مغلقا تماما . ولم يكن خادمى ، الذى يتولى ادخال المرضى عندى ، سريعا بحال ما ، اذ كان غلاما جديدا ينتظر بالدور الارضى ، ويسرع الى فوق ليخرج المرضى عندما ادق له الجرس

الموجود بحجرة الفحص . لم يسمع هذا الغلام شيئا ، وبقيت هذه المسألة لغزا كاملا وبعد ذلك بوقت قصير ، رجع المستر بلسنجتون من سيره المعتاد ، ولكنى لم أقل له شيئا عن ذلك الموضوع ، لأننى اذا أردت الحقيقة ، كنت اتحاشي الاتصال به قدر المستطاع ، فى الفترة الاخيرة .

« لم أفكر قط فى أن أرى النبيل الروسى ولا ابنه ، بعد ذلك . ولذا يمكنك أن تتصور دهشتي حينما جاءا ، هذا المساء فى نفس الميعاد ، ودخلا حجرة الفحص مثلما فعلا فى المرة السابقة تماما .

قال المريض : « أشعر ، يا دكتور ، بأننى مدين لك بالكثير من الاعتذارات لانصرافى فجأة بالامس . »

« قلت : اعترف بأننى دهشت جدا لانصرافكما .

« قال : الحقيقة هى أننى عندما أفيق من هذه النوبات ، يغدو عقلى غير واع لكل ما حدث من قبل ، فأفقت من غشيتى فوجدت نفسى فى حجرة غريبة ، كما بدت لى ، فخرجت الى الطريق مذهولا ، حينما كنت غائبا . »

« وقال الابن : وأنا ، حينما أبصرت أبى يمر من أمام باب حجرة الانتظار ، ظننت ، بطبيعة الحال ، أن الاستشارة انتهت . ولم أدرك حقيقة الموقف الا بعد أن وصلنا الى البيت . »

« قلت ضاحكا : على أية حال ، لم يحدث ضرر سوى حيرتى البالغة لاختفائكما . والآن ، هل تتفضل يا سيدى بالذهاب الى حجرة الانتظـار ! وسيسرنى ان أستمر فى فحصى الذى توقف فجأة بالامس . »

« ناقشت أعراض مرض الرجل العجوز معه لمدة نصف ساعة أو نحو ذلك . ثم كتبت له تذكرة الدواء ، وودعته وهو يخرج مستندا الى ذراع ابنه .

« اخبرتك بأن المستر بلسنجتون اختار هذه الساعة من اليوم كى يخرج ليتمشى كتمرين رياضى بسيط ، ثم جاء بعد انصراف هذين الرجلين بوقت قصير ، فصعد الى الدور العلوى .. وبعد ذلك بلحظة سمعته يجرى الى أسفل واندفع الى داخل حجرة الفحص كرجل به مس من الجنون .

« صاح يقول من دخل حجرتى ؟ »

قلت : « لا أحد . »

- صاح بصوت مرتفع يقول : « هذا كذب محض . تعال الى فوق ، وانظر بنفسك . »

« تغاضيت عن لغته الخشنة اذ بدا نصف مجنون ، خوفا ووجلا . فذهبت معه الى الدور العلوى فأشار الى عدة آثار أقدام على البساط الزاهي اللون .

« صحت أقول : أتقصد أن تقول ان هذه آثار اقدامى ؟

« كانت آثار الاقدام ، بكل تأكيد ، أكبر بكثير من أية أقدام تحدثها . وكان من الواضح أنها جديدة وقد أمطرت السماء بعد ظهر اليوم ، كما تعلم ، وكان مرضاى هم الوحيدين الذين جاءوا . اذن ، فلابد أن الرجل الذى كان بحجرة الانتظار ، خرج وأنا مشغول مع أبيه ، الى حجرة مريضى المقيم . ولكنه لم يلمس شيئا ، ولم يأخذ شيئا ، غير أن هناك آثار الأقدام تلك برهانا على دخول تلك الحجرة .

« بدا المستر بلسنجتون ثائرا جدا أكثر من ذى قبل بخصوص هذا الموضوع . وله الحق ، فان ما حدث يكفى لازعاج خاطر أى فرد . فجلس على أحد المقاعد يبكى ، وقلما استطعت أن أجعله يتكلم كلاما متماسكا وهو الذى اقترح على أن آتى اليك . وبالطبع ، رأيت ، فى الحال ، صواب رأيه ، لان هذا الحادث فريد وبالغ الأهمية . فلو تفضلت بالمجىء معى فى عربتى لأمكنك ، على الاقل ، أن تهدىء من روعه ، رغم أننى قلما آمل فى أن يكون بوسعك تفسير ما حدث . »

أصغى شرلوك هولمز الى هذه الرواية الطويلة باهتمام عظيم ، وأبان لي أنه وجد متعة أى متعة ، فى هذا الأمر ، أثارت حماسه كان وجهه عديم التأثر ، كالمعتاد ، ولكن أجفانه تدلت بشدة فوق عينيه ، وتصاعد الدخان من غليونه كثيفا ليؤكد كل حلقة فى رواية ذلك الطبيب وما أن أتم زائرنا حكايته حتى قفز هولمز واقفا دون أن ينطق بكلمة ، وأعطانى قبعتى وأخذ قبعته من فوق النضد ، وتبعنا الدكتور تريفلين الى الباب . وبعد ربع ساعة ، نزلنا أمام باب مسكن الطبيب فى شارع بروك . وهو أحد تلك المنازل الدكناء الواجهة التى يتميز بها وست اند . فأدخلنا خادم صغير السن ، فبدأنا ، فى الحال ، نصعد السلم العريض المفروش بالبساط .

ولكن صوتا حادا أوقفنا فى مكاننا . فأطفىء النور العلوى فجأة ، وصاح صوت مرتجف من وسط الظلام ، يقول :

« معى مسدس ! واقول لكم كلمتى : اننى سأطلق الرصاص اذا اقتربتم أكثر . »

فصاح الدكتور تريفلين يقول : « هذا ، فى الحقيقة أكثر مما يجب يا مستر بلسنجتون . »

فقال الصوت وقد اطمأن كثيرا : « اذن ، فهذا أنت يا دكتور تريفلين . ولكن هذين السيدين ، أهما من يدعيان لنفسيهما ؟ »

أدركنا اننا تعرضنا لفحص دقيق ونحن فى الظلام .

فقال الصوت أخيرا : « نعم ، نعم ، هذا صحيح يمكنكم أن تصعدوا ، وأنا آسف اذا كانت احتياطاتى قد أساءت اليكم . »

اعاد اضاءة مصباح الغاز بأعلى السلم وهو يتكلم ، فأبصرنا أمامنا رجلا فريد المنظر ، يدل شكله وصوته على توتر أعصابه . كان بدينا جدا ، ولكنه ربما كان ، فى وقت ما ، أكثر بدانة ، اذ ترهل جلد وجهه فى جيوب مثل خدود كلب الصيد . وكان شاحب اللون وشعره الأصفر منتصبا كالأشواك بسبب شدة ثورة عواطفه . وقد أمسك فى يده مسدسا ، ولكنه وضعه فى جيبه عندما شاهدنا نصعد السلم .

قال : « مساء الخير ، يا مستر هولمز . انا متأكد من أننى مدين لك بالشكر العظيم على تفضلك بالمجىء ما من احد محتاج الى نصحك أكثر منى . أظن الدكتور تريفلين أخبرك بذلك الدخول الجرىء الى حجرتى ؟ »

قال وهو يشير الى صندوق كبير أسود عند طرف سريره :

« أترى ذلك ، يا مستر هولمز ؟ لم أكن قط رجلا غنيا — لم أقم ، طوالى حياتى كلها ، الا باستثمار واحد ، كما يمكن للدكتور تريفلين أن يقول لك . وأنا ، بطبيعتى ، لا أثق فى أصحاب المصارف . لن أثق بأى صاحب مصرف ، يا مستر هولمز . وفيما بيننا ، اننى أحتفظ بالقليل الذى أملكه فى هذا الصندوق ، كما يمكنك أن تفهم دخول احد الأغراب الى حجرتى ، بالنسبة لى . »

نظر هولمز الى بلسنجتون بطريقته الدالة على الريبة ، وهز رأسه .

قال : لا يمكننى نصحك طالما انك تحاول أن تخدعنى . »

« ولكنى أخبرتك بكل شىء . »

استدار هولمز على عقبيه ، مبديا حركة امتعاض ، وقال : « مساء الخير ، يا مستر تريفلين . »

فصاح بلسنجتون فى صوت متهدج ، يقول : « ولا نصيحة لى ؟ »

« نصيحتى لك أن تقول الحقيقة . »

بعد دقيقــة كنا فى الشارع نسـير الى البيت فعبرنا شارع أكسفورد وبلغنا نصف المسافة فى شارع هارلى ، قبل أن احصل على كلمة من رفيقى .

قال هولمز أخيرا : « آسف على اننى اخرجتك بناء على رسالة رجل مجنون . وهى ، فى أعماقها ، قصة ممتعة . »

قلت معترفا : « لا يمكننى أن افهم منها سوى القليل . »

« حسنا ، من الجلى تماما أن هناك رجلين ــ وربما أكثر ــ يقصدان ، لسبب ما ، قتل ذلك الرجل بلسنجتون .. لا شك عندى اطلاقا فى أن ذلك الرجل الشاب قد نفذ الى حجرة بلسنجتون فى كل من المرتين الاولى والثانية ، بينما شغل زميله الدكتور تريفلين بطريقة بارعة . »

« والتخشب العصبى ؟ »

« انه محاكاة زائفة ، يا وطسون ، ولو أننى قلما أجرؤ على القول بأننى اعرف مثل اخصائيينا انه مرض من السهل جدا تمثيله . وقد فعلت ذلك انا نفسى ، عدة مرات . »

« وماذا بعد ذلك ؟

« بمحض الصدفة ، كان بلسنجتون فى الخارج فى المرتين كلتيهما . ومن الجلى أن غرضهم من المجىء فى مثل ذلك الميعاد ، هو التأكد من عدم وجود اى مريض آخر هناك . وحدث أن ذلك الموعد وافق موعد خروج بلسنجتون للترويض على قدميه ، مما يدل على انهم لم يعرفوا روتينه اليومى وبالطبع ، لو كان غرضهم السرقة ، لقاموا ، على الاقل ، بمحاولة البحث فى حجرة بلسنجتون عما يمكن سرقته . وفضلا عن هذا ، فان بوسعى أن أقرأ فى عينى المرء ما اذا كان كل ما يخاف عليه هو جلده . وليس من المعقول أن يعادى هذا الرجل عدوين حقودين كهذين دون أن يعرف شخصيتهما . واننى لعلى يقين من انه يعرف تماما هذين الرجلين وينكر معرفتهما لأمر فى نفسه . ومن الممكن أن يراه الغد فى حالة أكثر اتصالا بهما .

قلت : « أما من بديل آخر محتمل ؟ قد تكون القصة كلهـا فيما يختص بذلك الرجل الروسى بالمريض بالتخشب العصبى وبابنه ،

من نسج خيال الدكتور تريفلين لأغراضه هو ، وكان هو الذى دخل شقة بلسنجتون ؟

أبصرت ، فى نور ألغاز ابتسامة فى فم هولمز كأن اقتراحى هذا لم يعجبه ، فقال :

يا زميلى العزيز . كان هذا احد الحلول التى طرات على بالى ، ولكننى استطعت تأكيد رواية الدكتور تريفلين . ترك ذلك الرجل آثارا على بساط السلم ، جعل من العبث ان يطلب المرء رؤية الآثار التى تركها الرجل بالحجرة . فحينما اخبرك الدكتور بأن آثار الأقدام هى لحذاء مربع الطرف الأمامى ، بدلا من المدبب الطرف كحذاء بلسنجتون وأنها أطول من حذاء الدكتور بمقدار واحد وثلث من البوصات فانك تعترف بأنه ما من شك فى أن تلك الآثار غريبة . وعلى اية حال ، دعنا نفكر فيها هذه الليلة وستكون مفاجأة لى ان لم أسمع شيئا أكثر من ذلك ، من شارع بروك فى الصباح . »

سرعان ما تحقق تنبؤ شرلوك هولمز ، ولكن بصورة درامية . ففى الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالى ، عندما لمع أول شعاع من ضوء النهار ، وجدت هولمز واقفا بالروب الى جانب سريرى .

قال : « بالباب عربة تنتظرنا ، يا واطسون . »

« ماذا جرى ؟ »

« مسألة شارع بروك . »

« هل من جديد ؟ »

قال وهو يفتح شيش الشباك : « مأساة ، ولكنها غامضة . انظر الى هذه ـ ورقة من دفتر مذكرات كتب عليها بالقلم الرصاص : من أجل خاطر الله ، تعال على الفور ـ بيرسى تريفلين . كان صديقنا الدكتور مرتبكا حينما كتب هذه . هيا ، يا صديقى العزيز ، فهذا نداء عاجل . »

كنا فى بيت الطبيب بعد حوالى ربع ساعة . فهرول يجرى لملاقاتنا وقد ارتسم الهلع على وجهه .

صاح ، ويداه على صدغيه ، يقول : « يالها من فعلة ! »

« ماذا ، اذن ؟ »

« انتحر بلسنجتون ! »

فصفر هولمز ...

« نعم ، شنق أثناء الليل . »

دخلنا حجرة الانتظار بالعيادة ، يتقدمنا الدكتور تريفلين .

صاح يقول : « الحقيقة انني لا أدرى ماذا افعل .. البوليس فى الدور العلوى .. لقد هز هذا الموضوع كيانى وسلبنى عقلى . »

« من اكتشف ذلك ؟ »

« جرت العادة أن يحملوا اليه قدحا من الشاى فى كل صباح ، فلما دخلت الخادمة بالشاى فى حوالى الساعة السابعة ، وجدت ذلك الشخص التعيس متدليا من السقف وسط الحجرة . ربط الحبل فى الخطاف الذى اعتاد تعليق المصباح الثقيل فيه ، ثم قفز من قمة الصندوق الذى اطلعكما عليه بالامس . »

وقف هولمز مدة دقيقة يفكر تفكيرا عميقا .

قال أخيرا : « أتأذن لى ، يا دكتور تريفلين ، بأن أصعد الى الدور العلوى وألقى نظرة على الحالة بنفسى ؟ » فصعدنا ، كلانا ، يتبعنا الدكتور .

كان منظرا مفزعا ، ذلك الذى قابلنا حينما دخلنا من باب حجرة النوم . وقد سبق أن تكلمت عن الترهل الظاهر فى وجه بلسنجتون .. بدا هذا الترهل بصورة أوضح ، أثناء تأرجحه من الخطاف ، وزادت شدته حتى صار منظره بشعا لا يوحى بمنظر بشرى . برز عنقه الى الامام كأنه عنق دجاجة مذبوحة ، وبدا بقية جسمه بدينا جدا وغير طبيعى بالقياس الى ذلك العنق . كان يرتدى ملابس النوم الطويلة يبرز منها قدماه ورسغا قدميه . وقد وقف الى جانبه مفتش بوليس وسيم الوجه يكتب مذكرات فى دفتر صغير .

قال ، مرحبا جدا بزميلى عند دخوله : « أهلا يا مستر هولمز ، سرنى أن أراك . »

فقال هولمز : « صباح الخير ، يا لانر لا تظننى متطفلا ، هذا اكيد . هل سمعت الوقائع التى أدت الى هذا العمل ؟ »

« نعم ، سمعت بعضا منها . »

« هل كونت أى رأى ؟ »

« حسبما أرى ، ساق الخوف هذا الرجل الى الجنون . فقد نام جيدا فى السرير ، كما ترى . فان انطباع جسمه عميق فى الفراش . وتعلم أن الانتحارات تتم عادة فى الساعة الخامسة صباحا . وهذا

هو ، تقريبا ، الوقت الذى شنق فيه نفسه . تبدو مسألة دقيقة جدا . »

قلت : « يجب ان أقول انه مات منذ ثلاث ساعات ، كما يتضح من تصلب العضلات . »

فسأل هولمز يقول : « هل لاحظت شيئا غريبا فى الحجرة ؟ »

« وجدت مفكا وبعض المسامير البرمة فوق حامل غسل الأيدى. يبدو انه دخن كثيرا أثناء الليل . فها هى أربعة أعقاب سجاير أخذتها من جانب الوطيس . »

قال هولمز « يا للغرابة ! هل حصلت على مبسم سجائره ؟ »

« كلا ، لم أر شيئا كهذا . »

« اذن ، فهل وجدت علبة سيجاره ؟ »

نعم ، كانت فى جيب معطفه . »

« انها جريمة قتل خططت بدقة متناهية »

فقال المفتش : « مستحيل ! »

« ولماذا ؟ »

« لماذا يقتل اى شخص رجلا بأن يشنقه ؟ »

« هذا ، ما سنكتشفه . »

« كيف دخلا ؟ »

« من الباب الامامى . »

« وجد الباب مقفلا بالمزلاج ، فى الصباح . »

« اذن ، فقد وضع المزلاج بعد خروجهما . »

« وكيف عرفت ذلك ؟ »

« وجدت آثارهما . اسمح لى بلحظة ، وسيكون بوسعى أن اعطيك مزيدا من المعلومات عن هذا . »

ذهب هولمز الى الباب وأدار القفل وفحصه بطريقته الفنية ، ثم أخرج المفتاح الذى كان فى الداخل وفحصه أيضا ، كما فحص السرير والبساط والكراسى ورف الوطيس والجثة والحبل . كلا بدوره حتى أبدى اقتناعه . وبمساعدتى ومساعدة المفتش قطع الحبل ووضع الجثة تحت ملاءة .

قال متسائلا : « ماذا عن هذا الحبل ؟ »

قال الدكتور تريفلين : « قطع من هذه اللفة . »

قال هذا وسحب لفة كبيرة من تحت السرير ، واستطرد يقول

« كان لديه خوف مرضى من النار ، ويحتفظ بهذه اللفة دا

الى جانبه كى يستطيع النجاة عن طريق النافذة اذا ما شب حريق وقطع اللهب طريق السلم . »

قال هولمز مفكرا : « لابد انه وفر عليهم جهدا . نعم ، الوقائع الحقيقية واضحة جدا . ولن يأتى بعد الظهر حتى ازودك بأسبابها ايضا . سآخذ صورة بلسنجتون التى اراها على رف الوطيس ، لانها قد تساعدنى فى استعلاماتى . »

فقال الطبيب : « ولكنك لم تخبرنا بشيء . »

قال هولمز : « ما من شك فى تعاقب الاحداث . كانوا ثلاثة فى هذه الجريمة : الرجل الشاب ، والرجل العجوز ، واما الثالث فلا اعرف ، حتى الآن ، دليلا يوصلنى الى شخصيته . فالاثنــان الأولان ، هما بلا شك الرجلان اللذان تنكرا فى صورة نبيل روسى وابنه . وبذا يكون لدينا وصف دقيق لهما . ادخلهما الى البيت زميل ثالث لهما . واذا كان بوسعى أن أقدم لك نصيحة ، أيها المفتش ، فهى ان تقبض على خادم العيــادة الذى ، كما أتذكر ، جاء حديثا فى خدمتك يا دكتور تريفلين . »

قال الدكتور تريفلين : « لا يمكن العثور على هذا العفريت الصغير . كانت الخادمة والطاهية تبحثان عنه منــذ فترة وجيزة فحسب ، فلم تعثرا له على أثر . »

هز هولمز كتفيه :

قال : « لعب ذلك العفريت دورا هاما فى هذه الدراما . صعد الرجال الثلاثة السلم على اطراف أصابع أقدامهم : الرجل العجوز اولا ، والشاب بعده ثم الخادم غير المعروف فى المؤخرة ... »

فقاطعته بقولى : « يا عزيزى هولمز ! »

« لا جدال فى تراكب آثار الاقدام . كانت لى ميزة معــرفة آثار اقدام من ، فى الليلة الماضية اذا ، فقد صعدوا الى حجرة المستر بلسنجتون ، فوجدوا بابها موصدا . وبواسطة سلك ، اداروا المفتاح بالقوة . فحتى بغير عدسة يمكنك أن ترى خدش السلك فى وجه القفل حيث حدث الضغط .

« وعندما دخلوا الحجرة ، لابد ان كان اول عمل قاموا به هو وضع سدادة داخل فم المستر بلسنجتون . ربما كان نائما ، والا أصابه الشلل من شدة الذعر .. ولعدم امكانه الصراخ لم يسمع احد صوتا . وحتى لو كان لديه الوقت ليصرخ ، فان هذه الحوائط سميكة تمنع سماع صراخه خارجها .

« وانتهى الأمر بأنهم أخذوا بلسنجتون وشنقوه . وكان الأمر مدبرا من قبل بدليل أنهم أحضروا معهم بكرة رافعة ليستعملوها كمشنقة .. وهذه المسامير البرمة ، وهذا المفك ، أعتقد أنها كانت لتثبيت البكرة فى السقف . فلما أنصرفوا الخطاف ، وفروا على انفسهم ، بطبيعة الحال ، عناء البكرة الرافعة وبعد أن أتموا عملهم ، هربوا ، فأقفل زميلهم الباب خلفهم . »

أصغينا ، جميعا ، بانتباه الى تصوير العمليات الليلية التى استنتجها هولمز من علامات بسيطة دقيقة ، حتى انه لما ذكرها لنا كدنا لا نستطيع متابعة استدلالاته . فأسرع المفتش فى الحال ليستعلم عن خادم العيادة ، بينما رجعت أنا وهولمز الى شارع بيكر لنتناول طعام الافطار .

بعد أن انتهينا من طعامنا ، قال هولمز : « سأعود فى الساعة الثالثة مساء ، وسيقابلنى كل من المفتش والدكتور تريفلين هنا فى هذا الموعد . وآمل ، فى هذه الفترة ، أن أكون أوضحت كل غموض بسيط فى هذه القضية .

جاء زائرانا فى الموعد المحدد ، ولكن صديقى لم يأت الا فى الساعة الرابعة الا ربعا ، فعرفت من ملامحه أن كل شىء سار معه على ما يرام .

« هل من جديد ، أيها المفتش ؟ »

« قبضنا على الغلام ، يا سيدى . »

« رائع ، وأنا جئت بالرجلين . »

فصحنا نحن الثلاثة قائلين : « هل جئت بهما ؟ »

« على الأقل ، عرفت شخصيتهما . فهذا المسمى بلسنجتون ، هو ، كما كنت أتوقع ، معروف جيدا لقسم البوليس ، وكذلك قاتلاه ، وأسماؤهم هي : بيدل ، وهايوارد ، وموفات . »

فصاح المفتش يقول : « عصابة ورزنجدون المتخصصة فى سرقة البنوك ؟ »

فقال هولمز : « بالضبط . »

« اذن ، فلابد أن يكون بلسنجتون هو صاطون ؟ »

قال هولمز : « تماما ! »

قال المفتش : « اذن ، فهذا الاكتشاف قد أوضح المسألة وضوح البلور . »

أخذت أنا وتريفلين ، ينظر كل منا الى الآخر فى حيرة .

فقال هولمز : « لابد أنكم تتذكرون السرقة الكبرى لبنك ورزنجدون . قام بها خمسة رجال ، هؤلاء الاربعة ، والخامس اسمه كارترايت ، قتلوا الملاحظ توبين ، وذهبوا بسبعة آلاف جنيه . كان هذا فى عام ١٨٧٥ . كانوا خمسة ، قبض عليهم جميعا غير أن الأدلة ضدهم لم تكن قاطعة . وكان صاطون هذا ، أو بلسنجتون ، هو أسوأ الجميع . فانقلب عليهم وقام بدور شاهد ملك . وبناء على شهادته شنق كارترايت ، وحكم على الثلاثة الباقين بخمسة عشر عاما لكل منهم . فلما خرجوا من السجن منذ فترة وجيزة ، قبل انتهاء المدة المحكوم بها عليهم ببضعة أعوام ، عولوا ، كما ترون ، على البحث عن الخائن والأخذ بثأر زميلهم . حاولوا القبض عليه مرتين فأخفقوا . ولكنهم وفقوا فى المرة الثالثة ، كما ترون . أهناك ما تريد أن أوضحه لك ، غير هذا ، يا دكتور تريفلين ؟ »

قال الطبيب : « أعتقد أنك أوضحت كل شىء تمام الايضاح . »

« لا شك فى أن اليوم الذى بدا فيه بلسنجتون مذعورا ، هو الذى قرأ فيه ، فى الصحف ، نبأ اطلاق سراح زملائه . »

« لما كان يعرف طبيعة زملائه الاجرامية ، فقد حاول ، يا سيدى العزيز ، اخفاء شخصيته عن كل انسان ، ما وسعه ذلك .. كان سره عارا اى عار . ولم يرغب فى الظهور بمظهر المجرم ، ومع ذلك ، فرغم حقارته ، كان لا يزال يعيش فى حماية القانون البريطانى . ولا شك عندى ، أيها المفتش ، فى أنه رغم وجود تلك الحماية ، فان سيف العدالة ما زال ينزل القصاص . »

هكذا كانت ظروف المريض المقيم ، وطبيب شارع بروك . ومنذ تلك الليلة ، لم يعثر لهؤلاء القتلة الثلاثة على أثر . ويقول سكوتلانديارد انهم كانوا ضمن ركاب الباخرة المشئومة نوره كرينا التى فقدت منذ بضع سنين ، بكل من عليها أمام شاطىء البرتغال ، على بعد عدة فراسخ شمالى أوبورتو ، أما الغلام خادم العيادة فقد أخفقت الاجراءات فى ادانته لعدم كفاية الأدلة . ولم تكتب الصحف اطلاقا عن لغز شارع بروك ، كما أطلق عليه .

رقم الايداع : ٨٨/٤٤٢١

الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ - ١١٨ - ٣٦٦ - ٤

روايات الهلال تقدم

المـــــــلاك

تأليف

د . نعيم عطية

تصدر : ١٥ أغسطس ١٩٨٨ م

هــــذه الــروايـــة

شرلوك هولمز هو أشهر شخصية أدبية عالمية . وقد احتفلت الأوساط الادبية العالمية بعيد ميلادها المئوى فى العام الماضى .. وهى ظاهرة فريدة لم تحدث من قبل ..

الممتع فى مغامرات شرلوك هولمز أنها كتبت لتروق جميع الناس من جميع الاعمار ، صغارا كانوا أم كبارا .. شبابا أم شيوخا . كما أنها كتبت لتقرأ فى جميع العصور لما تحتويه من خيال جامح وحاذق يصور بروعة كل ماهو شاذ وغريب فى دنيا قصص اللصوص والمجرمين ورجال الشرطة معا ..

وقد تصور الكثيرون أن شخصية شرلوك هولمز حقيقية . ومن هنا يمكن اعتبار أن مؤلفها السيد آرثر كونان دويل قد سبق عصره فى حل الجريمة بالوسائل العلمية .

وقد اختارت روايات الهلال من .. مذكرات "شرلوك
حكاياته الحقيقية التى كتبها دويل بنفسه ... وليس ال
التى حاول الآخرون تزييفها .

إذا أردت أن تقرأ شرلوك هولمز الحقيقى .. فاقتن هذا

٧٥ قرشاً

REWAYAT ALHILAL
No . 475 JULY 1988